أنا أخْطئُ كَثيراً

عنوان الكتـــاب: **أنا أخْطئُ كثيراً**
اســـم المؤلـــف: **وفاء أخضر**
الموضـــــــوع: **روايـــة**
عدد الصفحات: **294 ص**
القيـــــــــاس: **14.5 × 21.5 سم**
الطبعـة الأولى: **500 /كانون الثاني 2022 م – 1443 هـ**
ISBN: 978-9933-38-369-5

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى
Copyright ninawa

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب **4650**
تلفاكس: **+963 11 2314511**
هاتــــف: **+963 11 2326985**

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
@House Ninawa
Ninawa house
ninawa_publishing_house

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة – القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر

وفاء أخضر

أنا أخْطئُ كَثيراً

المحتويات

مقدّمة لا تقرأها ١١

الفصل الأوّل: عاشقة قراءة ١٧

الحكايات لا تُروى إلاّ متى انتهت!..... ٢٢

أحبّني ٢٤

لن نحبّ أحدا ما دام يؤرّقنا هاجس امتلاكه؛ من نحبّه نحرّره ٢٨

تضيق القلوب فتضيق الدنيا... ..... ٣١

عاشقة قراءة..... ٣٣

القبيحات لا يقفن أمام الكاميرا!..... ٤٠

كرّرْتُ ما فعلته أمّي معي..... ٤٤

ماذا فعلت بي ابنة الجيران؟ ٤٩

عقدة ما بين الفخذين ٥٢

تلويحات عصا..... ٥٤

عندما أصبح كلّي كومةَ فشلٍ مَقيت... ماذا يتبقّى من الله؟..... ٥٤

صديقتي الثائرة ٦٣

امسكني من يدي جيّدا... الموت ينتظر لحظة تسهو فيها عنّي..... ٦٦

أعتذر أنّني لبنانية! ٧١

قالب البومب ببوظة المانجا..... ٧٧

السّوداء وأولادها ٨٠

يدّعي أنّه يحبّني، ويتركني أموت وحدي!..... ٨٥

الفصل الثّاني: رسائل من الله ٨٧
أين الله؟ ٨٧
حكاية الإجّاصة ٩٠
القرين ٩٢
عاشق فلسطين والطّريق! ٩٥
البطل ١٠٢
أحتاج حمارا لأفرح. ١٠٤
بيني وبين الله ١٠٨
سأصبح حرّة! ١١٥
لو أحبّ جسدي! ١٢٢
شربل ١٢٦
اكتشف أنّي أخونه. ١٣٠
الفصل الثالث: أحتاج أن أشعر أنّي حيّة! ١٣٤
أريد استعادة عقلي وجسدي. ١٣٧
أحتاج أن أشعر أنّي أنثى! ١٤٢
ناقلة سندويتشات ١٤٦
حكاية نجوى ١٥٠
أنا لا أحبّك... أنا أحبّ تاريخي فيك ١٥٤
هل أنا قاتلة؟ ١٥٨
العجوز الشّاكرة ١٦١
لا وقت للغد ١٦٥
هل تجدني جميلة؟ ١٦٨
الفصل الرّابع: لماذا لا نقول لا؟ ١٧١
ابنتي والبطل ١٧٢

لا بأس بأخطاء جديدة! ١٧٩
رجل بحجم وطن ١٨٤
كنت أعشق الطيران... ..... ١٨٧
كانت شمس... ..... ١٩٤
كم أتوق إلى الصّدق! ١٩٨
أنا لست أنا ٢٠٤
هل كلّنا نتسلّى؟ ٢٠٩
(حكاية عاشقة جلال الدّين الرومي) ٢٠٩
عالم يوثّقني بحبل السّرة. ٢١٦
الفصل الخامس: الصّراط اللّعين ٢٢٣
اخترع الإنسان الآثام ليهرب من قلقه الوجودي... ..... ٢٢٣
حكاية لبنى ٢٢٦
أوقعْتَ قلبي! ٢٣٢
حكاية الخياطة ٢٣٩
عواطف ٢٤١
الصّراط اللعين ٢٤٨
أنا وفزّاع الطيور. ٢٥١
سأسافر ٢٥٣
لسْتُ رجلا عاديّا صالحا للزواج! ٢٥٧
الحلم واليقظة ٢٦٠
مواجهة مفتوحه مع الله. ٢٦٢
جايا... حيّة ٢٦٦
مجنونة ٢٧٦

الفصل السّادس: هذا أوان الصّدق ٢٧٩
رسالة إلى عمر ٢٧٩
غداً يوم آخر؛ غدا لن يأتي الغد! ٢٨٢
تعال أقبّلك ونصلّي معا ٢٨٦
هل تتخيّل روعة هذا؟ ٢٨٦
أنا حيّة لأنّني حيّة! ٢٩١
الخاتمة ٢٩٣

مقدّمة لا تقرأها

شمس ليست أنا، هي بعض منّي،
بعض منهنّ، بعض منكم!
قبل أن تقرأ... توضّأ

أنا أجرؤ أن أزعم أنّي إذ أحبّه أحبّ رجالا كثيرين، لا بل كلّ الرجال! وإلّا ما معنى هذا الفرح وهذه الهدأة وزهور السّوسن والورد والابتسامات التي تملأ صدري وجسدي؟ فجأة أجدني راغبة بارتداء كلّ فساتين الحسناوات وإغماضات عيونهن! ليس عاديّا أنّي أعشقه كثيرا! وأنّي أغني وحدي! وأنّي أقفز... وأنّي أقطف وردة وأقبّلها وأحدّثها بحماس شديد! أهمس لها: "إنّي أحبّه... أحبّه". هو ليس فتى رشيقا، ولا يملك سيارة وأماكن ولا يقود حتّى عجلة، ولا يحرص على إظهار قوّة عضلاته... أحبّه، لأنّه رجل بصدق، ورجل بحنو، ورجل بحرّية، ورجل بعدم خوف ورجل بابتسامة قلب ورجل بألف يد، ورجل بألف حزن، ورجل بألف أغنية، ورجل بألف حضور رغم الغياب!

أنا مجنونة وهو مجنون مثلي! لابأس هذا خير من عاقلة بفم رائحته كريهة، وبصباح تقليدي واستيقاظ ناقم! لن أسهب في الحديث كيف أنّي صباحا ولأنّي أحبّه، أتحوّل عذبة أنا ودمعي ولعابي وقلبي وتدويرة ردفي! لا يزورني ولا أراه... وأحبّه! لن يحمل لي أحلام الحياة... وأحبّه! لمّا تجد سببا لحبّ ما، لا يعود هذا حبّا. يصبح مجرّد انتظار لشيء ما. أحيانا أغبط نفسي، كيف أستطيع أن أفرح كلّ هذا، وأعشق كلّ هذا وأنا أطوي صفحات الأشياء والكلمات والانتظارات! يكفي أن نلتئم معا لتتلاشى جراح

هذا العالم المتصدّع الخائف من ألف هزيمة والمهدّد بحروب وبأوبئة ومجاعات!

"إنّما القصد من الوجود الطموح إلى ما وراء الوجود.": قالت بنفسجة جبران الطموح. لا معنى لحياة مكرّرة، بانتظار موت مكرّر! لست هائمة، ولكنّي أريد أن أكون هائمة. لمّا يعود لي عقلي، أحزن وأحلّل، ولا أجد سوى جدران وأعمدة ووقائع وبراهين وأدلّة، وحياة بلا نكهات سوى نكهة النسكافيه والقهوة والجبنة العفنة! لحظة أطير على درّاجة هوائية ويردّد قلبي: "أعشقه ويعشقني..." أصلّي، ويحضر الله ملء الكون! تسكن الأشجار والغيمات وترتاح الشمس من رحيلها الأبديّ المتكرّر العبثي. لحظة أقرأ رواية مملّة مرتّبة ومتوقّع لها نهايتها؛ أعدو، وأصرخ، وأتمدّد في الكون: ها أنا أكتب رواية على شكل قصيدة، رواية بدون أحداث متسلسلة وعقدة وزمان ومكان وحل!

الحكاية بدأت منذ افتقدت حضنا وعانقت شجرة! ومنذ دخلت الحمّام واكتشفت أنّ بطني مليء بالعفن والدود، ومنذ طردني أستاذ العلوم لأنّي أربّي القمل في رأسي ولا أربّي العجول في حقلي! ومنذ مشيت تحت المطر طويلا لأصل إلى كلّ البيوت ولا أجد بينها بيتي! الحكاية بدأت منذ عرفت أنّي أنثى وأنّ ضريبة هذا دم يسيل بين فخذيّ ولأنّي خرقاء وفقيرة وأعجز عن تغيير الفوطة، كان دمي يتسرّب من بنطالي؛ فألتقطه جنينا لقيطا وأبكي! الحكاية بدأت منذ تزوّجت وأنا أكذب؛ لأنّي أخشى إن كنت صادقة أن يتركني زوجي وحدي! الحكاية بدأت لمّا أنجبت بالآلام وبالابتسامات، ولمّا عرفت أنّي لست أفضل حالا من هرّة! مقدّر عليّ أن أنجب وأنجب لأبقى في النهاية مع هزالي وموتي وحدي! الحكاية بدأت لمّا عرفت أنّ العقل من أكاذيب ومن لغة وافتعال وأحكام وسمات... وأنّ العقل يصنّف ويحذف ولا يقبل الحياة البسيطة، ويسمّي قبحا وجنونا وفسقا ووقاحة الصّدق! الحكاية بدأت لمّا

اكتشفت أنّ صلواتنا كلّها خائبة وتذوب في الهواء وأنّ رجالات الدين، منافقون جبناء، وأنّ النبيّ الحقّ، يعشق ويبكي ولا يصلّي ولا يؤدي الفرائض ولا يخشى الجحيم ولا يستغفر الله!

خطيئة كبرى هي العلاقة التي تلغي كلّ المسافات!

لن أقول قصيدة، ولن أقول حكاية، رغم أنّ الحكاية، حكاية غريبة! لا أكره زوجي لكنّي أعشق حبيبي! الموت والانتحار والأحداث والأفكار والمشفى والانتظار واللقاء والفراق والثياب الجميلة والسّفر والعمل والأولاد... كلّ هذا من عناصر الحكاية؛ لكن العنصر الأهمّ، أنّني لست حكاية! نحن لسنا حكايا؛ نحن إحساس عابر للأجساد خالق للحكايات! ما جعلني أكتب، هو كمّ من الاحساسات تتعاظم أحيانا لتتحوّل أحاسيس إله، أو كاتب حقيقي... إن لم تكن إلها، لا تكتب!

أنا أخْطئُ كَثيراً

أنا حيّة لأنّني حيّة

الفصل الأوّل

عاشقة قراءة

كلّ العالم غاضبٌ منّي
أخطئ كثيرا يقولون!
أَصْدُقُ كثيرا
أقول...

"لو أجرع كأس السّم الآن وأموت شُجاعة وبقرار ذاتي!

أجرعها مرّة واحدة، دفعة واحدة ويكون عالم آخر مختلف عن هنا! هنا حيث الشّعور بالإثم والخوف من الأحياء والحياة!

لكن، لو جرعت كأس السّم هذه، هل تتحقّق إرادتي وأموت فعلا؟" الحقيقة لستُ من يقرّر أوان موتي.

عديدة هي المرّات التي كنت أفكّر فيها بالانتحار؛ لكنّي رغم هذا كنت أثق بوعيي القادر على قلب المعادلة!

أحيانا كثيرة، الحزن يمنحنا مناعة ضدّ الحزن. أنا في أعماقي أعي جيّدا أنّني دوما أستطيع فعل شيء ما.

"لماذا أصدّق تلك الرسائل الخائفة الحانقة؟ لماذا أغمض قلبي وأفتح عينيّ؟

غدا باكرا سأسافر إلى عمر، أحدّق في عينيه، ونبتسم معا ويكون شيء ما أفضل."

كانت أفكاري تتداعى بشكل عشوائي أعجز أنا نفسي عن فهمه... فقبل أن أسكن تماما إلى فكرة السّفر إلى عمر؛ تذكّرت يوم التقيته أوّل مرّة. ذاك اليوم، لمّا مارست الحبّ معه، امتلأت شعورا بالإثم وبالذنب.

آنّا كارنينا، عاقبها تولستوي، وفلوبير عاقب مدام بوفاري! هل سأُعاقب أنا؟

أحيانا كنت أشعر أنّي أصغر من أن أشغل هامشا، وأنّي مثلهم، مثل معظم الناس أخشى المواجهة وأنتظر أن يحملني حبيب أسطوريّ فوق قرنيّ ثور!

أحيانا كثيرة أخرى كما الآن، لمّا يصل حزني إلى أقصاه، أشعر بقوّة الحياة في أعماقي وأشعر أنّي محور الكون وصانعة أحداثه.

"عليّ أن أوجّه وعيي حيث أستطيع أن أفعل، أن أُحدِث تغييرا ما، ليكون العالم حولي أقلّ بؤسا وأكثر جمالا. أنا أشعر بطمأنينة شبه كاملة مع عمر. سأكون غدا عنده ومعه".

هذا ما عزمت عليه، بعدما عجزت عن قبول وتقبّل فكرة المكوث هنا بانتظار حدث ما، أو تصرّف ما يقوم به عمر. كان واضحا في رسالته:

"شمس، لن آتي لبنان، ولا أستطيع أن أفعل. الوضع على كلّ الصّعد كارثي! لست فارسا أسطوريا."

حاولت ألّا أفكّر بمشاكلي الشّخصية العالقة، والملّحة، وأن أنسى أو أتناسى أنّنا كما قال عمر فعلا بلد منكوب صحيّا، بسبب تفشّي وباء كورونا، وبلد مدّمر إقتصاديّا بسبب تدّني سعر صرف الليرة بالنسبة إلى الدولار... الانفجار الكارثي لمرفأ بيروت... وتركيبة لبنان السياسية الطائفية...

التقطت أنفاسي وأفكاري وقلت لنفسي: لن يكون العالم بخير جدّا أبدا! لأكون بخير، يكفي أن أكون مع عمر.

عرفت أنّ موعد إقلاع الطائرة من بيروت إلى عمّان هو العاشرة صباحا. تبقّت لي ساعات قليلة، لأحضّر نفسي. شعرت أنّي امرأة محظوظة، أحدٌ ما نقيٌ حقّا يحبّني فعلا! رغم هذه الطمأنينة التي سكنت وعيي وأسكتته، كان نومي متقطّعا. نهضت من سريري، أخذت حمّاما ساخنا، وارتديت ثوبا يكرّسني أنثى ساحرة.

شعرت أنّي خفيفة، رشيقة، رقيقة، جميلة، حيّة، كأنّما خرج منّي فشل عمر كامل!

ركنت سيّارتي في موقف عام. عليّ أن أقطع الشارع لآخذ التاكسي الذي سيقلّني إلى المطار.

كان ضجيج العالم حولي أشبه بموسيقى الدّخول إلى الجنّة. ساعات وأحيا الفرح كاملا! وقبل أن أتخيّل تلك النشوة. تراءت لي عينا آدم الخائفة، شعرت به يتسلّلني، يسكنني ورحمي من جديد. حاولت الخروج من ذاتي ومن هواجسي، تفقّدت جواز السفر في حقيبتي، ولم أتفقّد طريقي. في تلك اللحظة عينها، سمعت صوتا محذّرا، قبل أن أعي ما يحصل، وقبل أن أعرف مصدر الصوت، اختفى العالم على وقع كابحات السّيارة والهلع!

كان السائق يتمتم مذهولا: "هي رمت نفسها أمام السيّارة! لا بدّ هي سليمة! لا يوجد دماء! سأنقلها إلى المشفى."

قبل أن يكمل كلامه كان مسعفو الصليب الأحمر قد وضعوا جسدي في سيّارة الإسعاف، مع جهاز التنفّس الإصطناعي.

كنت خارج جسدي تماما! وحدي مع وحدي بدون جسدي! العالم كلّه انسحب منّي. دخلت نفقا واسعا، هوّة لا متناهية، ووجدتني أدور وأهوي داخلها بسرعة قياسية؛ لأجدني فجأة عالقة في الفراغ! شعرت أنّي فعلا معاقبة! كأنّما أحدهم زجرني وأمرني أن أقف قرب الجدار دون أن ألمسه!

عاد العالم إليّ على شكل مشاهد متقطّعة متتالية:

السّم، إبني آدم، ّعمر حبيبي، زوجي وهو يزجرني، صفعة أبي، وارتطام جسدي بذاك الهيكل الضّخم السّريع!

العالم كما الله، كما أبي، كما زوجي، كما سائق السّيارة الذي دهسني، كلّهم غاضبون منّي! أنا خرقاء وأخطئ كثيرا. أنا أخطئ في الكلام وفي المواقف وفي المشاعر! حتّى أنّي لا أعرف كيف آكل أو كيف أنظّف أسناني أو كيف أمارس الحب أو حتّى كيف أنام! أبي كان يردّد أنّي أنام كالشياطين.

ها أنا الآن أنام دون أن أحتاج أن أعرف كيف أفعل. هذا السّكون التّام، لطالما كنت أخشاه! كأنّي كنت أحدس أنّه من موت.

لو أنا ميتة حقّا، أين الملائكة؟ أين منكر ونكير؟ آه لعلّي في الجحيم مباشرة؛ كينونة تشعر بذاتها بعمق ولا أحد أو شيء حولها يؤكّد هذا.

الجحيم ليس الآخر كما أكدّ سارتر، والجحيم ليس في مكان أبوابه مقفلة، مع آخر يحاكمني. الجحيم هو هذا الغياب وهذا البياض وهذه "اللا" التي لا تصدّقها أناي! اللا آخر هو الجحيم! لكن هذا عقاب النرجسيين! هل أنا كنت نرجسية؟

لو لا يصدّق أحدّ ما موتي، لن أموت. لو يريدني أحدٌ ما بشدّة وبإصرار، لن أموت. هل سيفتقدني أحد؟ أم حزن ومراسم عزاء وانتهت الحكاية وبدأ الغد؟

أحيانا كثيرة كنت أشعر أنّي أحد أخطاء هذا العالم، لا أنفكّ أؤذي نفسي، وأؤذي الذين أحبّهم...

نحن في هذا العالم من سوء تفاهم لغوي وعاطفي وعقلي. نخطئ بدون معرفة أو قصد. حكاية أوديب الذي قُدِّر له أن يقتل أباه ويتزوّج أمّه، ويُكفّر بعدها عن خطيئة لم يردها، ولم يعِ حتّى أنّه يرتكبها؛ يكفّر عنها طوعا بأن يفقأ عينيه لعلّه بعدها يرى أفضل؛ حكايته تتكرّر في كلّ

لحظة وفي كلّ حين. لا أعتقد أنّ أحدا ما يقوم بفعل وهو على يقين أنه على خطأ! يشكّ ربّما، لكنّه يخوض التجربة ليعرف ويتيقّن.

لماذا نحن مدانون أبدا؟

ما نفع الإدانة والأحكام والمحاكم؟ هل تتسع الحياة للأخطاء والأحكام معا؟ لاوقت. لا مفرّ من الخطأ والخطيئة بالنسبة للأحياء!

قلبي صغير ساذج، يُصدّق ويصدُق! وعقلي دوما يخطّط، ويخطئ. هل أستحق حبّا كثيرا أو أستحقّ قصاصا وعقابا؟ أقرأ تاريخي، أرى أخطائي، كأنّ تاريخ كلّ منّا هو تاريخ أخطائه! لطالما كنت مرعوبة من هذا العالم بسبب أخطائي تلك. الآن أنا أجرؤ وبهدوء أن أقول:

هذا ما كان، هذا ما حصل، هذا ما أتذكّره... أو ما تذكّرته وأنا عالقة قبل الهوّة. ماذا سيكون؟ هل بدوني وبدون أخطائي سيكون هذا العالم أفضل؟

سأتخلّى عن زمام اللعبة؟ لا معنى للعب بعد الآن! هذا أوان الصّدق.

الحكايات لا تُروى إلاّ متى انتهت!

أنا لا أعرف وسيلة انتحار آمنة تماماً فعلا. لا أعرف كيف أحوز مسدّسا! بل أخشى، بسبب خرقي الشديد أن أخطئ الهدف. لو تخترق دماغي الرّخو رصاصة طائشة! أشعر أنّي حينها سأصرخ كيفما أشاء، وسأبكي كيفما أشاء، وأبعثر جسدي بعيدا عنّي. أعرف معرفة يقينية أنّي ميتة، وأعرف أنّي أعجز عن ابتلاع غصّتي؛ وأعرف أنّي لا أجرؤ على اتهام أحد. أنا التي اختارت وطنا على الحافة، وزوجاً على الحافّة، وحبيباً على الحافّة، وأولاداً على الحافّة! أنا التي امتهنت الصّدق أو الكذب حتى انفضّوا عنّي، وأنا التي لا تعرف كيف تصغي، وأنا التي لا أعرف كيف وأين أضع وجهي. نعم أنا أخطئ كثيرا، وأخطئ دوما.

مشاكلي مع نفسي، جزء كبير منها يتعلّق بقبولي لنفسي، كما بإحساسي الدائم أنّي حمقاء، أكرّر أخطائي بصفاقة.

ها أنا أزعم كعادتي أنّي من يمسك خيوط اللعبة، وأنّ مشاكلي كلّها من ذاتي وأن العالم بخير، بألف خير، وحدي العاجزة البلهاء، على طريقة غاندي عندما صرخ إبّان الحرب الأهلية في بلاده: "ما هو النقص في نفسي الذي يعيقني عن الوصول إلى أهدافي؛ الذي يمنعني من أن أحتوي الهندوسيين ومن أن أقنع المسلمين؟"

بحسب علم النفس، المرض النفسي هو عجز عن التكيّف مع المحيط... عليّ أن أخرج من علم النفس، ومن ما هو مفترض، وما هو حتمي.

سأحاول أن أخرج من ذاتي إلى العالم علّي أراه وأراني ويراني. علّي أن أقرّ أنّي كائن ضعيف تافه كئيب متى كنت وحدي؛ فالسّير وحيدة في هذا العالم يحوّله الى نفق كنفق ساباتو، ويحوّلني إلى قاتلة.

هل قتلت نفسي؟

هل هذا الحادث كان فعل انتحار؟ هل أنا رميت نفسي عن عمد أمام تلك السيارة؟

أنا كائن يتنظر كثيرا رغم أن أشدّ ما أكرهه هو الانتظار. لم أجرؤ على اتخاذ قرارات حازمة في حياتي إلّا مرغمة؛ أخشى أن أجدني ملزمة بفعل ما، بقرار ما، بطريق ما؛ دوما اودّ الحفاظ على ترف الاختيار، أو العودة عن أيّ قرار.

أذكر جيّدا كيف جسدي امتنع عن فعل الولادة. امتنع رحمي عن التقلّص. كأنّي كنت أخشى أن أكون ملزمة بفعل الولادة حتّى! لم ألد أيّا من أولادي. كلهم انتزعوا من أحشائي على ألم ومضض. سأحكيني طواعيّة وعلى سجيّتي، كما أراني وأنا على ذاك السّرير في المستشفى، بدون آليات أو حيل دفاعية، وبدون تسلسل منطقي أو زمني...

أحبّني
حتى لا يتكوّم جسدي حزينا...

ها أنا على أرض الواقعة، بثوب أسود يقول كلّ تفاصيل جسدي الذي نحتته بإتقان (رياضة ونظام أكل صحيّ دقيق)، وبشعر حريري ذكيّ يداعب أكتافي. حذائي ذو الكعب العالي ينقل خطواتي الرّاقصة؛ أنا أتقن الرّقص! فلأكن أنثى، فلأكن أمّا. المزاد فُتح، أريد أن أتزوّج.

كنت ألقي محاضرة عن أهميّة العمل في حياة المرأة في جمعية متواضعة تعنى بشؤون المرأة؛ أنشأتها حديثا صديقة، وطلبت منّي أن أتكلّم عن تجربتي الشّخصية في العمل ومتابعة الدراسة معا... لم تكن جميلة البتّة، لكنّها استطاعت أن تجمع مالا مكّنها من امتلاك مركز الجمعية هذه، بالإضافة إلى شقّة خاصة بها. كانت مثلي ترغب بالزّواج بشدّة؛ فالزّمن يكاد يأكل جسدها الذي ضاعت ملامح أنوثته بين كيلوات الشّحم والترهلات؛ ويكاد يأكل كذلك إمكانية إنجاب طفل: للأنوثة (التي يماهيها مجتمعنا مع الأمومة، مع الدّورة الشهرية) مدّة صلاحية تكاد تنفد! "المرأة عدد ومش مدد" أي ليست مددا، على حسب قول أمي!

كانت تلك الصديقة متحمّسة جدّا، وهي تطلب منّي الحضور؛ قالت: "هنالك صديق دكتور في الجامعة بين الحضور". (قصدت زوجي محمّد سعيد) كانت شبه حالمة أو متأكّدة بأنّه سيصبح زوجها. (كان لطيفا جدّا معها كما هو مع كلّ النساء.)

كنت متألقة؛ في ذروة جاذبيتي. كسبته أنا وخسرته هي منذ أوّل لقاء! كان بين الحضور فضلا عن دكتور التاريخ ذاك، طبيب صحّة متخرّج حديثا، وابن عمها الذي يمتلك شاحنة؛ وكنت أنا مع تجاربي الفاشلة مع جسدي وأحمد وحسام، وقلقي الذي كاد يحاذي الكآبة

المرضية. وقرّرت كما صديقتي تلك أنّ الزواج سينجّيني. لمّا انتهت المحاضرة، تقاطروا حولي ثلاثتهم. لم يكن زوجي أكثرهم جاذبية، لكنّه أبدى اهتماما متدفّقا بي، وكانت صديقتي قد أشارت لي بأنّه يبحث عن "عروس" وبأنّه "مستعدّ جاهز".

لمّا تكلّم، خفت؛ شعرت برغبة في الهروب والتقوقع. كان بخبرات وسنوات تفوقني وبمفردات تقارب العالم بسطحية وبرود؛ لكنّه استطاع قراءتي جيدا. أخذ يسألني عن نفسي، وأخذت أحدّثه عن غادة السّمان و"ليل الغرباء"، الكتاب الذي كنت أقرأه حينها وعن حلمي في أن أكون كاتبة مثلها؛ وعن ريشارد كلايدرمان الذي اقتنيت اسطواناته أخيرا، مع أنّي عاشقة للموسيقى العربية أكثر. هويصغي باهتمام شديد، وباعجاب ربّما بنهدي البارزين! وأنا أثرثر، ولا أتوقّف، كأنّما أقيس قدرته على تحمّل أفكاري؛ وإذا به وبغتة، يأخذ يدي بحنو ورقّة، فعلها وهو يحدّق في عينيّ، سحبت يدي على الفور. أردف: "أنا أريدك زوجة لي يا شمس، مستعدّ لطلب يدك هذه من أهلك الآن قبل الغد".

أراحتني عبارته تلك. أراحت العانس التي كنت أخالني رغم صغر سنّي (لم يفارقني يوما ذاك الشّعور أنّي غير مرغوبة!). وبقيت المثقّفة الواثقة المنفتحة المتحرّرة التي حاولت أن أكونها والتي لم ترضَ! هذه قالت له: "ولكنّي لا أعرفك وكذلك لا أحبّك."

قال:

"نتعرّف وتحبينني على أقلّ من مهلك."

وهكذا كان. بتّ أخرج معه، يتركني أحدّثه عن الكتاب الذي اقرأ، وعن الاسطوانة التي أسمع؛ وهو يقرأ تفاصيل جسدي الذي كنت أتقن إبراز فتنته حينها، ويسمع دندنة رغباتي الجنسية المكبوتة التي قرّرت بوعي تام الإفراج عنها! كان يصغي ويقود السّيارة، يأخذني إلى أماكن جديدة كثيرة،

لم ألتفت إليها! (مشغولة بالحديث، أثرثر لأشعر بالطمأنينة!). كان أحيانا ينتقي مكانا، يتوقّف فيه بعيداً عن أعين الفضوليين؛ يقبّلني؛ وأنا لا أفقه كيف تكون القبل، ولا كيف تكون اللقاءات. كان ذكيّا، خبيرا يخدّر جسدي وعقلي الذي اقتنع أنّي عليّ أن أدخل عالم الجنس لأكون سعيدة سويّة (عليّ أن أفرج عمّا بين فخذيّ)!

كان لاوعيي يعذّبني كثيرا؛ والشعور بالإثم والقذارة يتعبني؛ رغم أنّي كنت أحبّ الموسيقى التي تبعثها لمساته وقبلاته في رأسي. قليلا قليلا أدمنتها، ودخلت دور العاشقة الولهانة. اشتريت مجلّات علمية متخصّصة في علم الجنس؛ كنت أقرأها في سريري خلسة، وأخبئها بحرص شديد، بعيدا عن أعين أهلي. (لو اكتشفوها سأكون "زعرة" رسميا وبالجرم المشهود!). لا أنسى يوم دخل أبي غرفتي القذرة، أو المتواضعة التي أصبحت لي بعد زواج أشقائي ومغادرتهم المنزل، دخل حاملا مجلّة فرنسية، صارخا بحنق شديد: "ما هذا؟" سأل وهو يشير إلى صورة منحوتة لرجل عار بارزة أعضاؤه بوضوح (تمثال داود لمايكل أنجلو). ضحكت في قلبي؛ ما هذا؟ وكيف لو رأى تلك المجلاّت بأجساد حقيقية متلاحمة، وتفاصيل أخرى؟ وقبل أن تؤنسني ابتسامتي تلك، تلقيّت صفعة على وجهي وتلتها أخريات. تلك الصفعات أيقظتني وذكّرتني بوجوب مغادرة ذاك المنزل السّجن سريعا؛ ولا إمكانية مغادرة إلا بالزّواج! (أمينة محفوظ في الثلاثية غادرت بيت أهلها الى بيت زوجها وبيت زوجها إلى القبر، فهكذا تكون المرأة المحترمة، الشريفة، ويبدو أنّي لست أحسن حالا منها!). كنت عاجزة عن مغادرة بيت أبي إلّا إلى بيت الزوج (جبن مني وخوف منهم ومن المجتمع، اوقصور مادي ربّما، إذ كنت أنفق كلّ أموالي على لباسي والعطور والكتب والمجلات). عزمي على المغادرة هذا عزّزته صفعات أخرى أشدّ وأقوى، نزلت على وجهي وجسدي ذات مساء؛ كنت اشتريت تلفازا صغيرا ووضعته في غرفتي التي يشاركني إياها جرذ، يؤرّق ليالي بطرقاته على

غطاء مجرى الصّرف الصحّي الموجود في غرفتي. تلك الصفعات التي صاحبتها ركلات قويّة في كلّ أنحاء جسدي، كانت بسبب أنّي فتحت التلفاز في أيام "الحداد العظيم، أيام عاشوراء المجيدة!" هربت من تلك الرّكلات ومن شعوري بالإثم كلّما خرجت مع محمّد سعيد حبيبي آنذاك؛ هربت إلى بيت بنيته معه. دخلته ببكاء شديد وبانسجام جنسي معه غريب. ربّما كانت رغبتي الشديدة بأن أكون أمّا، وربّما كان ذاك عشقي وجسدي للحياة والشّمس...

غادرت بيت أهلي إلى بيت الزوج. هل خروجي منه سيكون إلى القبر فعلا؟

لن نحبّ أحدا ما دام يؤرّقنا هاجس امتلاكه؛ من نحبّه نحرّره.

كم أودّ لو أعود تلك الطفلة الحرّة... منبوذة قذرة لكن حرّة! آكل لأنّي جائعة... وجائعة أكثر حدّ النّهم للمعرفة؛ لا يعنيني ما أرتديه؛ لا أراني من الخارج، كأنّني من عالم لم يخترع المرآة بعد! رغم أنّي كنت على الهامش، (وما زلت) لكنّي لم أكن ضالة. الآن فقأت عينيّ لأنتمي، وحشوت عقلي بترّهات لأنتمي إلى عالم خائف هارب من ذاته، يمجّد العبودية بكلّ أشكالها... ليتني أعود حرّة!

دخلت باحة الفندق، أنا لا أرى، أو أخشى أن أُرى! حرصت على تهذيب جسدي وتشذيبه؛ يريدني راقية؛ أنا الآن زوجته، زوجة رجل مهم، يمتلك لقبا، ومكانة... يريدني جميلة، قويّة، واثقة، ثابتة. يريد كلّ ما فيّ إلّا تلك الطّفلة العاشقة دوما، الحزينة دوما. اكذبي يا شمس، هذا هو الذّكاء الاجتماعي.

عليّ أن أقول له، كم أنا مرغوبة، وكم أنا محبوبة، وكم أنا مقدّرة، وكم أنا سعيدة بكلّ ما عندي وما حولي.

هربت من إحساسي بالتعاسة الذي اجتاحني بغتة، واتكأت عليه بكلّيتي، لأذكّره أنّي أنثاه وحده. يسعده أن يشعر أنّه فاز بي؛ ابتسمت في أعماقي؛ إنّه الفوز العظيم...!

كنت أحاول أن أكون صادقة، شفّافة؛ وهذا كان يرعبه! لطالما ردّد أنه يخشاني، يخشى هذه الشّمس المجنونة القادرة على أن تصدّق نفسها وعلى أن تَصْدُق مع نفسها.

ونحن نستعدّ للصّعود إلى غرفتنا، صادفنا في باحة الفندق صديقا رسّاما كنت قد حدّثته عن روعة لوحاته؛ دنا منّا وحيّانا بتهذيب شديد وعاد

حيث كان يجلس. حاولت أن أمسك يد زوجي ونحن ندنو من المصعد؛ لفظها بغضب مكتوم عرفت للتوّ أسبابه: غار من صديقي ذاك؛ هو يعرف أنّي في أعماقي أحلم بأن أكون أنثى فنان، يعشقني بجنون كما عشق آراغون لإلسا أو فان غوغ لأورسولا...

لا أعرف إن أردت فعلا أن أكون حبيبة فنان صعلوك. هل سأسعد لوأنا ميلينا كافكا؟

ما عرفته من تجاربي المبتورة، هوأنّ الّرجال كلّ الرّجال، يعشقون المرآة بدءا من جسد وصورة، جسد مثال، ألم يعشق بجماليون تمثاله حدّ الجنون؟ لذا حرصت على أن أبدو أنثى بجسد فاتن لزوجي.

غار زوجي منه، ومن كل رجل حدّثته عنه. هو يدري في أعماق نفسه، أنّي أعاند روحي لأبقى معه وله، لرجل!

تحوّل في لحظة آخر. أخذ يدخّن بصمت؛ وجهه، انكمشت ملامحه. نظر إليّ بغضب، لم يعرف ماذا يقول، تمتم:

"أنت تحبينه... أنت تحبينه..."

شعرت برغبة بالانسحاب من كلّ هذه اللعبة، التي بدأتها بكامل وعيي. لكن خوفي من الوحدة، من الكآبة، من الرتابة وتعلّقي الشّديد به جعلاني أقول لنفسي:

"لا بأس بكلّ هذا... مفتاحه، كما مفتاح كلّ الرجال..." دنوت من جسده، وأنا أشعر برغبة بالبكاء، وبالاختفاء من هذا العالم... تجاهلت مشاعري بصفاقة امرأة لعوب، وتمتمت وانا أدعوه لقبلة بفمي:

"أنا أحبّك أنت، أنا امرأتك أنت...."

ازداد غنجا، وطفت رغبته، وظهرت بوضوح بين فخذيه... ومارست الحبّ معه بقهر ورغبة، كأنّي أقاوم الموات داخلي.

عليّ أن أكون امرأة عاديّة، لا مكان في هذا العالم إلّا للنّساء العاديات... الدور تعرفينه، واللغة تعرفينها.

السّماء والمجرّات، وسرير من الغيم، ودفق المشاعر وحياة أكبر من الحياة... كلّ هذا تهويمات من ذاكرة عالم آخر متخيّل وغير متاح.

هذا العالم، عالم معاهدات، ومساومات، واحتياجات وجسد.

الميت يموت ويدفن، والحيّ الذكيّ يبتدع محفّزات لذّة من مكوّنات هذا العالم الخارجي.

لماذا لا تشربين حتى الثّمالة؟ لماذا تتقنين الخوف والبكاء الداخلي؟ ألف لماذا، وألف سؤال، وألف بكاء... اخرجي من نفسك، ادخلي العالم.

تضيق القلوب فتضيق الدنيا...

"أشعر بعمق بأنّنا جبناء، نتخلّى عن أحبائنا وعن قيمنا في سبيل هواجس صدّرها لنا العالم الذي نتخيّله ونصدّقه رغم أنّه يعلن لنا بصفاقة أنّه يحملنا ويتحمّلنا على مضض."

"كأنّما الحكاية انتهت قبل أن تبدأ! ليس سهلا أن ترى موتك وأنت حيّ. الكل متعب وينتظر رحيلي. حتّى عمر، اختار دوما ألّا يتعب لأجلي أو لأجل سعادة ممكنة."

هذه عيّنة من تحليلاتي العقيمة التي تستغرقني وتغرقني وأنا مسجّاة ها هنا على سريري في المستشفى.

دخل الطبيب ومعه زوجي السّابق:

- انتهى الأمر، هي مستسلمة تماما، لا تساعدنا ولاتساعد نفسها!

نظرت ابنتي إلى الطبيب وإلى أبيها بخوف واستنكار.

قال أبوها: هي اختارت مصيرها هذا؛ اختارت أن تتمرّد، وأن تموت.

معه كنت أشعر أنّي ميتة، وأنّي ألوك أيامي على مضض، وأنّي أكثر النّساء قبحا؛ وهذا لأنّي كنت أبحث عنّي في عينيه، في عيون الآخرين!

مازلت تلك التي يستهويها ويغويها التحليل، كأنّي أبحث دوما عن دليل أنّ هذا العالم من خساسة ونذالة وأنّ الحياة لا تستحق ان تُعاش!

لا أجرؤ حتّى أن أرغب! لست قويّة كفاية ولكنّي لست ميتة كفاية.

لو أردت لهذا أن ينتهي، سينتهي فعلا.

دنت ابنتي مني، ونظرت إلى جسدي الجامد كجثة ثمّ ابتعدت.

ابنتي جبانة، مثلنا جميعا، تحبّ أباها وتكرهه، وتحبّني وتخشى جبروتي الذي تتخيّله. لا تدري أنّي أقاوم هشاشتي بهشاشة أكبر.

أنا الآن فقدت رغبتي بالمقاومة؛ لم تعد الحكاية لعبة! ليست القصة خيانة أوتخلّيا؛ ليس موتا فعليا، لكن كأنّما هو موت مقصود!

أردتني بغباء نظيفة، خيّرة بابتسام ويد ممدودة أبدا، لكن في الواقع لست الأمّ تيريزا، ولا أستطيع أن أكون ولا ينبغي أن أكون.

ما كلّ هذا الخوف من الخطأ والخطيئة إلا خطيئة كبرى!

دوما أنا في الهوامش ومن الهامش أرصد نفسي والعالم. لا بدّ من أشياء وحماقات لنكون في هذا العالم! المعادلة ليست سهلة، كما كنت أخالها؛ والخيارات ليست ثنائية فحسب، أبقى أو أذهب. ها أنا لم أبق، ولم أذهب؛ لم أمت ولا أحيا! لا بدّ من أن ينتهي هذا المخاض لتكون حياة! لماذا أصدّق بقوّة أنّ العالم كلّه خسيس؟ لأنّي دوما شغوفة بالصّراط المستقيم، مسكونة بالسّوط والصفعات. يكفي أنّنا نقع ونقف! نكره ونعشق، نجبن، ونمدّ يدنا بإصرار... هي الحكاية هنا، في هذا الإصرار، وحسب. أنا أحيا في الصّدى، في ما معنى هذا، ما المغزى، وما القصد؟ أحتاج أن أغمض عينيّ وعقلي وأن أفتح قلبي بعيدا عن الحذر والخوف؛ أحتاج ألا أرى العالم موضوعا لوعيي، وأن أمدّ يدي بإصرار.

عمر أدرك هذا... أدرك أنّ يدي لم تكن ممدودة بإصرار؛ لم أكن صادقة! لم أكن إلّا جبانة خائفة، لصيقة أبدا بذاك الجدار؛ كما في تلك اللعبة التي كنّا نلعبها ونحن صغار: علينا أن نترك مكاننا (العامود)، إلى مكان آخر (عامود آخر) بالكاد أصبح خاليا من آخر متشبّث به، رغم أنّ هنالك من يرصد حركاتنا ليأخذ مكاننا وذاك المكان الذي نحدّق به. علينا أن نعدو، هي الحياة في هذا العدو اليقيني رغم أنّ لا مكان لنا ثابت في هذا العالم!

عاشقة قراءة

ليس لي إلّا "سكن الليل" وفيروز! وحزني السّاكن في أعماقي كيف أنجو منه؟ لاوقت بعد الآن لعينين ماكرتين ترصدان حيوات الآخرين وحركات جسدي.

انتظرت عمرا بكامله على الهامش، بدعوى أنّي أحاول فهم نفسي وجسدي والعالم. أتقنت الانتظار والرّصد. عشق المعرفة والتماهي معها يكونان أحيانا خوفا مقنّعا: "لن أفعل حتى أفهم، حتى لا أخطئ". المضحك أنّي كلّما اعتقدتني أعرف، أجدني خرقاء أكثر!

قرأت الكثير وأنا فاغرة الفم. حاولت أن أصغي منذ صغري لأحاديث أمّي مع جارتها، ولفحيح صوتها وهي تسرُّ لأبي ماذا عليه أن يفعل، وماذا عليه أن يفهم، وماذا عليه أن يرى! (أثناء ممارسة الجنس معه، أو بعدها). أبي يصغي وينفّذ. (المرأة الذكيّة هي "وشواشة" مخدّة هكذا كانت تقول أمّي وهكذا كانت تفعل). كنت كلّما قرأت الواقع أكثر أتوه أكثر: أمّي تكذب، هل عليّ أن أكذب؟ هي كذلك تلعب، هل عليّ أن ألعب؟ وهي بعد هذا كلّه تجني الخيبة والهستيريا! هل هذا العالم ليس للقراءة؟ أو أنّه يحتاج قراءة أذكى وأعمق؟

لا تقرأ، بالقراءة لا نكتشف ذواتنا، بالقراءة نكتشف خيباتنا!

المضحك أنّي تلقّيت صفعات عديدة وأنا أصغي، فبعض الإصغاء نوم مطوّل، علينا أن نستيقظ منه! علينا أن نفعل، أن نخطئ، نبكي، ونضحك. لماذا لم يوقظني شيء قبل الآن؟ ها أنا نائمة، حيّة ميتة، في غرفة مشفى منسيّة، بدون مرآة وبعيدا عن عينيّ وعن العالم، أقرأ أعماقي، وأعرف أنّ ملامحي تصلّبت واهترأت وأنا في حال ترقّب وانتظار وقراءة!

يوم أصغيت لأمّي صفعتني وقالت: "تتنصّتين على حكايا الكبار!" ويوم حاولت الإنصات لجسدي صفعتني نفسي، ولمّا أصغيت للعلم، كانت قهقهات أشقائي السّاخرة تربكني. ما انفككت أعدو من حال إلى حال ومن فكرة إلى فكرة، ومن جدار إلى جدار...

أذكر يوما، بعد أن قرأت الكثير عن الجسد، واستنتجت أنّ عليّ أن أحبّ جسدي وأزهو به، فهو أداتي في هذا العالم، وطريقي الوحيد للدّخول إليه. وظائفي الأساسية كما فهمت بعد أن قرأت، تتطلّب جسدا بمواصفات محدّدة، معيّنة؛ تتطلّب جسدا ذكيّا مرنا مهذّبا، وليس بهيميا فجّا كجسدي. عليّ إذن أن أهذّبه وأشذّبه، وأقدّم مفاتنه بشكل حضاري لائق! وفرنسا هي منبع الحضارة ومركز الموضة والأزياء. أقبلت على قراءة المجلّات الفرنسية، قرأت فيها أنّه عليّ ألّا أخشى مظاهر أنوثتي، وأن أعمل على إبرازها.

ذهبت الى منطقة الحمرا في بيروت؛ اشتريت قميصا حريريّا شفّافا، أصفر بشكل خافت ورائق؛ (وقتها كان ثمنه خرافيّا بالنسبة إليّ) واشتريت معه تنّورة خضراء طويلة تلتفّ على ردفيّ دون أن تكون مقفلة بخياطة. اخترت حمّالة ثديين سوداء من الدانتيل الحريري وسروالا تحتيا ملائما، وحذاء أسود بكعب عال. ارتديت ثيابي هذه وتركت شعري مسدلا، أو ثائرا فوق كتفيّ. الغريب الذي لم أفهمه وقتها، أنّ كلّ من رآني كان يتأمّلني طويلا باستهجان. رغم هذا، كنت أمشي واثقة الخطوة، ملكة...

دخلت محلّا تديره صديقتي وزوجها؛ وبالطّبع فور دخولي، ترك زوجها شؤون المحلّ وتسمّر قبالتي وتحوّل كلّه إلى ابتسام وعينين من بريق! الحديث سريعا سريعا تناول موضوع الجنس. وجدتني أتكلّم بأريحية وثقة وهدوء، كأنّي خبيرة! (كنت حينها أعرف عن الجنس عبر ما قرأته في الكتب والمجلّات، بدون أيّ خبرة معاشة). ولأنّ زوجها منتمٍ لحزب الحرّية،

فقد كان "مستنيرا، متحرّرا". ومن مستلزمات التحرّر، الإفراج عن الجنس بكلّ تجلياته، بدعوى التخلّص من الكبت الجنسي، كأنّما مفهوم الكبت مساو لمفهوم الضبط. وجدتني مستغرقة في الدّور؛ وأخذت أستعرض معلوماتي الوافية عن الموضوع. قلت بزهو: "نعم الجنس يجعلنا أجمل وأبهى، إذ بؤبؤ العين يتسع، ويصفو بياضها، والشّريك تكسوه حالة من السّحر؛ حتى أن الدّماغ وبفضل هورمونات الفرح، الدوبامين، الأندروفين والسيروتونين، يطرد كلّ الأحاسيس المزعجة البشعة؛ تتلاشى الروائح الكريهة مثلا... وشرط هذا، الاستغراق الكلّي في حالة الحب."

كنت أنا أشرح وهو يصغي لقميصي الأصفر وما تحته، ولفتحة تنورتي التي تعد بمفاتن قابلة للكشف والاكتشاف! (لاحقا قرأت في إحدى روايات كونديرا أنّ الإغراء هو هذا، أن توحي للآخر أنّ ممارسة الجنس ممكنة وليست مؤكّدة). كان هو يقرأ في أمكنة محدّدة وزوجته صديقتي، تقرأ في أماكن أخرى منزعجة مندهشة. وإذا بي بغتة، أقرأ المشهد كلّه بعيونها؛ خجلت، تلعثمت وانسحبت، وعاودني الشّعور أنّ خطأي هذه المرّة لا يغتفر! أكدّت لي هذا الشّعور شقيقتي الكبرى، إذ نظرت إليّ باستهجان واستنكار شديدين صارخة: "أنت في ضيعة، كيف تخرجين هكذا؟ وما هذا القميص؟ السوتيان ظاهر للعيان بوضوح تام!"

أجبتها: "ألا أبدو جميلة؟ هنالك انسجام وتناسق بين دانتيل السّوتيان ودانتيل السكربينة تعمّدته..."

- ليست القصّة في هذا، القصّة ماذا سيقول عنك النّاس؟ ولو رآك أبوك؟

أجبتها بغصّة محاولة إقناع نفسي وليس إقناعها:

- أنا حرّة وجميلة... وهذا يكفي.

تكوّمت في سريري مساء، مع شعور بالإثم والحزن عميقين. ها أنا أسأت التصرّف والقراءة أيضا وأيضا... لم أكن بطلة يُصفّق لها! معلوماتي

الوافرة لم تنفعني، كذلك حذاقتي في انتقائي ثيابي وسخائي الشّديد في الإنفاق عليها! أنا لا أفهم لماذا رغم كلّ هذه الجهود، أفشل؟ لماذا دوما أخطئ؟ هل يحرّكني الكبت أو شعوري بالنقص أو الإثنان معا؟

كنت مقيّدة مرتبطة بكلّ رد فعل وبكلّ انطباع، وبكلّ إيماءة تصدر عن النّاس حولي. لم أكن حرّة البتّة...! لا أعرف كذلك إذا كنت أبدو حقّا جميلة، كنت أقرأ وأنفّذ. وأنا قرأت جيّدا كما اعتقدت، قرأت حتّى تصرّفات أختي عينها، لذا لم أفهم موقفها المتناقض المنافق:

"كيف تنسى ما فعلته هي أمامي مرارا؟ كانت حريصة دوما على أن تكون الأنثى التي تغوي لكن بموارية. لماذا انزعجت لمّا فعلت علانية أنا ما تفعله هي بعيدا عن أعين إخوتي وأبي؟

في أولّ كتاب علم نفس اشتريته لفاخر عقل، كان الكاتب قد أوصى ابنته عبر رسالة فيه: "لا تفعلي في السّر ما تخشين فعله علانية." ولأنّ وصايا أبي كانت تمجّد الموت وطقوسه، اخترت أن أصغي لفاخر عقل. أليس هو بعالم نفس؟ أو أنّي لا أجيد القراءة، أو ماذا...؟

منذ فقدت الثّقة بأمّي وذكائها وخياراتها إثر تلك الحادثة التي لم أنسها يوما؛ اتخذت مرشدا ومربّيا وموجّها لي العلم، العلم وحسب.

كنت في الحادية عشرة من عمري، وكنت حفظت دروس أمّي جيدا، وأخمدت أسئلة عقلي فيما يتعلّق بالجسد كما اعتقدت؛ "الجسد من قذارة ودناءة وعيب..." رغم أنّه موضوع حديث أمّي الدائم مع جارتها. (لا بأس هم كبار، أمي تقول هذا الحديث للكبار.) وكنت وقتها ما زلت أصدّق أمّي؛ حتّى كان درس العلوم الذي يتناول موضوع التكاثر والتزاوج. كان هذا السّؤال يشغلني جدّا؛ كيف نكون ونتكوّن؟ كنت أتخيّل أنّ التلامس بكل أشكاله يجعلنا ننجب. أمّا القبل هي سبب لإنجاب سريع ومؤكّد. كنت أسترق النّظر لأبطال الأفلام العربية وهم ينجبون، أقصد

وهم يتبادلون القبلات. المهمّ وقتها، عرفت السرّ العظيم، وعرفت معه حقيقة أخرى، غيّرت مجرى حياتي!

كان الأستاذ الذي أحبّ وأقدّر باشر بشرح الدرس، وأنا أصغي وأنصت بكل جسدي ودمي؛ أخذ يتحدّث عن الحيوانات المنوية والبويضة والسّباق واللقاء بينهما؛ وأخذ يشرح ويسهب وأنا أصغي ودمي يغلي حتى انتهى بتحذيرنا نحن البنات من استعمال ليفة الحمّام عينها التي يستعملها أشقاؤنا الصبية، بدعوى بقاء حيوان منويّ حيّ عليها متشوّق للاتحاد مع بويضة تنتظره في رحمنا، وحينها يكون حمل سفاح! هنا ارتفعت حرارتي، بشكل أكبر مما أستطيع تحمله؛ فقد انتبه وعيي أنّي أخون أمّي وأصغي إلى ما لا يجب أن أعرفه! وقفت متحمّسة، وأنا أتوقّع أن يصفّق لي الأستاذ والتلاميذ، وبقصد إسكات واسترضاء الأنا الأعلى في أعماقي الذي كان قد بدأ بركلي؛ وقفت وقلت بصوت واثق:

- لماذا لا تلغي هذا الدّرس يا أستاذ؟

لم يجبني. فقط رمقني بنظرة أشعرتني بخزي أكبر من أن يحتمله وعيّي المُتعَب من الصّفعات. تلك النظرة، لم أنسها يوما! سكتت، وقرأت وفهمت أنّ أمّي لا تفرّق بين العلم والجنس والحبّ، الزعرنة والحقيقة والخرافة... وفهمت أيضا أنّ أسئلتي مشروعة وتستحقّ البحث عن إجابات؛ إجابات لن أجدها عند أمّي التي لا تعرف حتّى قراءة اسمها والتي أفعالها تتناقض وأقوالها؛ إجابات لن أجدها كذلك في محيطي الغارق في الوجع والجّهل والتناقض، والنفاق. بدأ حينها شغفي بالعلم والكتب والقراءة يظهر جليّا. عرفت أنّي لأفهم، عليّ أن أقرأ جيّدا ما يفعلون، وما وراء ما يفعلون، وما وراء ما يقولون...

كان أخي ينهرني إذا لعبت مع صبيّ من صبية الحي، ويزجرني لأنّي أمشي بمؤخرة بارزة راقصة كما كان يقول، وكان هو يغازل ابنة الجيران

التي مؤخّرتها كمظلّة! (بحسب توصيف محفوظ لإحدى النساء في ثلاثيته). وما فعله وما يفعله هو وأصدقاؤه "الأحرار" المنتمون إلى حزب الحرّية، جعلني أضرب عرض الحائط بكلّ ما يقوله...

بعد حادث، قيل فيه أنّ أخي تعرّض لأحد أفراد حركة حلم، طردنا من الضيعة، ولأنّنا لم نعرف أين نذهب وكان أبي وقتها مسافرا، أخذنا أخي إلى مركز حزب الحرِّية في صيدا مؤقتا حتى نجد مكانا نقيم فيه. مكثنا هنالك أسبوعا كاملا. غيّر هذا الأسبوع مفاهيم عقد ونيف كنت اكتسبتها مما يملونه عليّ. كان في المركز شباب وصبايا يعيشون معا بدون أيّة صلة قرابة. وأخي هذا المتزمّت في البيت، كان هنالك منفتحا متقبّلا لما كان يزجرني بشأنه وشقيقاتي! وشقيقتي التي استنكرت لباسي المثير لاحقا، كانت تجلس معهم مبتسمة، بثياب البيت غير المحتشمة... اكتشفت وقتها أن العالم ليس ضيّقا وخانقا أو بلون واحد وطريقة عيش واحدة كما كنت أخاله.

عزمت بإصرار أكبر أن أقرأ أكثر وأكثر ودوما وبتمعّن؛ حتى كان يوم رأيت فيه زوجي ينصت لهمسي ولجسدي وهو يمارس الحبّ معي، شعرت أنّه يهينني ويشيئني. ولكن ألم أفعل هذا أنا دوما وأبدا؟ عرفت في تلك اللحظة أنّي لم أكن فقط خرقاء، حمقاء! لا بل سمجة، مدّعية أحوّل الناس إلى أشياء وموضوعات، أحدّق في تفاصيلهم متفحّصة، باحثة عن الغثّ والسّمين، أحكم وأحاكم، أصنّف وأقيّم. عرفت أنّي طفيلية متعالية، حتى اختياري لعلم النفس، كان لأرى أفضل وأقرأ أكثر! وكان طريقي للوقوف على الحياد، أراقب الذين يخطئون وحسب. كان بشكل ما جبنا ومحاولة للهرب من ارتكاب الأخطاء، أو الغوص في الحياة!

الحكاية ليست هذه وحسب، ليس سهلا أن نتعلّم كيف نكون أفضل، دون تنزيه وتأليه أنفسنا أو دون تشييئ ذواتنا والآخر.

ها أنا مع عمر اخترت أن أقترف خطيئة وليس مجرّد خطأ! وبتّ أكتب فوق ابتسامتي: نحتاج أن نكون مجانين وحسب، لن نندم إلّا على ما لم نفعله!

أريد أن أخطئ أكثر وبذكاء وبنقاء وبدون خوف وتلعثم وخجل. أريد أن أبكي دون أن أنظر إلى ملامحي ودون أن أداريها.

كل قراءاتي ناقصة ومجتزأة ومجتزئة. خطأي الكبير محاولتي أن أكون على صواب بالمطلق! وخطأي الأكبر أنّي نصّبت العلم إلها. لن نكون يوما على صواب بالإجماع وليس من حقيقة في هذا الوجود أكبر منّا، أكبر من الإنسان الخاطئ...

هل كان تحليلي هذا كافيا لأجد الطّريق؟

القبيحات لا يقفن أمام الكاميرا!

دخلت الحمّام وأنا أمسك بطني. ابني يعدو خلفي.

- أمّي أنت بخير؟

جلست على أرض الحمام؛ بعد أن تقيّأت كلّ ما أكلت وكلّ ما قاله لي زوجي. السّكون، والبرود، والخواء في بطني.

كلّ هذا منحني سكينة غريبة!

تلك الأرض والبلاط والمغسلة، وفرخ الحيّة الذي كان يشاركني برودة المكان طوال الليل دون أن يلدغني! كان الحرّ شديدا كوحدتي؛ كأنّي ولدت من سديم في أرض غريبة! أخيرا طلع الصّباح. لملمت الشّرشف الذي أنام عليه، نظرت إلى الشّمس، ذهب خوفي، وقتل أخي فرخ الحيّة.

تملّكني شعور بالغبطة غريب لأنّي نجوت.

أفكّر في كلّ شيء، التافه كما المهمّ. لا أعرف السّكينة الداخلية أبدا. لماذا لم يلدغني فرخ الحية؟ ولماذا لم أخش النّوم في العراء؟

كنت في تحليلاتي أصغي لصوت أمّي في داخلي، وكذلك لصوت العالم حولي؛ كنت أصغي بتركيز واهتمام شديدين، وتعلّمت أوّل ما تعلّمت الخوف والكذب وعدم الخوض في كلّ ما يتعلّق بالجنس. فالنّاس حولنا لا يحبّون الصّدق ولا يحبّون الجنس كما يزعمون.

رغم هذا كنت أزعم أنّي صادقة؛ أو لأصدّق أنّي صادقة، كنت أجرّب دوما الأفكار التي أتبنّاها او أصدّقها.

جارتنا في منزل أهلي، سمراء عفوية. وفي محيطي كلّهم يحبونهن شقراوات!

كانت فتاة بسيطة، تحوّل معاناتها نكاتا وابتسامات. (تهتم بالحقل وبالأبقار وبالدّار، وبخدمة أشقائها، وبكلّ شيء حولها إلّا نفسها). كانوا

يلقّبونها "حسن الجمال" على قاعدة العكس هو الصّحيح. ولأنّي سمراء مثلها، ولانّي عزمت على الإعتراف بعيوبي (صادقة!)؛ ولأرتاح من انتظار حكم ميؤوس منه ينصف شكلي ويعلنني جميلة؛ أقرّيت أنّي بشعة؛ وأنّ عليّ أن أنسى شكلي وكلّ ما يتعلّق به: حبّ، لباس أنيق، تسريحة شعر... تركت جسدي على طبيعته الفجّة. كنت أرتدي أيّ شيء، وأمشي أحيانا حافية أو بحذاء ممزّق. عليّ أن أقرَّ وفقا لقوانين الحكايا التي يروونها (بياض الّثلج، سندريللا، ست الحسن...) أنّي لا أصلح بطلة لأيّ دور رئيسي. كلّهن بيضاوات جميلات قبل كلّ شيء. هل أنسى حكاية بنت "الشّوحة" التي ولدت من بيضة فوق شجرة الحور وكانت بيضاء كالثّلج على عكس الخادمة المسكينة السّوداء، التي مقدّر عليها العمل الّشاق لأنّها سوداء؟ في أحد الأيام، كانت تغسل الأطباق بمياه النبع تحت الشّجرة عينها. عكست المياه وجه بنت الشّوحة الناصع البياض؛ فظنّت الخادمة أنّه وجهها، وقالت تلك العبارة التي لم أنسها يوما: "حسني كلّ هذا الحسن وجمالي كلّ هذا الجمال وأغسل الصّحون!؟" ورمت الصحون ومشت مزهوّة. أصبحت بطلة! في تلك الحقبة لم تكن المرايا قد اخترعت بعد. في زماني هنالك مرايا كثيرة، لكنّي في الواقع لم أبحث عن نفسي فيها؛ تكفيني عيون أخوتي والجيران. بدون شرح وإطالة، أقرّيت بشجاعة مهيبة أنّي قبيحة وكفى! والمفترض بحسب وعيي آنذاك أنّ حسن الجمال قد فعلت هذا أيضا. لكنّها ولحسن حظّها لم تكن "واعية" مثلي أو مسكونة بوعي جماعي مشوّه مثلي (وعي مستلب). المهمّ كنت ألتقط صورا لشقيقاتي "الجميلات"، بين أزهار الدّحنون؛ وإذا بحسن الجمال تنبت أمام الكاميرا بروحها الجميلة وبابتسامتها الدّائمة، وتقول لي:

- صوّريني!

وإذا بي وباعتداد وثقة أجيبها:

"الفتيات القبيحات لا يقفن أمام الكاميرا"!

لأوّل مرّة تختفي ابتسامتها تماما. تنحّت بسكون تام. شعرْتُ أنّي آذيتها. ولكن ألم أعمل وفقا لأحكام العقل والمنطق؟ أين الخطأ في هذا؟

حزن عينيها ذاك، وابتسامتها التي أطفأتها كلماتي "المنطقية" تلك، لم أنسهما.

هل سنقف وجها لوجه أمام الله يا حسن الجمال؟ أم ستغفرين لي لأنّك فعلا من حسن كثير وجمال أكثر؟

حولي العالم كلّه من نظام أقرب إلى التزمّت القاتل، أو من فوضى همجية. حروب وفقر وخوف، ويتم وقهر (أمّي وأبي يتيمان من قبل أن يتفتّح وعيهما). كلّ الطرق من بكاء وموت؛ وأنا عاشقة للفرح والحياة.

كان يؤرّقني سؤال واحد، كيف أنجو؟ وكيف أجد طريقي؟ اعتقدت طويلا أنّ العلم وحده قادر على تقديم أجوبة حقيقية غير مشكوك فيها؛ ولم يكن ذاك عصر المعلومات والنّت كما اليوم. ليس من كتب كثيرة حولي، ادّخرت ما أستطعت أن أدّخر من عملي (مساعدة أولاد الحيّ على إنجاز دروسهم،) واقتنيت راديو صغير، يحدّثني طوال الليل! وأستعير وأقرأ ما تصل اليه يداي من كتب. وبات العلم مرشدي وبوصلتي، (المعلومات التي كنت أكتسبها من المدرسة كانت متواضعة، إذ كانت أيّام التعطيل أكثر بكثير من أيّام التّدريس بسبب الحرب، وغياب الأساتذة المدعومين من الأحزاب والميليشيات اعتباطيا. وبدأت أتحوّل دون أن أشعر إلى كائن متزمّت مغتر متعال دون أن أدري. كنت كلّما أبديت رأيا في أيّ مسألة؛ أعرض حججي الدّامغة الكثيرة، يصمت المتلقي وأزهو أنا! إلى أن كان يوم كنت عائدة فيه من الثانوية إلى البيت والطّقس ماطر، توقفّت بمحاذاتي سيارة يقودها رجل أربعيني، وعرض أن يوصّلني. صعدت، وبدأت أثرثر حتى أداري خوفي منه، وألزمه أن يكون لطيفا (الكلام مع الغرباء بدون تكلّف وبإلفة يحرجهم فيتصرّفون بإنسانية، لأنّنا غالبا ما نظهر فظاظتنا

أمام الأغراب، هذه كانت نظريتي). وسألني عن أحلامي بعد سلسلة الأسئلة التقليدية، أجبته وكأنّي حكيم كهل:

- هل من مستقبل في هذا البلد؟ وعرضت له مشكلاتنا بدءا من ثقب الأوزون انتهاء بصعوبة او حتى باستحالة النّجاح في امتحان البكالوريا (وقتها كانت نسب النجاح في صفوف الشّهادات متدنّية جدا) وسألته:

- ماذا تعمل؟

- وكيل وموزّع لدخان مارلبورو وكانت (أنواع من علب التبغ).

ابتسمت بحسرة شديدة، مشفقة على الفقر والتشرّد اللذين ينتظراه! وقلت له بثقة:

- لكن التدخين مضرّ بالصّحة. وعاجلا جدّا سيتوقّف كلّ الناس عنه. ولمن وأين أنت ستوزّع علب التبغ تلك؟

نظر إليّ باستغراب، أو بتشكّك. طأطأ رأسه ولم يجب.

نظرته تلك حملتني على التفكير. شعرت أنّي بلهاء ولكنّي لم أفقه كيف ولماذا. كلامي كان علميا؛ أين الخطأ في ما قلت!؟

كلّما تذكّرت هذه الحادثة أبتسم. عتقدت أنّنا نسير وفقا لأحكام العقل. لم أتأخّر لأعرف أنّ الفكر ليس دوماً مبدأ العمل وأنّنا كائنات في أحسن الأحوال تعمل وفقا لميولها ورغباتها.

ناداني آدم:

- تأخّرت أمي، أنت بخير؟

- أنا بخير يا حبيبي مع أنّ بطني ما زال يؤلمني. أنا بخير وفقا لأحكام قلبي؛ قلت له وأنا أحتضنه.

كرّرْتُ ما فعلته أمّي معي.

رحلت ابنتي الثانية دون أن تعرف مقدار حبّي لها، أو حتّى تعلّقي الشّديد بها؛ تعلّقي الذي حرصت على إخفائه حتّى أتحاشى غيرة شقيقتها البكر الكبرى؛ أو لأسباب أخرى، كإحساسي الشّديد بالأسى يوم أنجبتها؛ كان زوجي تقليديا بما يخصّ الأبناء، فهو يريد الصبيّ، ويحلم بالولد. شعرت أنّي خائبة يوم أنجبتها! (لم أحقّق له أمنيته! التي لم تكن أمنيته، كان هو أيضا بوعي مستلب، يرغب بما يرغبون بانصياع كلّي.)

كان هاجسي أن أكون كبقيّة الناس، أريد أن أشبههم؛ فقد اعتقدت أنّي وحدي تعيسة، وأنّهم سعداء، محظوظون بما عندهم، وبما هم عليه. عجزت عن أن أصبح مثلهم. محاولاتي المتكرّرة في أن أكون شبيهة لأحد ما أو لكلّهم، باءت دوما بالفشل. "يسمّون هذا نقصا، وبالتالي عليّ أن أشعر أنّي ناقصة عنهم، وبأنّهم الأفضل والأكمل". شعرت أنّي مظلومة، وأنّ الله لم يعطني من هباته الكثير. كان هذا يشعرني بأسى شديد، وبرغبة بالبكاء طافحة.

رغم الألم الشّديد الذي كان ثمنا ليقظة وعيي؛ عليّ أن أقرّ أنّ الله لم يتخلّ عنّي يوما؛ لم أستطع الدّخول، أو المكوث في مراعيهم! لوقت طويل غفوت، كما الأميرة النائمة؛ واستيقظت على آلام أكبر من وعيي وطاقتي وقريني وأنانيتي وقدرتي على الانتفاع من أيّ حدث يصادفني. كانت صرختي أكبر من كلّ شيء في هذا العالم، ولأحتملها كان علي أن أراه، أن أرى الله وأن أرى طفلتي في عينيه.

كان موتها غبيّا عبثيا مفاجئا. رحلت سريعا جدّا. هل يموت الأولاد قبل الأهل؟ كيف يفعلون؟ وكيف يجرؤ الله على هذا الفعل القبيح؟

ها أنا أتمتم وأغمغم صلوات ودعوات وأرمي القلم بعيدا. "استحضري أحداثا أخرى": رجوت نفسي. لا أستطيع أن أكرّس موتها كتابة! هي في

أعماقي، وأنا في أعماقها بالتأكيد... الموت كذبة كبيرة. انهمرت دموعي مالحة ساخنة. كانت جميلة بحيوية وذكاء وعشق، وابتسام، وحزن. (ربما شعرت أنّي لم أرحّب بمجيئها كما يجب؛ أرادتني نادمة على ذلك). ذكاؤها متوهّج كحضورها؛ مشت باكرا جدا، وتكلّمت باكرا جدا؛ وعرفْتُ باكرا جدا أنّها امتدادي وروحي. فضولية، تتدفّق في الآخر وتغمره اهتماماً وتحاول أن يبدو هذا تلقائيا، سهلا، سلسا، رغم المجهود الذي كانت تبذله. كانت جميلة كلّها، شديدة الحساسية؛ بكت يوما كاملا لأن المعلّمة شتمتها قائلة: "أنت بلا تهذيب." لماذا نشتم الأطفال؟ لماذا لا نعترف بعدم قدرتنا على فهمهم؟

عشقت أباها، حاولت منحه الحياة التي أبى أن يمنحها؛ ماتت هي ولم يحيَ هو. كيف آذيتها ذاك اليوم وجعلتها ترتعش وترتعد وتُحْرج؟! كرّرت ما فعلته أمّي معي؛ مع أنّي حاولت جاهدة ألّا أشبه أمّي! لم أعِ أنّها تسلّلت في أفعالي وفي ردود أفعالي!

ذاك اليوم انتصبت أمامي صباحا باكراً في الحديقة، امرأة من "حيّ الأغنياء"، الطبقة التي عليّ أن أرضيها، وأن أتماهى مع قيمها، كانت عائدة من رياضة الصباح. تنتقد "العامّة الرعاع" باستمرار، ولا تتواجد حيث يتواجدون. بدت واجمة، جدّية ومُحرَجة.

- عندي لك يا شمس خبر سيء...

قالت وهي تحدّق في وجهي الذي تغيّر لونه.

لم أستطع أن أتماسك. فتمتمتُ بلهفة:

- من؟ ماذا هنالك؟ هل الأمر يتعلّق بأولادي؟

كنت أمّا جزعة؛ لا أتحمّل أن يصيب أيّ مكروه أولادي.

قالت:

- يعني... لا أعرف كيف أقول ومن أين أبدأ.

قلت في نفسي:

- انطقي يا امرأة، قلبي هوى منّي وأكاد أقع أرضا.

وبالفعل وجدتني عاجزة عن حمل جسدي. اتكأتُ على جذع شجرة وهي تتكلّم ببطء وبصوت خافت.

قالت:

- رأيت صديق ابنتك الصغرى نائما فوقها، على العشب، قرب منزلي، يقبلها.

قالت هذا وسكتت.

سألتها:

- من صديقها؟

- ابن فلانة، جارتنا، تعرفينها جيّدا! علّمته كلّ الشتائم باكرا جدا. ولربّما، بل من المؤكّد أنها ضاجعت كلّ رجال الحيّ أمامه. لن أقول لك ما تعرفينه، منذ هاجر زوجها، تاركاً إيّاها مع طفلها هذا، لم تهدأ، أو لم يهدأ سريرها. هي سليطة اللسان ووقحة... وأكملت حديثها عن سيرتها "السافلة" وأسهبت (فزوجها من الرجال الذين عاشرتهم بحسب ما قصّت عليّ سابقا).

عاودتني أنفاسي وشعرت بارتياح عابر: أولادي بخير!

لم أسمع بقية ثرثرتها عن الشّرف وعن جسد البنت وهشاشته؛ ولكنّي شعرت فجأة بالقلق. صحيح، ابنتي بخير، ولكن، ابنتي التي أزهو بها تعيّرني بسلوكاتها هذه...! سقط وعيي فجأة منّي وأصبحت أخرى تفكّر وتشعر بعبء "الفضيحة"! يومض وعيي للحظة ليسخر من الحدث وذيوله ويعود خوفي أو وعيهم ليهزم وعيي.

ذهبت هي واستدعيْتُ أنا طفلتي بسنواتها الأربع، وبعينيها الذابلتين وفمها الزهري الصغير اللطيف، كانت من خوف، كلّها. قرأتني، أو ربّما رأت

المرأة من على الشّرفة التي جاءت تعلمني أنّها أنقذتني وطفلتي من ورطة كبرى! فقد نهرت الصبيّ وابنتي وهدّدتهما بالسّوط.

ما أبشع الأطر الذي نضع فيها أولادنا، فلا نعود نراهم أو حتى نقبلهم كما هم! نريدهم كما نتخيّلهم وحسب.

"أنت الذكيّة القويّة أعدت ارتكاب نفس "الخطيئة الكبرى"، "خطيئتي" ("الخطيئة" التي يرتكبها معظم الأطفال في مرحلة اكتشاف الهويّة الجنسية)." تمتمت، كما لو أنّي أحلم.

لا أذكر الآن من ذاك اليوم إلا أنّي عن وعيّ أو عن غير وعيّ كرّسْتُ في داخلها شعورا بالذنب وشعورا بالإثم عظيمين... طفلتي التي لم أرضع، طفلتي التي لم أحتضنها دوما، طفلتي التي لم أرها جيّدا، طفلتي التي أعشقها الآن ودوما؛ رحلت دون أن أحبّها كما يجب. كيف كانت؟ كيف غابت؟ كيف خافت ذاك اليوم حتّى الصّمت والذّهول؟ هل خافت من الباص الذي داسها بقدر خوفها من عينيّ ذاك اليوم؟

كانت تعدو لتلقاني، لقيت الموت! وغاب قلبي وفرحي وغبْتُ عن العالم حولي.

كان ذاك ألما شديدا لي؛ هل كان كذلك بالنسبة لها؟ لكن أنا لم أشعر إلّا بالغياب، الغياب اللذيذ، لحظة صدمتني تلك السّيّارة. هل رميت نفسي عمدا تحت السّيّارة لأشاركها الألم، الموت ولأتطهّر؟ هل ذهبت رين فعلا وأبدا؟ أنا أراها جميلة كما هي... أحتضنها جميلة كما هي... تبتسم لي جميلة كما فعلت ذاك اليوم! ها أنا أصغي، ورين تحكي حكاياها، أحلامها، أخطاءها...

كان عليّ أن أسميّها معها تجارب خاطئة...

شعرت أنّ الجفاف يكاد يخنقني. كلّ ما فيّ يريد احتضانها. هي لحظة اللاعودة إلى الوراء...

تنادي الممرّضة الطبيب:

- النبض أصبح ضعيفًا جدّا، يكاد يختفي...

أشهق أنا، وعينا ابنتي الذابلتان ملء العالم. أفّ! هل فعلا يموت الأطفال؟

أشعر بالأوكسيجين يعبر رئتيّ، وبنبض قلبي يتسارع؛ وتنزّ دمعة كبيرة من عيني اليسرى، كتلك التي غشتها يوم انتظرت أحمد ولم يأتِ...

ماذا فعلت بي ابنة الجيران؟

الحكاية بدأت منذ ذاك العيب، منذ ذاك الحمّام القذر، والصبية والشّارع المغبّر، وفتاة الحيّ" الخبيرة". أذكر العيدان، وأذكر قذارة الحمّام، حمّام المدرسة؛ وأذكر أنّها بعد أن خلعنا سراويلنا التحتيّة، استعملت العيدان. لماذا؟ لم أفهم؛ ولم أفهم كذلك ذاك الألم، وتلك النظرة، نظرة عينيها الغريبة...

عدت إلى البيت وأنا أصرخ: أمّي، أمّي... هناك ألم شديد بين فخذيّ!

كان ردّ أمّي ألما مضاعفا، وشديدا! و... أسئلة وأجوبة وضرب وصراخ حتّى الهذيان.

تمدّدت على الأرض فاتحة رجليّ. بكائي كان حارّا شديدا وكثيرا.

لم أفقه أين كنت وأين أصبحت؟ ماذا حصل؟ ماذا فعل بي جسدي؟ ماذا فعلْتُ بجسدي؟ وماذا فعلت بي ابنة الجيران؟

لماذا فعلت هذا؟ هل شعرت بلذّة؟ لا أعرف. تجاوز الممنوع... فتح الباب السّابع المحرّم والسّماء السّابعة!

هنا ألم، وهنا أمّي، وهنا حيّ مغبّرٌ ورفاق زقاق، وإله نسيني مع عضو غول، مع سماء غير متماسكة، مع أمّ تخشى العيب أكثر ممّا تخشى موتي!

اليوم وأنا زوجة، وأنا أمّ، ما زلت أخشى ذاك المكان كما خفته وأنا في الخامسة من عمري، وكما كنت أخشاه وأنا في العشرين!

لماذا لا أستطيع أن أُفرج عمّا بين فخذيّ؟ لماذا في رأسي محطّات عديدة مربَكة، صور ومشاهد تتداخل وتعبر؟

لم أكن أعي ما معنى أنّي أنثى! أعي أنّي أحمل حزن تلك الطفلة، وأنّي أحارب الشّعور بالحزن بحزن أكبر منه! لمّا كان حزني يكبر أكثر ممّا أتحمّل،

كنت أحاول مضغه؛ آكل بشراهة، بنهم حدّ التقيؤ! أتقيّأ شعوري بالإثم، أتقيّأ جوعي الذي لا يهدأ. لمّا يفرغ جسدي تماما أدخل هدنة. أحاول أن أراني، أن أفهمني؛ أجدني وحدي مع حزني، مع خوفي ومع جسدي التائه بين المسموح والممنوع، والحلال والحرام، والعيب والموت الذي أحياه، والذي يتحدّاه جسدي المنتفض الذي يتدفّق دمه بغزارة في دورات متعاقبة، معاقِبة!

التقيت أحمد. شغلني عن عوالم سجني ذاك. كنت أقرأ كثيرا، وأتألّم كثيرا. وجدتني أفكّر فيه معظم الوقت.

ملامحي لا تهزج إلّا إثر نقاش فكريّ جاد حاد. جسدي كان دوما على الحياد. أنا ابنة أمّي الشّرعيّة التي لن تخذلها مرّة أخرى!

قلت لأحمد وأنا تقريبا أتشاوف بحزني:

- أشعر أنّي في يمّ، في بحر لا شاطئ له.

قلت له هذا وغرقت بالفعل في يمّ تأملّاتي.

كان أحمد بمقاييس الرجولة التقليدية، رجلا جدّا. وقف قبالتي بابتسامة وشعر يهتزّ بزهو فوق جبينه وبحديث يفيض حيوية.

انتظرت أن يصبح الحبيب المنقذ؛ أن يصالحني مع أنوثتي التي لا أعرف عنها سوى أنّها تلطّخ سروالي الأبيض بالدّم.

مشينا معا، كنت مبتهجة؛ أكاد أغادر الهامش، أدخل العالم كلّي معه، وعيي تنحّى! دنا بيده من يدي؛ سحبتها خجلى؛ رغبت أن ألتصق به كلّي! لكنّي ابنة أمّي! تلك السّمراء التي تجيد الحديث عن الكتب والحزن.

تركته وأنا أخالني أصبحت حبيبته! أصبحت أنثى! إلى أن التقينا في حفل، كانت ميرا إحدى زميلات أحمد هناك. ميرا تحتفي بجسدها؛ ترتدي الفساتين القصيرة، تعشق الرّقص، والضّحك وأحمد وجسده. رقصت بجنون، رمت جسدها بين ذراعيه، مباعدة فخذيها... كنت أرقب وأراقب،

ولا أفهم... استبعدت أن يعشق أحمد ميرا، فهي سطحية، سهلة، وتفرج عن... ما بين فخذيها في مكان عام!

الواقع أنّي انتظرت أحمد طويلا، أنا وفستاني الأزرق، وعطري الرّقيق، في استراحة قرب البحر؛ بعيدا عن غبار حيّنا وحمّام المدرسة القذر، بعيدا عن الخوف من إخوتي، ومن أمّي، ومن... ما بين فخذيّ؛ انتظرته طويلا... لم يأتِ! ذهب إلى ميرا، إلى التي لا تتكلّم عن الوعي والكتب، إلى التي ترقص وتقهقه وتفرج عمّا بين فخذيها حتّى في مكان عام! هذا ما أكدّه لي حسام.

عقدة ما بين الفخذين

الحكاية مع حسام لم تكن فقط بسبب عمق عينيه، وحديثه الشّديد الجاذبية، أو فقط بسبب الصّور الصّادمة المنتشرة على جدران منزله، صور ذاك العضو الأنثوي الذي أخشى أن أذكر اسمه، أو حتّى أن أتذكّر أنّه معي وعندي. حسام يمتلك معظم العوالم التي أحبّ: رفوف الكتب وأفلام السينما والقصائد... وشخصية لا تخشى الخوض في أيّ موضوع!

سؤاله المباغت ذاك أربكني:

- شمس أنت تتلذّذين عبر المهبل أو البظر؟

ابتسمت قائلة:

- ما قصدك؟ عمّا تتحدّث؟ لا أفهم.

أخذ يتحدث عن البقعة G في المهبل، وعن أشياء أخرى.

واسترسلت في الرّد داخلي، كعادتي:

"قرأت ما كان يصفه بطل الجحيم لهنري باربوس، بينما يتلصّص من خلال ثقب باب غرفة في فندق يؤمّه كلّ إثنين يبحثان عن لذّة ومكان حميم. قرأت كذلك فرويد ونظرياته الثلاث في الجنس؛ أتحدّث بطلاقة وأريحية عن الجنس لكنّي "عفيفة"! ابنة أمّي؛ لذا تخلّى عنّي أحمد صديقك، وتركني وذهب إلى ميرا كما أخبرتني بنفسك ذاك اليوم، يوم انتظرته ولم يأت."

فكّرت أن أقول له كلّ هذا، لكنّي لم أقله. كنت ساهمة. أفكّر في أحمد وفي ميرا وفي حياتي الفارغة...

قال حسام:

"شعرك جذّاب مثير"!

حسام يعجبني، لكنّه متزوّج، وأنا أحتاج من يحتوي قلبي وروحي وليس فقط عقلي وجسدي. مراهقتي الملأى بالخوف والبثور والدّهون، عزّزت في داخلي ذاك الشعور العميق أنّي غير مرغوبة؛ وهذا كان جدّا يؤرّقني! احتجت من يحبّني كلّي بصبروإصرار؛ من يعيد لي بكارة إحساسي بأنوثتي.

يومها نظر إليّ حسام، إلى وجهي وجسمي وقال:"أحمد في الجبل، ذهب مع ميرا."

حدّق في فمي ودنا من وجهي كثيرا... كان كلّ ما فيه غريبا، أصبح آخر، أصبح ذكرا!

كأنّي سمعته يقول:" حرّري جسدك معي..."

أخذ يحدّق بصدري من خلال قبّة الجاكيت الخضراء المفتوحة. كنت خائفة فعلا. حاول تقبيلي عنوة؛ لم أفهم ما يحصل. شعرت باشمئزاز ورغبة في التقيؤ. سكنت رأسي موسيقى مخدّرة؛ أصبح عاريا، أصبحت خارج جسدي... هل هكذا تكون القبلات؟ وهل هذه هي ممارسة الحبّ؟

عدت إلى وحدتي، إلى حائط المبكى وقد طرد وعيي ولاوعيي تفاصيل ما حدث مع حسام وتمتمت: "ها أنا يا أمّي وحدي، اكفّر عن خطيئة أنّي فضولية وسمراء عاشقة للحياة، للطّعام، وأنّ عندي عضوا ما بين الفخذين!"

تلويحات عصا

عندما أصبح كلّي كومةَ فشلٍ مَقيت... ماذا يتبقّى من الله؟

ذاك اليوم حاولت أن أقنع نفسي أنّنا نستطيع أن نكمل معا رغم كلّ شيء؛ ولكي نبقى "عائلة متماسكة"، حاولت تخدير وعيي وأجهدت نفسي وجسدي لأكون كلّي له ومعه. قبّلني، أغمضت عينيّ وقبّلته وبدأت أعزف لوعيي ولجسدي تلك الموسيقى، موسيقى اللذّة والغياب. كنت أتأرجح في السّرير كثملة. كم أنزعجت لمّا شعرت أنّه يراقب ردود أفعالي، ملامحي وتفاصيل جسدي! شعرت بعريي وأنّه لا يرى إلّا بطني الناتئ قليلا، يرى ترهّل ثديّي، يراني مجموعة تفاصيل نافقة!(لا سيّما أنّه تحسّس بطني قائلا: ما هذا؟) استيقظت من نشوتي. كم تحزنني عيناه التي تشيئني وتجزئني! ربّما هو يراقبني ليتأكّد من أنّه استطاع إثارتي، أو ليذكّرني بأنّه متفوّق عليّ، لا أعرف ولكن تلك الهمسة الصرخة... دوّت في أعماقي.

- ما هذه الرائحة الكريهة التي تنبعث منك؟ (خلته يقصد من ذاك المكان، ما بين الفخذين؛ مع إنّي كنت عاشقة نظافة وعطر)

كأنّها رائحة الخيانة؟

حينها استفاق وعيي تماما، أعرف أنّ الإنسان في لحظة الغياب في الآخر، الدماغ يبعث هورمونات تجعلنا نرى الشّريك غاية في الجاذبية كيفما كان، وأذكر جيدا، فكرة قرأتها في إحدى كتب علم النفس تؤكّد هذا.

حاولت أن أكون هادئة لذيذة:

- أية خيانة هذه التي تتحدّث عنها؟ متى عرفت رجلا غيرك؟

أخذ يتمتم:

- لست أدري، ربما طوال عمرك تستغفيليني...

ذكر أسماء رجال لا أتذكّرهم أصلا؛ ومناسبات خرجنا فيها، وكانوا ضمن الحضور.

- كلّ النّساء خائنات...

كأنّه يريدني خائنة ليرتاح، ليتأكّد أنّي لست أفضل من أمّه!

كلّ شيء حولي يتقوّض رغم جهدي الحثيث! فقدت طفلتي الصغرى، وابنتي الكبيرة أصبحت من حزن، تنتابها أحيانا نوبات أشبه بالصّرع، وصغيري بتّ شبه فاقدة السّيطرة عليه. ببساطة العالم الذي قضيت عمري أبنيه وجدته متصدّعا، آيلا للسّقوط والتهاوي في كلّ لحظة.

كان المنزل بعطر وورد وجدران مزيّنة بالتحف واللوحات، وكنّا من عفن كما قال هو. شعرت أنّي أمٌّ فاشلة، زوجة فاشلة، وكائن هارب من ذاته ومن أحلامه؛ وجهي في المرآة أتحاشى النّظر إليه كما جسدي. أنظر إلى الأثاث وإلى سلّة الفاكهة التي أحرص عليها ملأى بكلّ صنف ولون كلوحة في المطبخ، وأتذكّر المشهد الذي اكتشفت فيه إيما بوفاري أنّها لا تستطيع أن تكمل مع شارل؛ إذ كانت تفعل الشيء عينه ويأتي هو بخرقه ويقوّض اللوحة والفكرة والحلم عندما يتناول حبّة فاكهة من أسفل! لم يرَ جمالية المشهد! زوجي لا تعنيه جمالية المشهد ولا يتذوّق الفاكهة التي تملأ السلّة. كان مشغولا بشيء آخر، يرى ما لا أراه، وما يراه أراه لا يستحق أن أفكّر فيه. يسعد بصديق قديم لا تربطه به أية علاقة روحية عميقة، بإنسان بسيط يردّد معه كلمات عاديّة؛ لا يناقش ما بيننا ولا ما يحصل لأولادنا؛ لا يحبّ التحليل ولا البحث عن المعنى. يحيا وحسب ولا أستطيع أن أقول أنه يحمد الله لأنّه لم ينشغل يوما حتى بوجود الله أو عدم وجوده.

ليتني أستطيع أن أرى ما يراه؛ أحيانا كثيرة كنت أحاسب نفسي، وأقول لها:

ألسنا دوما منحازين لصالح ذواتنا؟

لربّما أنت يا امرأة مريضة بالتحليل والشّك والبحث عن معنى؟ لربّما أنت هاربة وخائفة من ذاتك أبدا. وألف ربّما تخطر لي، وأقرّر أن عليّ أن أنسى التحليل وأن أفعل أقصى ما أستطيعه وسيكون كلّ شيء بالضرورة أفضل. أنهض بكلّ طاقتي وأضع برنامج عمل بدون تحليلات، أعتني بهم جميعا، بما يأكلون، بما يلبسون، بالهواء الذي يحيط بهم، أعدو وأعدو علّ حزني يهدأ؛ وعلّ الابتسامة تعاودني. لكن يبدو أنّي أبني بيتا من ورق، الكلّ لا يأبه لو تمزّق عداي!

والذي تمزّق أبدا تلك الليلة كانت العلاقة الجسدية بيني وبينه، ما عدت أستطيع أن أدنو منه، دوما عرفت أنّه لا يعشق روحي أو طباعي، وخلته يعشق جسدي، وها أنا أكتشف أنه غير سعيد بي وبجسدي، فلتنته القصّه...

هل بدأت القصّة؟ هل ستنتهي الآن فعلاً؟

قطع تدفّق ذكرياتي تلك، صوت زوجي وهو يقول لأخي وشقيقتي وهي تصغي مكتوفة اليدين...

"قال الطبيب أنّها لن تعود إلى الحياة إلّا بمعجزة، وبقاؤها هكذا هنا عذاب للعائلة وربّما لها. من الأفضل أن ينتهي كلّ هذا. يبدو أن لا أمل، للأسف! شمس كانت من حياة!"

أخي ماركسي ماديّ، يؤمن بالجسد والعلم وحسب. وأختي ماديّة تؤلّه العلم وقوانينه وتسخر من الرّوح والمعجزات. طأطأت رأسها ساكتة، وكذلك فعل أخي.

سأله زوجي: ما رأيك؟

"الطبيب محقّ". قال هذا وسكت.

هاتفت شقيقتي هذه شقيقتي الأخرى قائلة لها أنّ الأمر انتهى. وأن لا جدوى من بقاء شمس مع الأوكسجين والحقن والأنابيب. أجابتها أختي الثانية بأنها آتية على الفور.

دخلت الغرفة ثمّ قالت: أشعر أنّها لن تموت، هي حيّة. اتركوها هكذا، ماذا سنخسر لو انتظرنا؟ هي مضمونة، والضّمان الصحّي يسدّد الأعباء المالية؛ فلماذا العجلة؟

سأبقى حيّة يبدو؛ ولكنّي حيّة كما لم أكن يوما، أذهب أنّى أشاء (بمخّيلتي أو بذاكرتي، لا فرق) فأنا أملك وقتي كاملا، ولو لا أفعل شيئا سوى استعادة ماض، لا يظهر فيه الفرح إلا قليلا.

غادرهم وعيي، حاولت أن أهرب من ذاك الإحساس الذي ملأني؛ لا أعني لأيّ منهم شيئا، سأنتهي في عزاء تقليدي، تزمّ شقيقتي فيه شفتيها، مردّدة الكلمات الكليشيهات التي يردّدها الجميع: "كانت... كانت" أو لم تكن!

اختفى الجميع بالنسبة لي؛ وعاودتني رغبة شديدة في البكاء. هل عمر أيضا مثلهم؟ تخلّى عنّي كما فعل قبل عشرين عاما...

لماذا أشعر أنّي أهوي؟ لماذا أعود وأرتفع؟ ما هذه الطمأنينة التي تملؤني؟ كأنّي في حالة صلاة وسكينة. عالم شاسع حولي بدون أشياء، كأنّي نجمة تعرف نفسها، وتعرف أنّها لن تهوي أبدا وفقا لقانون الوجود والحركة والسّكينة في هذا العالم!

أحببت المسيح كثيرا وعشقت محمّد؛ أسعد لمّا أقرأ، أو أسمع فكرة من نور. أشعر أنّي، أو أنّنا من جمال مطلق، رغم الصّلب والغزوات والدماء... هل من جحيم بعد الحياة؟ ومن يستحقّه؟ ألسنا كلّنا مساكين بؤساء؟

أخي وحزن عينيه وهربه الدائم من نفسه، أو خوفه من الإقرار أنّ ذكاءه ذهب هباء. هو ليس سعيدا هنا، ولا يؤمن بهناك... ملأ عقله منذ المراهقة بأفكار، ليهرب من خزعبلات الواقع الذي نعيشه؛ الدّين السياسي والاجتماعي ومظاهره؛ أناس يبكون خلافة لم تكن، وآخرون يلطمون ويندبون، وأمّة تغار منها الأمم! طقوس وصلوات وقلوب ملؤها الخوف والغضب كقلب أبي رغم أنّه لا يترك فريضة ويتمتم بآياته؛ عالم حولنا من

ظلم وجور، كأنّها عصا يضرب بها أحدهم الآخر فيضرب هذا الآخر من يليه وهكذا دواليك... صرخات ألم وتلويحات عصا!

وأنا ألم استعمل العصا عينها؟

وأنا ألست خائنة؟

وقتها، في زمن كنت أبحث فيه عن وجهي وصورتي، قال لي: "أنت ذكيّة جميلة..."

- أف! انتظرت طويلا هذا الإطراء! أخيرا هنالك من يراني! كدت أهلّل، أو كدت حتّى أقفز إلى السّماء!

هو شاب جميل ملؤه الحياة، اعتقدت أنّه يحبّ شقيقتي التي يفترض أنّها صديقتي أيضا؛ كنت أعرف أنّها تحبّه بتردّد؛ إذ أنّها دوما تقيس الأشياء كما الناس بالمزايا والنسب والفائدة، والمكتسبات والخسارات، تعمل وفقاً لأحكام العقل كما تفهمه.

قلت: "أنت كذلك شاب مميز!"

احمرّ وجهي الذي لا يحمّر إلا نادرا! وملأ الدّفء قلبي، وسمعت موسيقى حولي وفي رأسي فحواها:"أنت أخيرا مرغوبة!"

بدأت أتضايق من المفاضلات والمقارنات التي يقيمها الناس وأهلي بيني وبين أخواتي عموما وأختي تحديدا. كانت شقيقتي تتبنّاها بزهو شديد، فهي لصالحها! وفقا لمعايير المادة والعقل، عقلهم، ووفقا لما استدخلت منهم عن ذاتي، ووفقا لمعاييرهم في الجمال وغيره، أنا أمتلك القليل القليل الذي لا يكفي في عالم من منافسات وزهو.

باتت فكرة الانتصار تشغلني عن غير وعي منّي!

- أحتاج أن أتكلّم معك طويلا... أنت تختلفين عن شقيقتك وعن كلّ النّاس...

سكتت مغتبطه وحالمة.

وأخذ يعدّد فيّ صفات نسيتها الآن وحينها بمجرّد أن أنهى حديثه بجملة مفادها أنّه يحتاج منّي أن أقرّبه إلى شقيقتي.

شعرت بالخزي والخجل للحظة، كيف سمحت لنفسي أن أدخل دائرة تخصّ غيري؟ شعرت بالإثم رغم أنّ إحساسي به كان عابرا.

إحساسي بعمر كان كذلك عابرا بعدما وجدته من جديد على الفيسبوك؛ أحسست أنّه مجرّد طيف من عالم الرّوح والأحلام، روحي تأنس له، شيئ ما أقوى منّي يجعلني أصغي إليه. أشعر أنّي معه أخلع رويدا رويدا الزّيف، وتصلّب المشاعر.

الدّماء تعبر سمرتي دفئا... كأنّي أستعيد بكارتي وإيماني بذاتي، بالعالم وبالله.

هل هذا يعني أنّي أنانيّة وخائنة؟

"لا أريد من النّاس أن يحبّونني فحسب ولكن أريد أن أسمع منهم أنّهم يحبّونني".

هذا القول لجورج إليوت، تصدّر دفتر ذكرياتي وأنا في الخامسة عشرة...

"تمسّكت بعمر، لأنّه ربما يجعلني بطلة! أخيرا سأجد في حياتي تفاصيل قصّة أو فيلم، سأكون وستكون لي حياة. في الحيوات لا بدّ من حكايات! عليّ أن أصدّق أنّي أحبّه فعلا وأنّه يحبّني حقا."

ها أنا كعادتي أحلّل وأختبر، وأتفحّص وأتمحّص: هل عمر هو فعلا مجرّد هروب من زمن وفشل؟ هل هو تعلّق مرضي جديد؟ اقتنعت أنّي أحبّ زوجي؛ لكنّي في أعماقي لم أصدّق. فرويد لم يكن عابراً في حياتي. بعد قراءتي كتابه "ثلاث نظريات في الجنس"، وبعد تجاربي الفاشلة في إقامة علاقة تحت ظلال الزيزفون، طأطأت رأسي استسلاما. نعم بحسب فرويد الحكاية بسيطة: دوافع تُشبع، مزاج يعدّل، وقت يمضي، وحياة تتحوّل ترابا بسلام. كلّ هذا يعني ببساطة: عليّ أن أحفظ وأحافظ على الأولويات لأتوازن؛ ميول أساسية: تنفّس، تبوّل، تغوّط، نوم، أكل، ماء، تحقيق الذات، وعلاقة عاطفية جنسية. هنا حجر الرحى، في هذه الأخيرة! صحيح أنّه ليس سهلا ماديّا أقلّه تحقيق التوازن في كلّ ما ذكرت، لكنّه ليس متعسّرا. الأصعب جنسيا هذه... مع أنا أعلى متسلّط وضاغط كالّذي عندي. العادة السرّية؟ هي طرح مُسْتبعَد تماما، لا يمكن حتّى أن أفكّر فيها. كعادتي في فلسفة آرائي وتبريرها وتأكيدها؛ أبدي رأيي للآخرين، أقنعهم وأرسّخ قناعاتي. كنت أشرح لتلاميذي مثلا: أنّ العادة السرّية هي ضدّ التكوين! فهي تمسخ مفهوم الجنس وتسلبه قدسيته في المبادلة والمنح (ما زلت أحبّذ هذه الفكرة حتّى الآن). إذ الجنس بين عاشقين يتجلّى فيه منح الفرح واللذّة؛

أسعد بقدر ما أشعر أنّي قادر على إسعاد الآخر. مع العادة السرّية تدخل دائرة الأنا وتغلق أبوابك. لم أكن أعي أنّها تمارس مع تهويمات يكون فيها الآخر حاضرا بشدّة من خلال التخييل... لم أكن أعرف عنها ولم أكن أريد أن أعرف (هي من التابوهات الكثيرة التي أخشى خرقها، مع أنّي أزعم أن لا تابوهات أو طواطم في حياتي!) ربّما أتقبّل عقليا أن يلجأ إليها الرّجل؛ بحكم تكوينه البيولوجي (خصيتان تنتفخان، وانتصاب وإفراغ...) أما بما يخصّ المرأة فكنت حتّى لا أفكّر بالأمر، (لم أعرف عن أعضائها، أو عن دور البظر). إذن فكرة ممارسة العادة السرّية ملغاة؛ أمّا فكرة علاقة غير شرعية يستعملني فيها الرجل، حتى يسأمني، هذا غباء لن أقترفه! "صعب أن تثق برجل، هو مقتنع أنّه ديك وأنّ المرأة دجاجة! المعادلة تتغيّر لمّا يتزوجها! أقلّه لن يستطيع أن يغطّ على كلّ الدّجاجات علنا!"

حاولت أن أقنع نفسي أنّ رجلا مثقفا واعيا سيتجاوز هذه الرؤى التقليدية التي تمسخه، وتحوّله عبدا لوظأئف جسده وأعضائه. بعد مدّ وجزر وخوف وفشل، ابتسم الأنا الأعلى في أعماقي عندما التقيت زوجي. هو لا يدري، أنّ ما جعلني أطمئن إليه أنّه بعد لقاءين أو ثلاثة، قال لي أنّه مستعدٌ لدخول البيت من بابه! وأنّه مستعدٌ أن يطلب يدي الآن قبل الغد! هو هكذا استمال الأنا الأعلى والهو كذلك! يعني علاقة جنسية يخفت فيه أنين الجسد وعواؤه، بمباركة من الأنا الأعلى نسبية! هكذا قرّرت أن أخوض التجربة كاملة معه؛ أن أترك العنان لأعصابي وأعضائي. كان الأمر صعبا! عليّ تغييب وعيي لأعيد الإحساس لجسدي؛ وجسدي وحسب لأنّ روحي ما كانت مفتونة به؛ عقلي وجده مناسبا. هكذا بدأت الحكاية؛ حكاية الجسد الذي عليّ إرضاؤه لأكون بخير وتوازن. كان صبورا ومستعدّا وجميلا! بعد مداعبات مطوّلة وخبرة وهدوء، فكّك أغلال جسدي. وجدتني كلّي أحبّه، كلّي أريده، كلّي أعشقه. بتّ أسكن بعد قليل من المداعبات؛ يرتفع ذاك الصوت في

رأسي... عزف يُخفت كلّ الأصوات لصالح صوت تلك الرّغبة التي كانت محرّمة عليّ.

لكن شيء ما في داخلي لم يرض! "وخذ يدي ورجلي وعقلي ورأسي ومؤخّرتي... وإلّا عضوي الأنثوي!" كنت ها هنا أستيقظ. تخفت موسيقى الرّغبة لأسمع صوت مطارق واستجوابات وأسئلة: هل هذا حبّ أو زعرنة؟ أردته أن يكرّر أنّه يحبّني، يصرخها، علّ ذاك الطنين والطّرق يتلاشيان! الجسد يريد والمطرقة تهدّد ولساني يرجو: "قل بشدّة بقوّة بإصرار أنّك تحبّني، قبّلني أكثر وأكثر ومزّق هذا الجسد بدّد هذا الطنين!" رأسي يتلوّى، يمينا، شمالا... جسدي يفلت مني... يتخشّب. بكاء وتوتر ويأس... ربّما المشكلة أنّه لم يحبّني! وإلا ما معنى أنّه يساومني؟ ما معنى كلّ شيء؟ وهكذا باتت القصّة في فصل جديد: الشغف بدأ يخفت، وعشقي الجنوني له، وحاجتي لأن أخبئه في عينيّ وروحي وجسدي تلاشت. عليّ وعليه أن ينتظر وقت الإباضة وذروة الرّغبة حتى أحبّه دون أن أبكي! حتى أنتصر على ذاك الطنين، حتى يرتعش داخلي ولا يرتعد جسدي.

أنا احتجته لأتطهّر، وهو متعب من الضّجيج والثرثرة! صعب أن يقول أنّه يحبّني بالأمر أو حتّى بالإحساس! حفظ إيقاع جسدي، خمود ثورته وذروتها. بروده وصبره اللامتناهيان كانا يعيداني إلى بئر الحرمان والممنوع والخوف... استمرّت الحكاية بمدّ وجزر، ومساومات، وإحجام وإقبال وانتظار؛ حتى بات ما بيننا من سكات وموت. أردتها علاقة بشروط من: "أحبّك مكرّرة أبدا، واحترام وثرثرة وتفاصيل أخرى تافهة ربّما؛ وأرادها من شبق، وسكات، ونوم... وبات السّكات يطول... هو يراهن على هورمونات ورغبة وانصياع... وأنا أبحث عن السّكينة... وبدل السّكينة كان السّكون...

هذا السّكون يكاد يغرقني الآن ها هنا في المستشفى أبدا. هي يد صديقتي الثائرة والتي تتقن فن السّكينة، تمسك يدي الباردة...

صديقتي الثائرة

لمّا تكون طفلا كثيرا، لا حول لك ولا قوّة، بحساسية كثيرة لا تعرف مصدرا لها ولا حتّى تفهمها؛ لمّا تسبح في عينيّ الآخر فيصفعك، أو لمّا تلتصق به فيركلك؛ وأنت عاجز عن فهم احتياجاتك قبل احتياجاته، لا غرابة إن التصقت بعوالمك الداخلية وبخيالاتك وأصبحت تتودّد لجذع شجرة معانقا ولدجاجة مبتسما وواقفا في حالة تأهّب وتلعثم أمام الآخر. مؤكّد أنت ستخطئ كثيرا!

"غبيّ، أنويّ، مشغول بهمهمات ذاتك وأنت لا تدري": سيقولون. هل أنا الآن مع جسدي الذي لا أملكه، أدري؟ أو أنّي عدت بلا زمن وبلا ملامح؟ العالم حولي لا أراه، أعرف أنّه مستشفى، أسمع صوت صديقتي ولا أراها. كانت صديقتي الوحيدة الفعلية كما أعتقد. ها هي تنظر إلى جسدي قرب زوجي كما يسمّونه، رغم أنّه ما عاد زوجي. تتمتم:

- إنها بخير، ستكون بخير، هي ليست ممن يموتون بسهولة!

تقف بحزنها المتّزن المدروس، بدون لهفة وبدون لامبالاة.

أعتقد أنّها تحمّلت أنويتي على مضض، ولو أنّها تجيد إخفاء مشاعرها، هي دوما حريصة على أن تكون كما يجب أن تكون. تقف الآن فوق رأسي ويدها على جبيني، وربّما تقول في نفسها لنفسها، صمتت أخيرا... أو هي لا تقول شيئا! فمعها أنا التي كنت أقول وأقول كعادتي؛ وكعادتها، كانت تصغي بلامبالاة أو باهتمام؛ لا فرق... هي لا تعرف منّي وعنّي سوى أحلامي وحكاياتي المجتزأة. أنتقي حدثا وأرويه لها لأشعر ببعض أمان، لأشعر أنّي من حكايات حقيقية وأستطيع أن أضحك وأعشق وأبكي لسبب ما فعليّ.

هي من عالم حقيقي، فيه منزل وأشقّاء وأرض وحديقة وأشجار وحزب وقضية ووطن. وأنا من خوف وخفّة وارتفاع وهبوط... هي تضحك

وتضحك معها عيناها. تمسك يدي بحماس ويدي تخشى يدها؛ تخشى أن ترميها بعد لحظة مع صفعة. هي شقراء بعينين خضراوين وأنا سوداء بلغتهم بدون ملامح، أو حتى لست سوداء، لا لون لي. لا أفهم كيف تتكلّم بحماس شديد عن الوطن! هذا الوطن الذي لم أعرفه يوماً ولا حتّى عبر أغاني فيروز؛ لم أكن أحبّ فيروز في ذاك الوقت. كنت أعرف عنه، عن بلدي ذاك شيئا واحداً؛ أنّه لا يخصّني. كنت مواطنة لقيطة فيه. كان أبدا مكانا لآخرين فلسطينيين، اسرائيليين، ميليشيات يسمّون أنفسهم لبنانيين رغم أنّهم تابعون لدول أخرى. أعرف عنه وفيه، انقطاع الكهرباء والخبز والماء وخوف أبي وطأطأته وتحذيرات أمّي من أيّ شيء، من كلّ شيء... كنت أعرف عنه، عن وطني ذاك أنّه مكان غير آمن وغير عادل وحسب كما بيتنا؛ وأنّه من أحزاب "زعران" بحسب توصيف أمّي. "كلّ الأحزاب زعران" رغم هذا صديقتي وعائلتها وحيّها كانوا من حزب ولحزب. لهم محمية أو"كونتون صغير"بنادٍ ومكتبة وعساكر وأسلحة وتفاصيل أخرى...

قالت لي ذاك اليوم بحماس شديد: "اليوم سنتظاهر ضدّ العدو الإسرائيلي الصهيوني الغاشم". كنّا في الصّفّ الثّاني الثّانوي. أكملت بنفس الحماس: "الثّانوية بطلابها ستقوم بمسيرة تنديد. وسنرمي العدوّ بالحجارة لو احتجنا؛ (حواجزه منتشرة في المدينة)؛ وسنتبرّع بالدم للمقاومين الشجعان. حينها كانت المقاومة بلبنان جلّها من الأحزاب اليسارية. مشيت جنبها مع المتظاهرين. كنت أعشق الأناشيد الحماسية؛ تملأ رأسي فأعمى عن ضجيج نفسي وعقلي للحظات. كانوا يصرخون بحماس وهي كذلك تفعل رافعة قبضة يدها، تصرخ بأعلى صوتها؛ وأنا جنبها بجسد متصلّب بارد، يمشي وحده، وأنا أرقبه، وأرقبهم. يمشي، وحسب؛ عقلي في مكان آخر. أخذتني الحماسة للحظات ووددت لو أكون كيفما اتفق، أكون وحسب! آه لو أستطيع أن أدخل جسدي وأصرخ أو أرفع يدي، أكون منهم، من هنا! كأنّما صديقتي قرأت أفكاري؛ أمسكت يدي للتوّ، يدي الباردة الثقيلة

ورفعتها. بكماء كنت. صرخت بأعلى صوتها: ردّدي، قولي معنا. ردّدت بصوت خافت، خجول؛ وإذا بي أسمع صوتي وحده. اختفت أصواتهم جميعا. كان صوتي غبيّا، ناشزا... خجلت به ومنه. ارتفعت حرارة جسدي واحتجت أن ألوذ بالصّمت سريعا. الصّمت أمان. سكتُّ، برد جسدي وعدْتُ للرّصد والمراقبة. أرصد حماس عينيّ صديقتي وقفزات أجساد المشاركين وحماسهم، والدّبّابات الإسرائيلية تطلّ منها رؤوس بخوذية وبلا خوف. كأنّ كلّ هذا كان مجرّد مشاهد أخذت من فيلم لم أفهمه. وكأنّي كنت دوما كما الآن في عالم آخر أرى وأحرص ألا يراني أحد.

هل هم يروونني الآن وأنا ممدّدة على هذا السّرير الأبيض، بملامحي الساكتة أبدا؟ هي، كما زوجي من ذات العالم؛ العالم المرئي الخارجي والحقيقي ربّما، بكلّ تفاصيله! يحدّثها عن أشياء وأشياء عابرة وتشاركه الحديث بحماس وحيوية، كعادتها وينسونني وآلامي وهواجسي. ربّما آلامي الغبية تستحقّ التّجاهل. أحتاج أن أجلس، وأن أتكلّم بلكنتي الحائرة المتكسّرة وأن أضحك بفمي لعلّه أخيرا يستوي! أنا ميتة في عيونهم أو أنا ميتة لأنّي كنت دوما أخشى أن أقولني. يتمتمان معا كلاما باردا، كما يديّ الباردتين. ذهبت هي إلى زهورها وزوجها وأصدقائها العديدين، إلى وطنها الحلم وهو الى سيجاره وسكوته وأنا مع أنا، مع تهويماتي. هو غادرني منذ زمن طويل أوأنا غادرته. لماذا لا أتذكّر إلا ذاك الأمس البعيد البارد أبدا؟ لماذا زوجي يحاصر جسدي العاجز؟

هل كان عمر مجرّد حلم وقصائد؟ أو أنّي عشت معه فعلا كلّي بجسد حيّ وضحكة ورعشة؟

امسكني من يدي جيّدا... الموت ينتظر لحظة تسهو فيها عنّي.

هل عدْتُ وحدي؟ تمرّ أمامي أحداث حياتي متقطّعة، متداخلة. هل هكذا ندخل العالم الآخر؟ أنا وحدي جدّا. أين يد عمر؟

أخشى قسوة قوانين هذا العالم؛ لا أفقه كيف يتحمّل البشر آلام الفقد؛ أتعلّق كطفلة وأحزن للغياب حدّ الجزع؛ كأنّ الآن (لحظة الغياب) هو الزّمن كلّه. كأنّ عمر هو الهواء! أين يده؟ يدي لا أشعر بها، جسدي كلّه غائب عنّي. العالم كلّه غائب، وحاضر بقوة في أعماقي.

لماذا أشعرأنّي مجرّد ذاكرة! ذاكرة تتذكّر؛ ذاكرة تريد أن تنسى.

ابتسمت بحزن، يوم رأيته أوّل مرّة؛ تخيّلته وأنا مراهقة وأنا امرأة؛ وأخيرا ها هو أمامي، كلّه بجسده المرتبك، الواثق؛ تمتم دون أن يحتضنني:

- حمدا على سلامتك.

"لمَ لا تقول: أنا أحبّك؟ لا وقت للتحايا الميتة يا عمر، لا وقت لننتظر!"

هل سيقولها الآن فورا ومرارا بعد أن يعرف أنّي أكاد أخرج من الوقت؟

شعرت أنّي في قلبه، ذاك الأمان الذي انتظرت، أحسست به كاملاً. دخلنا صالة الفندق، جلس يتأمّل حزن عينيّ، لم يرَ فستاني المكشوف الصّدر أوسلسلتي الرّقيقة؛ حزني الرّقيق شغله. أخذت عينيّ إلى اللّامكان حتّى لا أبكي. أغيب عنّي وعن العالم للحظة، وأعود بمشاعر وصور: كأنّي أحببته بكلّ حزني؛ كأنّي التقيته بكلّ عشقي للحياة؛ كأنّه أمسك يدي ونظر في عينيّ وقال:

- شمس، أنا أخيرا أرى اللّه! بكى وبكيت.

قلت له:

- وحدك تستحق حيوات بعيدا عن هذا الحزن اللقيط.

قال:

- أنا ابن حزنك هذا...

سكتت كأنّي لم اسمعه، لا أعرف إن قلت له أو لنفسي: عليّ أن أحيا بكثافة، بعمق. غريب هذا الحزن الذي يجمعنا ويفرّقنا! دخلنا الكنيسة معا، أردنا أن نشعر أنّ الله يباركنا، فلربّما بات الله يمكث في بيوتاته لأجل السّذّج والمتعبين أمثالنا الذين يقصدونه هناك! أخذ يدي في يده؛ كانت ضخمة إلى حدّ ما لكنّي شعرت بها كيد طفل. جلست قبالته، وقلت له:

- احك لي.

سأل بعينيه اللتين تعرفان الابتسام الحقيقي:

- عمّا؟

- عنك؛ أريد أن أخرج منّي ومن مواتي.

لماذا لا تحكي لي الآن لأعود حيّة. لم أنس يوما ما كتبته لي في رسالتك الأولى: "حدّثيني وأكثري الحديث فقد أحبّك." كان لتلك الكلمة وقع السّحر في قلبي. كنت سعيدة لاحتمال أنّ أحداً ما، استثنائيا بعقله، ولغته، من المحتمل أن يحبّني! كنت طوال الوقت، وكان الوقت طويلا، كنت أنتظر رسالتك، ردّك، شهورا أحيانا؛ (حرب الإلغاء كانت وقتها بين عون وجعجع، وكان لبنان كلّه مقفلا؛ ممنوع حتّى أن تعبر حدوده رسالة!) غريب هذا البلد، الكلّ يريده والكلّ يقتله؛ كلّ أنواع الحروب فيه محتملة: بين حزب يساري وحزب يساري بين مسيحي ومسيحي بين مسلم ومسلم بين سوري وفلسطيني وبين وطنيّ ووطنيّ ووووطنيّ وعدو، بلدي يجسد عبثية هذا العالم ورعونته.

"دعني منه أنت تعرف أنّي من شدّة خوفي من "حماة" الوطن حاولت أن أنسى فكرة الوطن! هل ستكون أنت وطني؟"

في لحظات القنوط والخوف، كنت أبحث عن زهرة الدّحنون الصفراء، وكانت في متناول يدي؛ بلدنا من دحنون وصعتر؛ أنزع وريقاتها واحدة تلو الأخرى وأسألها: يحبّني؟ لا يحبّني؟ يريدني؟ لا يريدني؟ وأقفز فرحا لو أعلنت البتلة الأخيرة أنّه يحبّني! أعدو كمهرة، ويرتفع منسوب الفرح والحلم في دمي.

حكايتي تلك مع عمر حقيقية؟ كيف عاد بعد كلّ هذا الزّمن الطويل؟ هي الأقدار التي ما كنت أصدّق قدراتها! لم أتخيّل أنّ عمر سيعود ويدخل حياتي فعلا وفاعلا فيها. خلتني أحلم يوم أرسلت له الرّسالة الأولى! كانت وسائل التعارف تقتصر على صفحات التعارف في المجلّات أو في المذياع. كنت أجد أنّ معظم الذين يودون التعارف سخفاء حتّى سمعت اسمه وعنوانه على إذاعة مونت كارلو بصوت غابي لطيف الدافئ مع قول اختاره ومع أغنية "الحبّ كله" لأمّ كلثوم. كنت وما زلت أعشق بأذنيّ؛ شعرت أنّه ربّما "غبيّ" مثلي يعشق المعنى وإغماض العينين. وجدتني أكتب له وأتوجّه إلى أقرب مركز بريد، لأرسل الرسالة. سريعا، أتى الرد مع تلك الجملة: "تحدّثي وأكثري الحديث يا شمس، فقد أحبّك!". بات مركز البريد قبلتي، فقد كتبت له وتحدّثت وأطلت وأكثرت، وصدّقت أنّه سيمسح حزني وسيمسّد شعري الطويل! لكنّه زعم أنّي لن أستطيع محو حزنه، فهو بمساحة وجع وطن مغتصب!

كتب لي: "حزني يا شمس لا تمحوه كلمة!" تناسيت هذا وأخذت أبسمل كلماته: "شمس، شعرك الطويل أحبّه... دعيه طويلاً أبدا". انتظرته أنا وشعري الطّويل طويلا، طويلا جدّا وغاب مساحة أبد! غاب كأنّه حلمي الذي يجب أن يبقى حلما. عاد بعد حياة خلتها انتهت؛ بعد زمن حوّلني امرأة عادية بحزن وعشق لطفلين. عاد عبر نصّ ولوحة، عاد عبر أذنيّ وعينيّ هذه المرّة! لمحت اسمه على الفيسبوك، خلتني أتوهّم. هل الحكايات تكون بعد عشرين عاما؟ هل هذا عمر فعلا؟ قرأت النّص،

وقرأت الماضي والحلم، هذا هو عمر، ذاك الحزين بمهابة. كان بروفايله بدون صورة، "الصّور تكذب دوما" كتب لي. اليوم عالمنا أصبح من صور وللصّور وحسب. أحتفظت بصورته التي أرسلها لي؛ لم يكن وسيما أعتقد... لا أعرف. أنامثله لا أبالي بالصّور والأشكال؛ لكنّي أحيانا كنت أضبط نفسي متلبّسة، بتأمّل قامته التي تميل إلى القصر، وجهه السّاكن، أحيانا كنت أقبّله بخجل شديد، بخفر شديد. فعلت هذا مرارا بعد الغياب، أتأمّل الصّورة وأتفحّصها، وأستنتج أنّي أجده جميلا ولو لم يكن. طال السّكات وطال الغياب ونسيته؛ نسيت كلّ هذي الترّهات. هو الآن ليس هو ربّما! ولكنّي أنا ما زلت أنا، بذات الحزن والشّعور بالغربة.

أغمض عينيّ وأنا أقرأ نصوصه على الفيسبوك وأستعيد ذاك الحلم العتيق "الأبله" للحظات. كان مختلفا وما زال. وجدته يقول كلاما لا أفقهه! أنا التي لا تخون، لا تعشق، لا تُدهَش؛ أنا التي تحاول فقط أن تفهم ما وراء السّلوك وما بعد السّلوك وما قبل السّلوك، والدوافع والميول، والاحتياجات الملّحة... وجدتني أصغي... أصغي لحكايات تتجاوز قواعد وأنظمة كمثل: "عليّ أن آكل بتوازن وأنام بتوازن... وتفاصيل أخرى أصدّقها حينا وأكبّلها في لحظة حزني الكثير وأرميها بعيدا بعيدا جنب أحلامي المستحيلة. أوّل مرة تحدّثنا، تحدّثنا طويلا، طويلا... ليلا بأكمله! حدّثني عنه وعن الله الذي اصطفاه والذي يصطفي كلّ من يعرفه جيّدا؛ حدّثني عن كتابه أو عن كتبه التي لم ينشر وعن سبحته التي تحوي صليبا! وعيي يسخر منه، يحلّل ويستنج أنّه ربّما فاشل يبحث عن تعويض ما ورائي: عجْز عن الفعل في الواقع يتحوّل إلى غوص في الماورائيات والأساطير. كنت أصغي إليه بمشاعر متناقضة، ساخرة، ومسحورة؛ كأنّ تلك الحكايات والأساطير تحيي وتبهج تلك الطّفلة التي قتلْتُ، وتُنفر هذه المرأة العملية، العقلانية التي أصبحت. عوالم من حلم وإيمان أو من وهم وخرافات وتيه! ترى هل أردت الهروب من هذا الصّقيع في دمي وحياتي؟

"لا بأس حدثّني أنت الآن وأكثر الحديث حتى أفهم، أفهمك، أفهمني، و... لن أحبّك."

أحببت أحاديثه. كأنّه محا عشرين عاما من القطيعة بيني وبين الشّغف والإيمان. أعاد اللحمة بيني وبين أحلامي أوأوهامي؛ وجدتني أثق به! تحتاج المرأة أن تثق بالرجل لتحبّه وأنا وثقت به وحصل وأحببته كأنّي لم أعرفه، كأنّي عرفته، كأنّي لم أعرفني، كأنّي أعرفني! و... أكاد أصدّق قصائده، ورحلاته إلى مدريد والمجرّة!

كتب لي:

"كنت دوما وحيدا وما زلت وربّما سأبقى؛ لا أستطيع أن أتزوّج امرأة عاديّة تحلم ببيت نمطي، تحوّلني إلى رجل عادي، ينام وهو يلهث، ويستيقظ وهو يبحث عمّا ينوّمه. أراك استثنائية رغم تفاصيل حياتك النمطية."

هل يراني الآن أو... انتهت حكايتي معه كما انتهت حكايتي مع الوطن الحلم؟

أعتذر أنّني لبنانية!

ارتعد جسدي بغتة، كأنّما صاعقة اخترقته. هل انتهى كلُّ شيء؟

هل بدأ حتى ينتهي؟ لربّما رؤيتي لنفسي وللعالم تحتاج تصويبا!

لكن ما معنى أن تكوني طفلة خائفة طوال الوقت؟ خائفة وأنت نائمة من فَلَقة تطال قدميك بدعوى أنّ أوان الصلاة قد فات! نعم، كان أبي ينتقم منّا لنفسه ولقهره. كان مستسلما دوماً للسّلطة، للفقر، ولجسده، ولإله جبّار متسلّط يخشاه؛ يبكي له وهو يصلّي ويدعوه مرارا وجهارا؛ يدعوه أن يقيه عذاب النار في العالم الآخر، متجاهلا آلامه وآلامنا هنا في هذا العالم! كان قانعا بما هو عليه، هو ملك أو إمبراطور بين جدران منزلنا المتواضع؛ يفعل ما يريده باتفاق غير معلن مع أمّي التي لا تنفكّ تشكوه وتشتمه وتشتمنا في غيابه؛ فهي للمفارقة تكره جنسها وتؤمن في سريرتها بأنّ هذا هو أقصى ما يمكن أن تمنحه الحياة لإمرأة، جسدها مجموعة عورات وعقلها ناقص.

ساعة دخل أبي المنزل ذاك اليوم، كنت أخالني أكرهه. يومها دخل بعد غياب قسري عن البيت لمدّة ليلة كاملة؛ وهو الذي لا يعرف من الحياة إلّا العمل والبيت والجّامع. دخل برفقة اثنين من الرّجال المسلّحين وهو الّذي يتحاشى السياسة كأنّها وباء؛ كنّا جميعنا في حالة وجوم...

جلس على السرير مكسورا، منهكا كما لم يكن يوما، أو كما لم أعرفه. اقتربت أمّي منه وهي تولول وتسأله عن الحكاية، أجابها أنّ هذا الذي حصل مجرّد دغدغة، وأنّه إن لم يتعظ، حينها الجنّ الأزرق لن يعرف له طريق.

باختصار، المؤدِّب كان إحدى القوى المتواجدةعلى الساحة. ضربات السَّوط التي أكلت لحم ظهره والتي كاد يغمى عليّ لمّا رأيتها، ترافقت مع أسئلة حول إسرائيل والتعامل معها وحول من الذي جنّده. وبالطّبع كان

أبي ينكر، والضربات تزداد ضراوة! حتى أنّه كاد يشكّك في نفسه ويصدّق أنّه فعلا تعامل سرّاً مع إسرائيل؛ حتى ساعة الإفراج عنه؛ حينما اقترب منه الضّابط المسؤول، وهمس له بابتسام مزموم: "عليك يا حاج ألا تُغضِب س. ف. ولمّا يطلب منك طلبا، عليك أن تلبيه في الحال. هل فهمت؟" كان س. ف. ذاك أحد وجهاء الضيعة الميسورين وقد طلب من أبي أن يغيّر له بوّابة منزله الحديدية (أبي حدّاد افرنجي)، كان جواب أبي أنّه سيفعل لمّا ينتهي من الورشة التي هو مكلّف بها، إذ أنّه قد حدّد لصاحبها موعد تسليم وهو بالطّبع عليه أن يلتزم به؛ (أبي يحرص على أن يكون صادقا، أمينا) وبالطّبع الأسياد تفترض الطّاعة العمياء عند عبيدها! وكان عقاب عصيان أبي لسيّده شديدا.

ذاك اليوم كان مِفصليا في حياتي، عدا عن أنّي اكتشفت حبّي الشديد لأبي؛ وعدا عن أنّي اكتشفت أنّه أضعف من أن يحمي نفسه، بات عليّ أن أعترف أنّي أحيا في عالم خارجي، مجتمع، وطن؛ وأنّ جزءا كبيرا من مشاكلي وعائلتي يتعلّق بقوانين وسياسات هذا الوطن.

كان صعبا عليّ أن أحلم بوطن، كنت كالمولود أعمى لا يستطيع تخيّل الضّوء واللون. ولدت في مكان يردّد فلسطين، سوريا... وأسماء زعماء عرب وأسماء زعماء طوائف... لم أعرف عن الجمهورية اللبنانية ورئيسها والتي المفترض أنّي مواطنة فيها؛ إلا أنّها جمهورية شتات وتشرذم وخنوع: (وهذا عرفته مع بدء تفتح وعيي) إذ إنّ أمّي كانت لا تنفكّ تشتم وتولول قائلة أنّ بيتنا مشتّت "فارط" كحكومة سركيس (رئيس الجمهورية وقتها). إخوتي، هربا من مصير كمصير أبي" المؤمن الفاضل"، القانع النائي بنفسه عن السّياسة؛ أحدهم دخل حزب الحرّية، وآخر الجبهة العربية، وآخر الجبهة الشعبية. ولكن عاد البيت كلٌّ منهم بعاهة وإصابة؛ أحدهم في قدمه والآخر في يده والثالث في بلاء حمله للعائلة كلّها! إذ أنّ حركة حلم وهي الحزب المهيمن على الجنوب كانت على عداء مع حزب الحرّية.

علاقتي مع الوطن كانت بغصّة، وعلاقتي مع السياسة كانت بخوف وعدم ثقة! كنت أراها من قذارة ونفعية وعدائية وتسلّط وظلم... حاولت واعية ولاواعية أن أنأى بنفسي عن الشّعور بالعجز والقهر. وأخذت أتخلّى عن الدوائر الواسعة التي من المفترض أنّي أنتمي إليها، واحدة تلو الأخرى: الأمّة العربية التي لم ولا تقدّم سوى الخذلان والخسارات (تتنازعها حروب تبدو اعتباطية عبثية خرقاء، منها حرب العراق على الكويت مثلا، أو حرب السّعودية واليمن...) وبعدها تخلّيت عن دائرة الوطن الميؤوس منه، ومن ثم عن دائرة المجتمع الذي يسوده رجالات المال والأحزاب ويسمّونهم "أوادم"! وأخيراً دائرة العائلة، التي ينهش أفرادها بعضهم البعض بابتسام. تبقّت لي دائرة نفسي. أخذت أُشرّح فيها؛ أصول وأجول وأضيف أفكارا وأحذف أخرى. أقنعت نفسي أنّ مشكلتي هي كيلوات دهن مكدّسة فوق بطني وبثور تحتلّ وجهي وبلاهة تستعمر عقلي وحرمان عاطفي متعاظم منذ طفولتي الأولى. خضت حروبا ضروسا مع نفسي (يبدو لا مفرّ من الحروب)... حتى تزوجّت. (كنت أصبحت ممشوقة القد، بدون بثور، ومجازة في الفلسفة وعلم النفس).

اعتقدت أنّ بيتي الذي اهتممت بكلّ تفاصيله، وعائلتي الجديدة التي أؤسّس هما واحتي وراحتي وأماني ومحطّتي الأخيرة؛ لا سيما أنّ زوجي من الطّبقة التي يحسب لها ألف حساب اجتماعيا؛ ووطني ودّع الحرب الأهلية إلى غير رجعة كما زعموا.

شغلتني دائرة منزلي وأولادي. وتجاهلت وجعي وخلافاتي المبدأية مع زوجي، حول القيم وأولوياتها. تهت بين طمأنينة ظاهرة وبين شعور بالقلق عميق لا يفارقني. حاولت أن أصدّ ق الظّاهر وأغرق فيه. أردت أن أرتاح. وبين قلق كامن وأمان عائم، كبرت ابنتي وأخذت عنّي ومنّي أحلام الحرّية والعدل؛ كنت قد بدأت مزاولة مهنة التعليم؛ فإذا بي وجها لوجه أمام تلاميذ يتعلمّون الكذب والنفاق وحبّ أسياد الطوائف وكره الوطن، حبَّ

الله وكره العدل والحقّ والحرّية. قرّرت أن أناضل، حتى لا تكون ابنتي يتيمة مثلي؛ وحتى يكون لتلاميذي مساحات حلم؛ أناضل في دائرتي.

وكان يوم، صديقتي عينها أيّام المظاهرة ضدّ الاحتلال الاسرائيلي، تدعوني لمظاهرة في بيروت ضدّ الطائفية وزعماء الطوائف. ذهبت أنا وأولادي (زوجي لا يؤمن حتى بجدوى الحلم بالتغيير، ويريد كما أبناء جيله فرض هذا على الأجيال الجديدة بدعوى أنّ لبنان ليس وطنا حقيقيا، "كان هيك- هكذا - وسيبقى هيك - هكذا!"

مشيت في شوراع بيروت، وأنا أحمل طفلي على أكتافي، بزهو. سأناضل لأن يكون لك وطن يا صغيري! كبر الحلم لحظتها واتسع؛ إذ إنّ المتظاهرين ملأوا السّاحات. كانت الورود تنهمر من شرفات البنايات فوقنا وكذلك حبّات الأرُزّ... كان صوتي هذه المرّة أعلى من صوت صديقتي. لكن سرعان ما أُجهض الحلم قبل أن ينضج أو حتّى يزهر. خاف زعماء الطوائف، تكاتفوا، ووأدوا الثّورة. (كان وقتها، حلم الرّبيع العربي، الذي أُجهز عليه بقسوة، باسم الدّين والطوائف وبأسماء أخرى في أكثر الدول العربية).

عدت الى السّبات، حتى انتفض اللبنانيون مرّة أخرى: غاباتهم احترقت وأخضرهم بات أسود كما حاضرهم؛ الوطن غمرته النفايات وحيتان المال والسياسة طمعوا حتّى في الواتساب الذي كان اللبنانيون عبره يحوّلون وجعهم نكاتا. انطلقت الثّورة عارمة من جديد، شاملة كلّ الأراضي اللبنانية وعاودني الحلم.

شاركت وصديقتي عينها التي أجمل ما فيها إيمانها بالحلم والفرح وبجذوة الثورة التي لا تنطفئ!

لكن ما حصل أوّل مرّة حصل هذه المرّة وبضراوة وبذات التعاضد بين زعماء الطوائف.

انا الممزّقة في داخلي وفي ذاكرتي وفي مشاعري، أصبحت هشّة؛ لم يعد عندي قدرة على احتمال نذالة "الكبار" وهم يمنعون على أولادنا الحلم. "لتحيا في هذا الوطن كن لصّا سارقا لخيرات الوطن أو عميلا، بائعا خائنا بقلب بارد (ليس لإسرائيل فحسب، ولكن لكلّ الدّول الأجنبية التي تتقاسم الوطن وأرضه وأهله).

اجتمعت مع مجموعة من الشّباب الذين يحلمون بحياة نظيفة وبوطن حقيقي وأخذوا يتحدّثون عن اليأس الذي يمرّره لهم الكبار، كلّ الكبار؛ وجدتني أقول بكلّ صدقي وبكلّ دموعي:" لا تصدّقونا نحن الكبار، نحن الجبناء، نحن المرضى؛ نحن فاقدو اليقين والإيمان ولا حياة بدون يقين. هبَّ أحد الكبار "العاقلين" الذي من المفترض أنّه من الثوّار المؤمنين وأخذ يخوّفني ويخوّفهم قائلا: "كلّنا مراقبون، الثّورة لن تجدي، كلّنا سنعاقب، ولبنان سيبقى هيك كما هو."

وجدتني فجأة أنهار وأصرخ بكلّ ما أوتيت من قوّة:

لا. لا. ستكون لأولادنا حياة؛ سيكون لأولادنا أرض ووطن. أخذوا أحلامنا وعمرنا؛ لن يأخذوا لبنانكم. كان ابني آدم معي وكان خائفا؛ لم يفهم انفجاري المباغت غير المتوقّع ذاك (إذ بدوت هادئة متّزنة)! أخذت أردّد له ولهم: لا. لا تثقوا بهم؛ لا تثقوا بي؛ نحن فشلة، كذبة، جبناء. هل تسمعني يا آدم؟ لا تكن جبانا كأمّك! الخوف وحده عدوك. هل تسمعني يا آدم؟

قدت سيارتي وأنا أبكي وأتمتم في لحظات هدوئي، بين شهقة بكاء وأخرى:

"أنا اعتذر لك يا آدم... أنا أعتذر لك يا حبيبي... أنا أعتذر عن الحلم... أنا اعتذر عن الأمل... أنا اعتذر عن أنّي أمّ... أنا أعتذر عن أنّي حبيبة... أنا اعتذر عن أنّي عربية... أنا أعتذر عن أنّي لبنانية... أنا أعتذر عن أنّي أؤمن

بالإنسان؛ أنا أعتذر من الله لأنّي ضعفت وخذلته مرارا؛ وما زلت أفعل. هم أقوى منك يا الله... يتحدّثون بلغة الدّم والموت والمصالح والاستراتيجيات والأسلحة وكلمات اخرى لا أفهمها. أنا يبدو حمقاء من زمن الخوف، من زمن الصدق والورد والحبّ. هنا كلّهم يا نيتشه قتلوا الله ويقتلونه! هنا كلّهم يجهزون على ضمائر أولادنا وعلى أحلامهم يقدّمون لهم الدّخان والسّلاح والخوف والجبن؛ يسحلون الموسيقى ينهشون الحنو، يرتدون القلنسوات والعمائم... صليبهم حربة و....

هل عليَّ أن أصمت أبدا؟ هل انتهى كلُّ شيء فعلا؟

قالب البومب ببوظة المانجا

خرجت من غرفة النّوم بإبتسام. ارفعي رأسك عاليا؛ تنشّقي كلَّ الهواء حولك!

السّاعة الثّالثة صباحا وزوجي ينام جنبي. لا يجدي لا فرويد ولا أدلر ولا علم النفس كلّه! حزني ليس بسبب جوع أو جنس أو تلك السلسلة من الاحتياجات الأوّلية الملّحة، الأساسية؛ أو بسبب مشاكل الطفولة العالقة (طفولتي شرّحتها وتحوّل اللاوعي إلى وعي؛ وبحسب فرويد هكذا يشفى المريض).

كان العشاء شهيّا، متنوّعا وكنّا جميعاً حول الطاولة لكن كلاً في عوالمه والكلام تمتمة وهات وخذ...

"هل الماء ساخن؟" سأل زوجي. وهذا يعني: "سأكون نظيفا بعطر وسأمارس الحبّ معك". كان حزني أكبر من محاولة ابتسام؛ حاولت ألّا آبه به وله (حزني أقصد)؛ ارتديت قميص النوم الأحمر الذي حاولت أن أراني جميلة فيه (كان هديته لي في عيد ميلادي). دخل هو الحمّام، ودخلت أنا السّرير. لم أرني جميلة ولم أرَ جمالا في أيّ شيء حولي مع أنّي بذلت مجهودا استثنائيا لجعل الغرفة بديعة مريحة، تليق بمشهد حبّ في فيلم! استلقى جنبي، حاول تقبيلي، شعرت كأنّ جسدي ثقلا أودُّ التخلّص منه! جسده التصق بجسدي، ازداد الثقل! تململت كمن يختنق. كان دوما لطيفا، لمّا أبديت امتعاضي، ابتعد رغم أنّ علائم الرّغبة والإثارة كانت استأثرت بجسده كلّه. تكوّم في جانب السّرير بعيدا عنّي وكذلك فعلت أنا. هو نام وأنا أستدعيت كلّ قدرتي على التحليل، محاولة فهم ذاتي وجسدي. كلّ الاحتمالات سقطت! حاولت من جديد تصديق فرويد والعمل وفقا لإرشاداته؛ دنوت منه واحتضنته من خلف وأخذت أداعب قدميه بقدميّ،

كنت دوما أحرص أن تكون دعوتي له رقيقة، خفرة. قاوم دعوتي مدّعيا النوم العميق؛ ارتفعت بقدمي أعلى وأعلى ولامست عضوه بركبتي، دار بلطف واحتضنني بقوّة. دنوت بفمي من فمه، همّ بتقبيلي، عاودتني تلك المشاعر عينها. وهكذا بين كرّ وفرّ وإقبال وإدبار، لم أستطع أن أنام ولا حتى أن أحبّه؛ حتّى ما قبل الفجر بقليل؛ لا أعرف حينها ماذا حصل، وكيف حصل! كانت لحظات من غيبوبة كان فيها هو منتشيا ونهضت أنا بحزن مضاعف.

دخلت الحمّام، غسلت وجهي ونصفي التحتي مرارا وخرجت من الغرفة. لماذا لا أشعر بالرّضى؟ جسدي استجاب له وبلذّة. ما سرّ هذا الحزن؟ يبدو فرويد مخطئا؛ القصّة ليست قصة جنس وكبت. هل هو شعوري بالنقص، وحاجتي الملّحة لإثبات ذاتي؟ كيف؟ أنا ناجحة جدّا في عملي، ومنزلي محطّ تقدير وإطراء من كلّ من يزورني! (لمساتي في كلّ مكان فيه، بدءا من الحديقة، حتّى صحون الحلوى التي كنت أحضّرها وأحرص على عرضها بشكل شهيّ لافت!)

أخذت أنشر الغسيل، وأنا أحاول أن أنفض أحزاني مع كلّ قطعة أعلّقها.

القصّة ليست احتياجا لإثبات الذّات، الحكاية أنّي فعلا أحتاج أن أشعر أنّي مرغوبة بدون مجهود منّي، بدون أسباب. هل يحبّني زوجي؟ هل أحبّتني أمّي يوم ولدتني؟

الأمهات عادة يحببن أطفالهن بدون شروط؛ هذا عند القطط والكلاب والقرود؛ نحن من ساعة نخرج من ذاك المكان، او حتّى قبل مغادرته مع التصوير الصّوتي المستجدّ وتحديد الهويُة الجنسية مبكرا، يُحتفى بنا أو تتلقّى أمّهاتنا العزاء والمواساة؛ بحسب رغبات المحيط والأب التي تتماهى معها الأمّ باستسلام. بعضنا يخرج والقصاص ينتظره والبعض الآخر يُزغرد له! والعلامات نحوزها وفقا للملامح

والشّكل واللّون والجنس والطّول والعرض... الحبّ مع الحضارة بات مشروطا بمواصفات ورغبات وعلامات.

ربّما ما أحتاجه هو الشّعور أنّي محبوبة فعليا وبصدق وبدون شروط. ربّما هذا ما يحرّكنا جميعا، نحوز الأشياء ونحاول أن نتميّز... كفاني ثرثرات! لا إجابات. الحقيقة الوحيدة أنّ لا إجابات حاسمة. أعرف أنّنا هنا على كوكب الأرض، لن نكون يوما بخير تماماً. لو حدّثني... لو نظر في عينيّ... لو قال أحبّك؛ لربُما كان كلّ شيء أفضل ولربّما نسيت، أو تناسيت أنّه يحبّني بشروط. (أن أكون له كلّي طوال الوقت، يغضب لو خرجت وحدي مع صديقة.)

تسلّلت البرودة جسدي؛ عدت الى الغرفة؛ ألقيت رأسي على المخدّة؛ أمسكت كتابا من كتب الطّبخ والحلوى المكدّسة جنبي وأخذت أقرأ: كيف تعدّين قالب البومب مع بوظة المانجا...

السّوداء وأولادها

أنا قبيحة... وجدّا؛ هكذا أشعر معظم الأحيان. أخاف أن أغمض عينيّ فيتأمّل أحدهم قبحي؛ أتخيّل شعوره بالاشمئزاز وهو يبتلع غصّته. نعم لست جميلة البتّة. ليس سهلا أن تولد بملامح يفرّ منها الآخرون! أنت لم تفعل شيئا سيئا؛ بل لم تنظر يوما إلى المرآة! لا تعنيك المرآة ولا الصّور ولا الأشكال! أنت حيّ مسالم؛ تبتسم لأنّك حيّ؛ جميل لأنّك حيّ وسعيد لمجرّد أنّك حيّ! فإذا بالذي يراك يكاد ينقلب على ظهره وهو يعدو هاربا بعينيه؛ وفقا لمعاييره أنت قبيح. ما الجّمال؟ وما القبح؟ من وضع معايير على أساسها نصنّف ونحكم ونحاكم؟ أفترض أنّ الجيّد هو ما يخدم الحياة ويحافظ عليها؛ يعني القيمة الأسمى هي الحياة والقيم الحقيقية هي القيم التي تحافظ على الحياة وتحسّن شروطها. لماذا أعاني عمرا بكامله وأنا أخشى ملامحي وتفاصيلي؟ ماذا فعلت؟ ما هو ذنبي؟ هل هذه هي نعمة الله التي لا تحصى ولا تعدّ؟ نحتاج سلّم قيم جديدا يخدم الحياة ولا يخنق الأحياء!

الحقيقة الغريبة أنّ إحساسي بجمال شكلي أو ملامحي متغيّر متقلّب طوال الوقت! هل أمتلك وجها مسحورا دونا عن كلّ النّاس؟ أتحوّل في لحظة وحشا مسخا، وبعدها أعود جميلة بسحر مثير... وهكذا دواليك. وأنا أقرأ في رواية" إدوارد والله "لكونديرا مشهد إدوارد مع مديرة المدرسة (إحدى الشّخصيات في الرّواية) والتي كانت نحيلة وسمراء وبشعر في أسفل أنفها؛ وأنا أقرأ أنّ إدوارد تأمّلها مستهجنا ومستنكرا شدّة قبحها الذي جعله يؤكد أنّ لا أحد يستطيع ممارسة الحبّ معها؛ كدت أبكي! شعرت للحظة أنّي هي. هل عليّ أن أحمد زوجي محمّد سعيد وأشكره لأنّه تزوّجني أنا السّمراء الميّالة إلى

السّمنه بشعر في معظم أنحاء جسمي؟ أحيانا كثيرة كان يصدّر لي هذا الشعور؛ أو أنا أصدّره له فيصدّقه ويؤكدّه.

تعبتُ من التجمّل والتخفّي ومن محاولة أن أبدو لطيفة. زوجي لا يحبّني؟ انتهى. ولكن هل تنتهي الحكاية هنا؟ مرّات ومرّات كنت أتخيّل أنّه كان يقول بألف طريقة وبألف لغة: "ألا تعرفين يا امرأة أنّك قبيحة جدا؟"

أعرف أنّي قبيحة؛ لكن لم يتسن لي اكتشاف "جدا" هذه!

أحيانا كثيرة كان "قريني "يحثّني على أن أقول له:

"هل تعرف أنّي تزوّجتك لأنّي قبيحة وغير مرغوب بي؟ يعني أنت خاسر من يوم تورّطت وأعلنتني زوجة لك!"

لن أكمل حياتي وأنا حبيسة رؤيته هذه... (أو رؤياي!)

كنت أبتسم بحزن لمّا يخطر لي هذا؛ كأنّني أنتقم لكلّ خساراتي السابقة، لكلّ الموت والتهميش اللذين كانا من نصيبي أبدا. الحكاية أنّنا منذ نتكوّن، نبحث عن ذاتنا في عينيّ الآخر؛ وإذا كان هذا الآخر كارها لذاته، ناقما على العالم الذي يزعم أنّه لم ينصفه، لن نتقبّل ذواتنا أبدا!

بما أنّي سوداء، بودّي لو أكون قريني! لو أكون مخيفة كتلك السّوداء وأولادها التي ترعب شقيقتي الكبرى وتسطو على كلّ ممتلكاتها: حلوى، أساور، نقود وحتّى كذلك صحن الطّبيخ الّذي تحمله لصديقة أمّي العجوز العاجزة والوحيدة! كانت أمّي متعاطفة جدّا مع صديقتها تلك. غالبا ما تطبخ في اليوم مرّتين لتسكت أفواهنا العديدة الفاغرة أبدا! عند المساء تعطي صحنا لشقيقتي الكبرى وتطلب منها أن تأخذه للعجوز العاجزة. كانت اختي بالكاد تخرج حتّى تعود! تعود بوجه شاحب وصدر لاهث؛ تتقدّم وهي تنظر وراءها وهي تشير بإصبعها وتقول: "إنّها تتبعني وأولادها وراءها! أحتاج أن أختبىء قبل أن تصل هنا"! تهدئ أمّي من

روعها وتدعوها للكلام. كانت تلهث وتشهق وتكرّر: "السّوداء وأولادها، هناك قرب القبور... هي تقيم هناك وتنتظرني دوما لتأخذ كلّ ما أحمل؛ وخصوصا الطّعام! هي تقدّمه لأولادها الكثيرين."

كانت تعود دوما بدون الصّحن والطّعام. ومرّات كثيرة كان شقيقي الأكبر يتفقّد المكان مع بندقية صيد ليعود بفتات من زجاج الصّحن وليعلن أنّ السّوداء فعلا أكلت وأولادها الطّعام كلّه! إذ لا أثر له بين فتات الزجاج المنثور هناك. هكذا بات العبور من أمام المقبرة مغامرة محفوفة بالمخاطر ورحلة يحسب لها ألف حساب. بالطّبع السّوداء لا تخرج إلّا مع حلول الظلام: سوداء تعشق وتنجذب إلى شبيهها. وهكذا غيّرت أمّي مواعيد إرسال صحن الطّعام؛ أصبح الثّامنة صباحا بدل الثّامنة مساء؛ انتصرت السّوداء وباتت السّاحة لها ليلا! إلى أن كان يوم وبسبب ظروف طارئة انشغلت أمّي ولم تستطع إرسال الأكل الى صديقتها يومين متتاليين. وكان القرار أن تذهب أختي عينها لأنّها الأكبر وأن يذهب وراءها كحماية شقيقي ببندقية صيد جاهزة لإطلاق النّار. سارت أختي بهدوء مطأطئة رأسها وهي تبسمل بسرعة قياسية وتعيد البسملة وما إن وصلت قرب المقبرة، نظرت حيث السّوداء رابضة مع أولادها، صرخت بأعلى صوتها وعَدَت راجعة الى البيت. صوت صراخها أرعب أخي فمكث مكانه جامدا بالكاد يتنفّس! نظر حيث السّوداء، وإذا به يسمع مواء قطط. كتم أنفاسه وأنار المصباح في يده مصوّبا إيّاه حيث تربض تلك السّوداء، وإذا به يرى هرّة تخرج من وراء نبته العليّق التي تبدو في العتمة كلّا متماسكا بشكل متعرّج؛ اتخذته الهرّة مكانا آمنا تخبئ خلفه أولادها الجوعى. كانت أختي ترمي الصّحن من هنا وتقبل الهرّة ومن وراءها صغارها، ليختفي محتوى الصّحن في لحظات!

أختي هذه كان خيالها خصبا دوما! مرّات ومرّات تحلف وهي ترتعش أنّ الصّالحة بثوبها الأبيض الفضفاض الطويل تقيم في بيتنا!

وأبي يؤكّد أنّها تظهر له شاكرة لأنه يقرأ القرآن بصوت عال كلّ يوم صباحا. أبي كان يحكي عن الصّالحة بمهابة، فهي لا تؤذي إلّا الكّافرين. وشقيقتي كانت تسرد مشاهداتها بحماس شديد؛ وتقول أن جنّية بوجه غريب تقيم كذلك عندنا!

ذاك اليوم عدت مع رفاقي إلى المنزل ووجدت كلّ أولاد الحيّ هناك يصرخون بصوت واحد: "لا تقتربي، الجنّية عندكم!" دنوت بخطوات حذرة، وإذا بي أجد أمرأة برأس دائري واسع، وبفستان أمّي وبعينين شديدتي الاتساع تنظران في اتجاه واحد، جالسة على درج مدخل البيت، تهمهم ولا تتحرّك! وكانت حكاية الجنّية التي تعيش في البئر وتخرج أحيانا وتجلس على الدّرج كما تزعم أختي؛ كانت الحكاية كلّها من سيناريو وحوار وتمثيل وإخراج أختي عينها: تحشو فستان أمي ثيابا وهي ترتديه، تضع غربالا على رأسها، تغطّيه بمنديل من مناديل أمّي وتؤدي التمثيلية. الغريب أنّها تصدّق كذبتها، وتحلف صادقة وهي ترتعش أنّ الجنّية تحلّ فيها وتجعلها تفعل ما تفعل! كان ذاك الخوف يروقني. كنت مغتبطة رغم فزعي الشّديد؛ بيتنا من حكايات وإثارة وتشويق! والغريب أنّ الحيّ كلّه بكباره وصغاره، كان يتناقل حكايا بيتنا الذي تسكنه جنّية وصالحة!

أخيرا، أعرف أنّي منذ طفولتي تعلّمت الخوف الكثير؛ الخوف من تفاصيلي التي أتخيّلها في لحظة تتضخم؛ يعني وجهي، في لحظة يتحوّل كلّه فما أو أنفا متطاولا، وجسدي يدخل بطني...

أعرف كذلك أنّي الآن أغالي وأهوّل وأتطرّف واخترع سوداء وأولادها وجنية بعيون تبتلع العالم؛ وأنّي كذلك أكدّس الحجج واحدة تلو الأخرى (بآلية التخييل الذكي والتخريفي عينها التي تعلّمتها من أبي وأختي) حتى أنّي قادرة على إقناع نفسي وإقناع الكثيرين أنّ الحياة لا تستحق أن تعاش. لذا غالبا لا أثق بمشاعري ولا بما أرى. يعني من المحتمل أنّ كلّ ما أحكيه

وأرويه محض متخيّل؛ ومن المحتمل أنّ الحقيقة لا تمتّ بصلة إلى كلّ هذا! ومن المحتمل أنّي فقط ببساطة أحاول أن أحوّل أحداث حياتي المكرّرة والمملّة إلى قصّة مشوّقة كما كانت تفعل أختي!

يعني أستطيع الآن وانا أبتسم بزهو، أن أقول أنّي أنثى كاملة الأنوثة من رأسي حتى أخمص قدميّ؛ وأنّي أنثر حولي عطرا أنثويا جاذبا لا يقاوم! وأن الرّجل الذي يدنو منّي يشعر أنّه يستطيع أن يكتفي بي وبسحري الاستثنائي أبدا! فأنا سيّدة نساء العالمين وأجملهن وأكثرهنّ إثارة وفتنة، الرّجال يلاحقونني في كلّ مكان، وأختي تغار من فتنتي وسحري... ولكنّي لا أستطيع أن أقول لك أنّي امرأة سعيدة، لأنّك سرعان ما ستكتشف حزني الكثير ما إن تغادر الابتسامة وجهي!

يدّعي أنّه يحبّني، ويتركني أموت وحدي!

لم يأت عمر لزيارتي؛ لم يمسك يدي. زوجي كذلك لم يفعل كما فعل شارل بوفاري في مشهد الاحتضار بعد أن انتحرت إيمّا! إيمّا ماتت سعيدة. ها هي أخيرا تشعر أنّ أحدا ما أحبّها كثيرا بعيدا عن تهويمات ليون حبيبها الذي خذلها ورودولف الذي حوّلها أنثى دمية. اكتشفَتْ متأخّرة أنّ زوجها يحبّها والمشكلة تكمن في وعيها وحسب. كان للحبّ في وعيها شكل محدّد. دوماً، كلّنا نبحث عن شكل محدّد من الحبّ. ها أنا أحتضر كما أعتقد، او كما هو واقع؛ وما زال ذاك السؤال التّافه يشغلني: من يحبّني...؟

زوجي ما زال كما هو في موقع اللاموقع: معالمه وملامحه لا تشي إلّا بما أنت ترتأي أن تراه. ولكن أين حبيبي؟ في رواية "قواعد العشق الاربعون" لأليف شافاق، تركت البطله عالمها، زوجها وعائلتها، ورافقته في احتضاره وصراعه مع السّرطان. لمَ لم يأتِ عمر؟ هل احتضاري هذا غير حقيقي؟ واذا كان متخيّلاً، لم لا أتخيّله بأحداث تروقني؟ لمَ لا يأتي حبيبي بلهفة بدون زهور؟ لم يحمل يوما لي لهفة أو زهورا وكنت أصدق أنّه يحبّني! كتب بضعة قصائد أخذتها روحي وكوّرتها وخبّأتها هناك في مطرح الشّك الذي يؤرقني؛ حتى لا أنسى.

اليوم لا أتذكّر قصائده. ذاكرتي حرّة منّي تذهب أنّى تشاء وترمي أمامي صورا وأحداثا اعتباطية؛ تبكيني مرارا، تضحكني نادرا. لمَ لا يأتِي الآن ويمسك يدي بلهفة أو بحنّو كذاك الحنّو الذي لمحته في عينيه لمّا رآني أوّل مرّة بقميصي النّيلي؟ كان يحكي ويروي وملؤه السّعادة لأنّي له. قال أنّي جميلة وأنّي روحه وقلبه وعقله وأنّه يعشقني لا بل يعبدني! هل هذا كان يوما؟ أو أنّي اختلقت كلّ هذا واخترعت عمر؟ حياتي دوما بلا أحداث وبلا خطيئة!

ألا يسمعني؟ كيف يترك كلّ هذا الحزن يفتك بي وأنا شبه ميتة! ألا يعرف أنّي أستطيع أن أنهض وأعدو وأبتسم وأعود جميلة بخفر؟ أين هو؟ أين أنا؟ كلّ الرجال يهربون من النّساء اللواتي يعشقن الحفر والتفكيك. هل عمر هو تمثالي الذي شكّلت؟ كأنّي سأسكت أبدا...

الفصل الثّاني

رسائل من الله

أين الله؟

أردت الله بشدّة... سلسلة من الأوجاع كانت حياتي بدونه، وكان النّاس حولي كما حيوانات تحرّكهم دوافع عدوانية وجنسية، وفِي أحسن الأحوال دوافع أخرى حياتية كإثبات الذات، والسّعادة أو حبّ البقاء. كان أبّي يتحوّل وحشاً في لحظات وكذلك أخي. أمّي يتعبها الكبت بكلّ أشكاله فتخرجه سباباً وحالات إغماء وعصبية دائمة. الأستاذ في مدرستي ساخط دوما، يبحث عن مستوعب لاستيائه أدنى منه وذاك الأدنى المتاح بامتياز كان أنا! التّاجر الذي ينتظر فريسة سهلة يستشعر احتياجها لسلعته ليتغطرس ويتشاوف والتّجارة شطارة وسرقة علانية؛ ذاك التّاجر كنت غالبا فريسته.

هي سلسلة من أعلى وأدنى من مصعّد ومسفّل وأنا دوما الأدنى. هزيلة خجولة لا أنتمي لطبقة اجتماعية مرموقة وأفتقد لرقّة بياض الثلج وكياستها. الأحذية تنهال على رأسي بينما تتحسّر عليها قدميّ! أصدقائي يتحاشونني، ويتسامرون بلامبالاةً وكأنّ النقطة التي أنا فيها نقطة افتراضية هلامية. كنت أجوع كثيرا ودوما وأبتسم فأنا مسفلّة! أبكي وحدي وأثرثر مع الله، وأبتسم. العالم حولي سوق وغاب. فِي جيبي الصّغير أخبئ رسائلي إلى الله وأسرّ إليه أنّ البقاء ها هنا للأقوى وللأدهى؛ لا مكان للأنقى.

عُوقبت في كلّ مرّة صدَقْتُ فيها؛ فالحياة و"اللياقة" تستدعيان الكذب الدّائم، والمنافسة والغلبة. ولأنّي الأصغر ولأنّ الله معي كنت دوما مغلوبة!

ودوما متهمة مدانة وعليّ إثبات براءتي. رغما عن هذا كنت دوما أرى الله يطلّ برأسه من خلف غيمة بيضاء هادئة يومئ لي ويبتسم؛ أو ينكزني في فراشي المهترىء! أبتسم غبطة، أنشد سورة الحمد وأنام. سكنني الله والحبّ؛ أُصفَع فأتفهّم وأبرّر وأمضي أغنّي... مات أخي البكر باكرا؛ لم أفهم ماذا يحصل! أمّي كفّت عن كلّ شيء إلّا النّحيب والبكاء... وضاعفت نوبات الإغماء! ردّدت جارتنا أنّ الله أخذ أخي، وأنّ العيد لن يدخل بيتنا. لم يكن في حياتي من حلوى أو فستان جديد مُحتمل إلّا في العيد. تحسّست الله قرب قلبي وابتسمت. ما راقت أبي ابتسامتي "البلهاء" تلك؛ هذه الطفلة البليدة الإحساس لن توقظها صفعة أو حتّى سوط! أبي الذي من المفترض أن يحمينا كان يحمل عصاه وتكشيرته في البيت ويودع ابتسامته ووداعته في الجّامع، بيت الله! دخلته يوماً خلسة لأتعرّف عليه ذاك الله الذي يعيش بين الجدران؛ الله الذي أعرف يقطن القلوب فقط لا يسخط ولا يغضب، يحبّ ويدعم ويتفهّم ويرحم، الله هذا عنده مقتنيات برائحة مقزّزة، ورجالات، وتوابيت، وسبحات؛ خفت من المكان واختفيت.

أفواه كثيرة حولي تتنافس بجشع وعنف على المقتنيات. أردتهم، أردت الناس أكثر مما أردت الأشياء. هم يتنافسون على الأشياء ويزهون بها ويسعدون؛ وأنا لأرى في وجه أحدهم ابتسامة رضى، لم أُعنَ بأن أهتمّ لنفسي أو بجسدي أو حتى ثيابي! مشغولة بالتنبؤ ماذا يحتاجون وكيف يرضون. أبحث عن الله في عيونهم، ذاك الله الذي يحبّ الخير وطرد الشّيطان من داره لعشقه الشرّ؛ لم أجده؛ لم أجد الله! كان الشرّ أكبر منه. أردت إنعاشه، فكنت أبتسم كثيرا أمامهم وأبكي كثيرا وحدي...! وأعمل وأعطي بدل عملي لأمّي؛ علّ الله يكون! وحتى تحبّني أختي أمنحها أشيائي، لأنّها تعشق الأشياء! آخذ بعضا من النقود الفكّة التي تضعها أمّي في علبة في الخزانة وأمنحها لها أو أمنحها دفتراً أشتريه أو قلما لعلّها ترضى وتحبّني أكثر. كان هاجسي أن يكون حبّ في مكان ما... أن يكون الله!

اكتشفت أنّهم جميعا يعشقون الأشياء كثيرا، يعشقون جسدي وما أملك، وليس أنا. الجسد "تابو"؛ وإبراز مفاتنه جريمةً كبرى تغضب "الله" وأبي وأخي. ولم يحبّني رجل!(لن يحبّ رجلٌ امرأة بلا جسد) ولأنّي عطشى للحبّ وعطشي له أكبر من أيّ شيء حطّمت تابو الجسد وأنا أرتعد. اعتنيت بجسدي وطوّبته معبودا؛ تهافت عليّ الرّجال. ولأنّي مسكونة بالخوف، اخترت من هو على استعداد أن يأخذه، يأخذ جسدي بورقة تخفّف شعوري بالإثم والذنب. وكان الحبّ، كان نوع من الحب. ولم يكن، لم يكن الله! وأنجبت طفلتي الأولى، امتلأت كلّي بالله. أحببتها كلّ حب ممكن، مع أنّي أنجبتها بالآلام؛ أنجبت غيرها كذلك. بشراهة كنت أنجب، وبشراهة وبشراسة كنت أحبّ. كبروا؛ وإذا بهم مشغولون بالأشياء! جمعت أشياء؛ كنت أعمل ليل نهار وأكدّس الأشياء. غمرتني وغمرت البيت الأشياء ولم يكن الله! ولم يكن الحبّ! أصبت بهستيريا، نوبات بكاء وحزن شديدين.

أريد الله... أريد أن أحبّ! أريد أحداً يحتاج هذا الحبّ...

ها أنا الآن وقلبي ووحدتي وجسدي الحيّ رغم الموات، بقلب ملؤه الحبّ أحاول فهم رسائلك يا الله. هل سأجد الطّريق؟

حكاية الإجّاصة

لمّا أخذت قطعة من اللّحم المشوي من على مائدة أعدّت في بيتنا لضيف غريب، الكلّ زجرني. شعرت أنّي الكائن الأكثر ضآلة وخساسة في هذا العالم؛ كيف أجوع؟ وكيف أشتهي؟ وكيف آكل من بيت أبي؟!

عليّ أن أفكّر طويلا، ولو أنّي في الخامسة أو السّادسة من عمري. علّيّ أن أكره الحياة في أعماقي، أن أكره الرّغبة وأكره الشّهوة وأكره اللّذة! علّي أن أبكي وأقطّب وجهي، وألملم رغباتي. (الغريب والمُربك أنّ أمّي كانت بعد هذا لا تنفكّ تشكو من أنّي بكّاءة!)

غلبتني الرّغبة عينها في بيت جارة غنيّة؛ كنت أكنس لها الدّار وأمسح لها البلاط لتمنحني زجاجة طلاء أظافر، أو قارورة عطر مزيّف؛ (شغوفة بالعطر واللون) أسحب لها الماء بالدّلو (الّذي كان أثقل منّي) من البئر؛ وأزحف تحت السّرير المنخفض لأمسح البلاط.

أنهيت هذا العمل "الشّاق"، ودخلت المطبخ لأغسل يديّ؛ على الطاولة جاط إجّاص. أنا جائعة، والإجّاصة صفراء شهيّة! صاحبة المنزل لا تعرف شيئا عن جوعي، وعن خروجي المبكر من المنزل دون فطور.

أخذت الإجّاصة ووضعتها في سروالي التحتي. بنطالي واسع، إذ جسدي ضئيل، كأنّما هو لطفلة في الثالثة من عمرها. خبّأت الإجّاصة وأنا أتمايل على فخذيّ حتّى لا تسقط منّي وتفضحني!

الغريب أنّي لا أتذكّر طعمها، ولا أتذكّر حتّى أنّي أكلتها! لكنّي لم أنس يوما شعوري بالذّنب والإثم لأنّي فعلتها! أصبحت لصّة!

هل سيرضى اللّه عنّي؟ هل سيغفر لي وقد تلوت له صلوات كثيرة وأنا أمشي بثيابي المتسّخة، وجلدي الذي لوّحته أشّعة الشّمس الحادّة؟

كنت دوما أسير بدون وجهة، أسير هربا من حزن لا أعرف له سببا، هربا من زجر وسباب وشتائم وهراوات، وبصاق، وأوامر...

لا أحد يعنيه لباسي، أو طعامي. الأفواه والأيدي في البيت عديدة، والصينية الكبيرة حيث يوجد الطّعام، لا تتسع دائرتها إلّا للأكبر والأقوى. نحيلة ومتعبة، وأعاني من نقص سكّر دائم في دمي؛ مشكلتي هذه كنت أحلّها برغيف خبز أشبعه بالسكّر والماء؛ وفي حالات الرفاهية، أخلط الطّحينة بالسّكّر؛ ويوم أكون محظوظة، أجد موزة أمزجها بالسّكّر على الخبز وآكلها بشهيّة وغبطة. كنت عاشقة سكّر، وعاشقة معرفة. لم يكن في بيتنا عدا عن كتب أبي الدينية، سوى رواية سيف بن ذي يزن ومجموعة قصصية. قرأت الرواية مرّات ومرّات؛ كنت مفتونة بقدرات البطل الخارقة التي تمكّنه من الانتصارللحقّ والخير دوما.

ساعدت صاحبة الدّكّان في حيّنا في كلّ ما تطلبه منّي طمعا بالكتب التي تحولّها قراطيس للفّ الفشّار والترمس. كنت ألتهم محتويات تلك الكتب التي يرميها لها أقاربها الأغنياء أيّا كانت المعلومات التي تحتويها.

بدأت أشعر بعمق أنّ الحياة غير عادلة معي؛ هذا كان بداية تمرّدي، وسؤالي عن جدوى ما نعتنقه من قيم ومقدّسات.

لم أبي يقرأ القرآن كثيرا وفي بيتنا ظلم كثير وأكثر؟ لمَ أمّي تصلّي دوما ولاتنفكّ تسبّ وتشتم؟ لم هي تكره أبي وتكره جنسها وتقرّ بأنّ الذّكر جنسا أعلى وأسمى لمجرّد أنّ الصّبيّ يمتلك "التنتورة"(القضيب والخصيتين)؟ فهو يستطيع أن يخرج، يتعرّى، يلعب، يضرب، يكون سيّدا.

كلّ هذا جعلني أتمرّد على قوانينهم ولو خلسة! بدأت أبيح لنفسي ممنوعاتهم، كأنّي كنت أعي أنّ الضرورات تبيح المحظورات؛ وبدأت رحلتي في التمرّد المصحوب بالخوف والشّعور بالإثم والذنب؛ ولأنجو من هذا استدعيت قريني!

القرين

أنا كائن حنون رغما عن أنّ "قريني" يقول لي عكس هذا! يقول أنّي أنانية، شريرة، بخيلة؛ أبتسم لحزن الآخرين ووجعهم. لا أنسى أنّي كنت اخشى قريني هذا طويلا، أخشى أن أبقى وحدي معه، مع نفسي! كنت أشعر أنّي أستطيع أن أبتسم بقوّة لشتائم أمّي ولصفعات أبي، لسخط أخي وغضبه، للعيون التي تدينني وتكرهني، ولفشلي المتكرّر والدائم. موسيقى غريبة تغزوني وتمحو في لحظة أصوات العالم تلك؛ تبتعد كلّ الشتائم تدريجيا، ألمحها تتطاير بعيدا: "أنت فاشلة، أنت دميمة، أنت ضئيلة، أنت ذليلة، أنت وحيدة، أنت كريهة"؛ تتلاشى ومعها يتلاشى العالم وأتعاظم أنا أو قريني!

تصبح ابتسامتي أكبر من كلّ شيء، وأتحوّلُ أخرى لا تخشى شيئا. كلّ الكلام البذيء يتبعثر حولي؛ لا يؤلمني ألم، ولا يخيفني توبيخ. كنت أخشى هذا القرين جدّا رغم أنّه يمنحني قوّة غريبة! أخشى أن يهيمن عليّ، فأتحوّل شرّيرة أبدا. ها أنا بالفعل أقهقه في جنازة! بكاء الآخرين يضحكني؛ ذاك الطفل بثيابه الرثّة، أجده يستحق بؤسه ومصيره! لا أحد يستحقّ أن أمنحه عطفا. مشاعر أخرى قاسية تنتابني، أخشى أن يراها الآخرون؛ كنت أخشى حتّى أن أكون قد تحوّلت كائنا برأس أحمر يعلوه قرنان!

شعرت دوما أنّي مضطهَدة وفاشلة؛ ربّما كنت كذلك بالفعل. أذكر جيدا، يوم حاولت أن أدنو من حلمي وأنا في السّابعة عشرة من عمري، حلمي في أن اكون أنثى محترمة جميلة مرغوبة، كلّي وليس فقط أماكن قريني؛ كثديي الثائرين وعضوي الانثوي المتمرّد على السّكون والموت، وعقلي الذي لا يُهزم! أذكر جيّدا، أنّي اهتديت الى طريقة أكون فيها بطلة وصورة ليراني الآخرون، لأشارك في لعبة ما. الأدوار في لعبهم محدّدة سلفا، ليس فيها دور لعاشقة للحياة نهمة، خائفة من جسدها، من قرينها؛ ليس فيها بطلة بملامح رقيقة فجّة؛ ليس فيها بطلة ذكاؤها يساوي غباءها!

عليّ أن أكون بمواصفات محدّدة دقيقة واضحة نمطية. ثيابي لا بدّ أن تقول الدّور الذي اخترت. كنت تعبت من الهامش والسّماء؛ جسدي على الهامش وقريني في السّماء. سأكون جميلة رقيقة كشادية، أو جذّابة كهند رستم، أو كأيّ بطلة أخرى؛ لا فرق، المهم أن أكون! يلزمني أولا الفستان والحذاء. بصعوبة بالغة حصلت على قطعة قماش من بائع دوّار (متجوّل)؛ واهتديت إلى خيّاطة عانس منبوذة طيّبة (دارت قرينها جيّدا). لا أنسى منزلها أو منزل أهلها. كانوا أغنياء بمنزل بشرفة وأدراج وغرف وتحف كلّها من عاج وخشب؛ (عاشوا في افريقيا، وعادوا هنا لمّا هرموا بقروشهم الكثيرة وعجزهم الأكثر وبعيون أضعف من أن ترى البذخ والتّرف وجسد أوهن من أن يستمتع بهما). المهمّ أنّ الخياطة مستعدّة لأن تنفّذ لي كلّ طلباتي. ها هو الفستان الضيّق الذي يظهر التفاصيل الأنثوية في جسدي جاهز! الحذاء اشتريته آخر يوم من امتحانات شهادة البكالوريا؛ بدل النقل الذي منحني إيّاه أبي، وفّرته عبر (الأوتوستوب)؛ وكذلك لم اشترِ لا منقوشة الزّعتر ولا لوح الشوكولا اللّذين طالما حلمت بهما. اشتريت حذاء أبيض ببوز رفيع طويل، غريبا ومميّزا.

انتهت الاستعدادات، وها أنا في ثانوية المدينة، بفستاني الزيتي اللون والبيج (كاروهات)، وبحذائي الأبيض المرسوم عليه وردة خضراء. لا شكّ أنّي بعيدا عن الضّيعة وضيق مساحاتها، وضيق أفق أهلها، سأجد من يراني بطلة حقيقية! دخلت الفناء الواسع بفستاني الّضيّق وشعري المعقوص والمشدود بقسوة أعلى رأسي. "غريب! لا أحد يصفّق لي! ولكن ألست البطلة؟ لا أحد يراني! آه بلى... هي تراني، تلك النّاظرة، التي تمشي على "الصّراط المستقيم"، والتي هزمت قرينها؛ أو ألبسته رداء "العفّة والفضيلة" والصحّ والغلط، واللائق وغير اللائق! نادتني! كنت أراها جزءا من عالم أصبو إليه؛ هي تدرّس الأدب العربي، وأنا سأكون كالذين تحدّثنا عنهم، كجبران أو مي زيادة أو إبن الرومي، أو أيّ آخر مختلف، يجرؤ على أن يقول ذاته. ذهبت إليها وأنا أرتدي ابتسامة وحلما مع ثوبي الضيّق ذاك. وإذا بها بدل أن تثني عليّ، تقول كلاما لم أفهمه

أو فهمته؛ قالت أنّ جسدي يضجّ بالتفاصيل الناتئة... وأنّ ثوبي غير لائق أو ملائم، وأنّ... وأنّ... وعلا صوت موسيقى الطّفلة القبيحة الفاشلة الغبيّة في داخلي. لم أنجح في أن أكون جميلة، لم أنجح في أن أكون بطلة! ومن تفاصيلي البارزة التي تحدّثت عنها، لم أرَ إلا بطّتا ساقيّ، وبطني الذي بالكاد كان يبرز لأنّه فارغ دوما من الجّوع. عدت البيت وخيبتي؛ بكيت وبكيت وبكيت... ورسمت هذه البطلة القبيحة الفاشلة، حتّى لا أحلم من جديد، حتى لا أنسى، أو حتى أنسى أنّي أنثى؛ وأنسى فكرة الأدوار برمّتها.

جلست وخيبتي. وتذكّرت صفعة أبي يوم جاء من السّفر وانا في الثامنة او التاسعة من عمري، يوم عدوت نحوه ألعب دور الإبنة؛ فهو المفترض أبي، قدّمت خدي له ليقبّله فصفعه. وقتها بكيت كثيرا... أبي حفظ الدّور جيدا. صفعني، ومدّ يده زاجرا: "هذا ما عليك تقبيله!"

اليوم أضحك وأنا أتذكّر: النّاظرة وأبي وقريني الذي بات يغيب طويلا! هل أنوثتي مخيفة؟ أذكر دوما أنّ أبي كان يزجرني لمّا أترك لجسدي العنان، سواء لو تمدّدت على التّراحة (فراش نجلس عليه بدل الكنبة) أو مشيت براحتي دون أن أشدّ قامتي، كجندي في عرض. كان يصرخ: "لماذا تتمايلين وردفيك؟"

هل القصّة في أنوثة فجّة بريّة عذراء؟ الذي يجدر ذكره، أنّي بعد أعوام لا تعدّ، وبعد ان تزوّجت وأنجبت، التقيت بأخت الناظرة عينها. حدثتني عن حياة شقيقتها البائسة منذ عقد أو أكثر... عرفت منها ما أراحني، وعقلي. عرفت أنّها كانت زوجة بالاسم، وأنّها من الرعيل الذي يهيمن على رأسه فكرة الثنائية: أو إمرأة مسترجلة بعقل؛ أو أنثى غاوية ضعيفة مستسلمة، تافهة. وهي اختارت العقل و"الرّجولة"، وزوجها بحث عن الأنثى التّافهة. المهمّ في هذا كلّه تأويلي. في ذاك الوقت عندما كنت أضطهَد ولا يجد عقلي تفسيرا أو وسيلة أحمي بها نفسي كنت أبكي أنا، ويقوى قريني. واليوم بعد أن فهمتني وفهمت العالم، ابتسمت أنا وتلاشى قريني...

عاشق فلسطين والطّريق!

استيقظت باكرا. ارتديت ثوبا أحبّه. نظرت إلى المرآة. وجدتني جميلة فعلا.

فيروز تغنّي: بكرة أنت وجايي رح زيّن الريح!

وجدتني، على غير عادتي، آخذ الطريق النّهري إلى عملي. كنت أشعر بسحر ما يخترق دمي. الطّريق فارغ تماما، هادئ؛ أشجار الحّور والليمون والتوت على جانبيه. جرعت تنهيدتي ومعها غبطة أنّي ما زلت حيّة. لا تكفيني الطبيعة بكلّ مكوّناتها لأشعر بكثافة الحياة! دوما، أحتاج وجها مقرّبا أسند به قلبي، حتّى لا يفرّ منّي. أغمضت عينيّ للحظة وفتحتها؛ وإذا بها تتوقّف فوق جسده المتكوّم فوق كرسيّ على شرفة ضيّقة تكاد الأشجار تحجبها وتحجبه عن الرؤية. ركنت سيّارتي دون أن أفكّر. صعدت الدرج القصير، توقّفت أمامه وكلّي حنو وحنين.

رفع رأسه، بدا شاحبا جدّا، لكن كانت تلك ابتسامته عينها التي أعشقها وقلبي. أخذت يده بين يديّ وقلت له:

- هل تعرف كم أنت غال عندي؟

كان هو ذاك وجهه. ذاك الوجه الذي كان يمنح قلبي ابتساما. ذاك الوجه الذي لم أنسه.

التقيت زوجته منذ شهر وقالت لي عاتبة وفي عينيها دمع: هل نسيته يا شمس؟ هل نسيت رفعت؟ كيف فعلت؟ وكيف لا تسألين عنه؟

- أجبتها بلهفة وخوف حقيقيّين:

- ماذا به؟ ماذا حصل؟ أخفتني.

- هو انتهى يا شمس. رفعت انتهى.

- ماذا؟ كيف؟ لا أفهم.

- ألا تعرفين أنّه مريض بالسّرطان منذ عام؟

- يالله! أنا فعلا لا أعرف. مأخوذة بعملي وبالأولاد. يالله! ما هذا الخبر؟ وكيف حاله؟ كيف وضعه؟

- هو انتهى يا شمس. هذا هو حاله.

قالتها وهي تبكي. خجلْتُ من حزنها؛ خجلت من عدم سؤالي عنهم منذ عمر كامل؛ مع أنّهم في روحي متجذّرون.

عزمت على زيارته؛ لكنّي لم أفعل. أخذتني من جديد تفاصيل حياتي الروتينية الضّروريّة السّطحيّة التافهة.

ها أنا الآن أمامه، أمام بقايا الحياة والابتسام في جسده! أخذت يده بشدّة كأنّي أحاول أن أنقل ليده، لدمه إحساسي به. لم يكن شخصا عابرا في حياتي.

- هذه أنت يا شمس؟

هذه أنا التي لا تنسى يوم طردها من الحصّة أستاذ الرياضيات، الذي يتحدّث عن فلسطين دوما وعن أحزابها ويشرح قضيّتها والمعادلات التي تتحكّم بلبنان والمنطقة، بدل أن يشرح المعادلات الرياضية. هذه أنا التي كانت تخشى العالم حولها ونفسها يوم عرفتك!

التفكير بموضوع فلسطين والوطن يقلقني. أعرف أنّ أمّي تشتم منظمّاتهم وأحزابهم؛ لأنّ أشقائي يغادرون البيت إليهم وأمّي تخشى أن تفقدهم كما فقدت أخي البكر الذي دخل فلسطين في عملية فدائية ولم يعد. كنت أسمع دوما ذاك الدّبيب والأزيز (أزيز الطائرات) الذي يحجب الشّمس وكلّ أصوات الحياة الأخرى. كانت أرضنا منتهكة طوال الوقت من الفصائل ودوريّاتها، (حظر تجول واعتقالات) وسماؤنا كذلك من العدوّ الاسرائيلي. وكنت أنا كذلك غير محصّنة لا في بيتنا ولا على الطّرقات أو حتّى في المدرسة. يشتمني ذاك الاستاذ، عاشق فلسطين، لأنّي لا أحمل معي

كتاب الرّياضيات الذي لم أستطع أن أثقل على أهلي بثمنه. لم أشترٍ وقتها معظم الكتب. المناهج تغيّرت ذاك العام وكتب شقيقتي التي كنت دوما آخذها منها اذ هي تتجاوزني بصف؛ لا تنفع؛ وعاشق فلسطين كان يعشق إحراجي بسؤاله الدائم: "أين كتابك؟"

كتابي في القهر الذي تحمله لي لأنّي أشعر أنّي الأكثر غباء في العالم في الرياضيات! كتابي في السّماء التي تحمل قذائف ودخانا... كتابي في صدر أمّي التي تبكي أخي الذي لن يعود لا هو ولا فلسطين... كتابي فوق صينية الطّعام التي لا تسع أيدينا المتهافتة على فتاتها... هل تفقه الآن أين كتابي؟

كلّ هذا كان يدور في خلدي؛ لكن على وجهي ذاك الذّل والخضوع اللذيان يغريان الظّالم بالتمادي والإمعان في الإذلال. تمتم، لا أذكر ماذا تمتم؛ لكنّي أذكر أنّه طردني من الصّف.

حينها كنت أنت ناظر المدرسة. تعاطفت معي. بكيت أمامك حدّ الخجل. هربت منك ومن عينيك. ومشيت وحدي وبكيت كثيرا.

- ما زالت عيناك تحملان دمعا كثيرا يا شمس.

- أصبحت سريعا زميلة لك. في التّاسعة عشرة من عمري، قرّرت أن أدرّس، أن أعمل مدرّسة، لأستطيع شراء كتب الجامعة والشوكولاته التي أعشقها. كنت ممتلئة جسدا، حزنا، حلما وحياة.

كنت سكوتا وتصغي إليّ؛ بحنو لم أجده في مكان آخر. بت أنتظر وأعشق دقائق استراحة الفرصة التي أقضيها معك. كنت أشعر بسعادة غريبة؛ أشعر أنّه مرحّب بي وكثيرا، ولأوّل مرّة في حياتي. تعلّقت بك كثيرا، وبعائلتك، زوجتك وأولادك. كنت أغبطكم، بيت من دفء وأب! أمّ تصنع الخبز والحلوى، وأب لا ينهر! يناقش، يحتوي ويحبّ.

لشدّة تعلّقي بك، كنت أخالني أعشقك. تقاربنا ذاك ولّد عندك للحظات حلما في أن أكون أنثاك، وكذلك عندي. ودعوتني لنكون وحدنا لم ألبّي!

خفت كثيرا من نفسي، من الخيانة. لم أتخيّلني يوما سببا لتفكيك عائلة! مع أنّي اكتشفت مؤخّرا أنّ العائلة في أكثر الأحيان صورة ذهنية مزعومة وصور على الجدران وحسب.

بيت صديقي ذاك تفكّك ولكن ليس بسببي. ابنته الذكيّة الجميلة دخلت حالة تيه. تزوّجت مرّة غنيا واخرى طبيبا وثالثة ثوريا؛ وانتهت وحيدة حزينة بلا ذكاء أو أحلام. وكذلك بناته الأخريات تخبّطن في خيارات لم يردها لهنّ. انتهى صديقي سريعا وأحلامه سقطت؛ كلّ أحلامه سقطت!

التقيته الآن بعد خمسة عشرة عاما لم أره خلالها. التقيته منحنيا بهدوئه الذي أعرفه وحنوّه الذي أحببته؛ لكنّه كان مكسورا، مهزوما كما لم يكن!

قال:

- ضاع كلّ شيء يا شمس! النّضال وسنوات التشرّد والعائلة والأحلام!

كان ينتمي لحزب الحرّية. اعتقله العدوّ الإسرائيلي إبّان الإجتياح عام ١٩٨٢وطُرِد من البلدة بعد خروج العدوّ من المنطقة وهيمنة الأحزاب الأخرى وعلى رأسها حركة حلم. ارتأت وقتها هذه الاخيرة أنّ الأحرار كفرة وخونة فطردوا من بيوتهم. عاش مشرّدا بعيدا عن منزله عشر سنوات. كنت أشعر بكلّ هذا القهر. لكنّي دوما كنت أخشى الاحتكاك المباشر أو الفهم المعمّق للسّياسة ولما يحصل حولنا. ربّما لأنّي أعرف جيدا أنّنا نحن المستقلين، أو المعارضين، في عرف السّلطة الحاكمة أتفه من جماعة نمل يسحقوننا متى يشاءون.

قال:

- أولادي يا شمس ليسوا أولادي. لا أحد منهم أخذ الطّريق الذي رسمته له أو الذي أتوقّعه منه. هم يتخبّطون بين الأشياء وبين رغباتهم. الوعي لا حساب له عندهم. والوطن كما ترين، بين أيدي أمراء الحرب. لا

أريد أن أتعب وأتعبك بحكاياهم وبالقضية التي كانت الكذبة الأكبر. المهمّ أنت بخير؟ طمنّيني عليك.

كان يتكلّم وهو يداري ألمه الشديد.

- ستكون بخير وسيكون كلّ شيء أفضل. شددت على يديه علّي أنقل له تفاؤلي الكاذب. شعرت أنّ كلّ شيء انتهى. انتهى باكرا جدا.

خفت من التيه الذي أعوم فيه وأنا أخدع نفسي بالغد والأحلام. أنا أحلم وأناضل مثله ولكن على طريقتي. أجمع أشياء ونقودا وأطمر يقينا وغصّة وشعورا خفيّا أنّي لم أجد طريقي بعد؛ أحلامي جوفاء؛ ومشروع العائلة والوطن كما أفهمه وكما فهمه هو، يبدو أنّ مقومّاته لا تحمل إلّا إخفاقات.

قال لي هذا وحسب. لكن لقائي به قال لي الكثير الذي لم يقله! موته كذلك في اليوم التالي بعد لقائنا ذاك قال لي أهمّ ما يمكن أن أعرفه. هل هذا كان مجرّد صدفة؟ أنا أؤمن أنّ الصّدف ليست مجّانية؛ وأنّها تحمل معاني وأجوبة ورسائل. حينها لم أستطع أن أواجه نفسي. لم أقرّ أنّي ضالة وأن رفعت كان مرّة أخيرة في حياتي لتكون حياتي: عليّ أن أجد الطّريق، قبل فوات الحياة!

صديقي ذاك كان في حياتي حاملا لرسائل من الله، ذاك الله نفسه الذي لم يؤمن به يوما!

كنت في قمّة يأسي وقد أنهيت الصّفوف الثانوية. لكنّي لا أعرف طريقا أو طريقة لأكمل تعليمي الجّامعي. التقيت بزوجته حينها، لم أكن أعرفه إلّا كأستاذ وناظر في مدرستنا. قالت أنّه أمّن لي منحة تعليمية في الجزأئر. مع أنّ الأمر لم يتحقّق بسبب اعتقاله وبسبب رفض أهلي؛ لكنّي أحسست أنّي لست متروكة وحدي في هذا العالم. أكدّ لي هذا الإحساس قبلها تعاضده معي يوم طردني أستاذ الرياضيات. شعرت وقتها أنّي مطرودة من العالم

كلّه. وتلقّفني هو وخفّف عنّي. وكذا فعل لمّا انخرطت في التعليم؛ الطّاقم التعليمي كلّه تقريبا تابع للأحزاب الحاكمة والذي لا ينتمي إليهم منفي غريب. احتواني وأصغى إليّ ومنحني الشّعور أنّي جميلة محبوبة ومتميّزة. ها هو قبل أن يرحل، قال دون أن يقول: عليك يا شمس أن تجدي طريقك إلى الشمس.

وإن أنسى لن أنسى ولم أنس مجدي. مجدي ذاك الفتى الجّميل الذي لا يعرف العربية؛ والذي عاش عمره في أفريقيا بين أبوين لا يتوافقان إلاّ على التكالب في جمع المال. كان طويل القّامة بشعر ناعم وعينين خضراوين. كنت حينها ساذجة في الحب والشّكل والعلاقات، تائهة بين الصّح والخطأ وعاشقة بجنون للغة الفرنسية. طلب منّي أن أعلّمه العربية. وافقت إذ أنا أحتاج المال من ناحية ومن ناحية أخرى، عبره أعزّز اللغة الفرنسية. لم يخطر لي أنّه سيهتمّ لأمري كأنثى؛ إذ حينها كنت أتصرّف كعانس رغم أنّي في الثامنة عشرة من عمري! كنت أخجل من ترك شعري مسترسلا على كتفيّ! منذ الدّرس الأوّل أخذ يتودّد إليّ وحكى لي أنانية أبيه ونرجسية أمّه، وأشياء كثيرة أخرى. قال دون أن يقول، أنّه يحبّني. وأخذ يخطّط لنسافر معا. قال أنّي هناك سأصبح رشيقة. أمّه تمتلك ناديا رياضيا وأشياء أخرى كثيرة. بدأت أحلم به وبذاك العالم، وكذلك بدأت أستغني عن ألواح الشوكولاته المكدّسة في أدراجي وجيوبي. وقبل أن تتعاظم فرحتي، اختفى مجدي. لم أجده في أيّ مكان. اختفى واختفت معه فرحتي الخجلى؛ كان حزني شديدا. عزيت سبب اختفائه الى قبحي أو سمنتي أو ثقل ظلي أو إرثي الثقيل من الشّعور بالنّقص وما شابهه...

ظل اختفاؤه هذا غصّة في قلبي، وأحجية غامضة، حتّى عرفت أنّ صديقي رفعت هو خاله. وفي يوم كنّا ندردش معا، وإذا به يتحدّث عن ابن أخته الضائع؛ وعن أنّه عمل حينها على إعادته لأمّه لتساعده على التخلّص من إدمانه على المخدّرات. ارتحت حينها وعرفت أنّ العالم لا

يقف عند بطني الناتئ أو في ملامحي المنكمشة. حرّرني يومها صديقي من إحساسي الكريه ذاك بأنّي غير مرغوب بي، وجعلني أعيد التفكير في خياراتي، وفي فهمي للجدّية والعيب والأنوثة. إذ كنت دون أن أعي أخشى جسدي وأخشى أن أكون أنثى. سألني:

- تحبّين الرّقص يا شمس؟

أجبته بزهو خلته سيثني عليّ بعده:

- لا. أجده حركات خليعة رخيصة تفقد الجسد رزانته واحترامه!

أجابني بهدوء وابتسام:

- لماذا لا ترينه رياضة جميلة تعيد التوازن للنفس وللجسد والروح؟

أجبته باعتداد المتزمّتين:

- الرّياضة حركاتها منظّمة محدّدة، متزنة رصينة.

- ومن قال الرّقص من فوضى وعشوائية؟

حينها ناقشته بحماس وبعدها فهمت أنّي لا أفهم! وصرت أعشق الرّقص أنا وجسدي.

لو فقط نفتح قلوبنا ونحرّرعقولنا أبدا! لا بدّ دوما من ضوء وطريق.

وأنا هنا الآن، بعيدا عن العالم وأثقاله، على سرير في مشفى وبجسد أفلت منّي رغم كلّ البياض في داخلي وحولي. هل ما زال بإمكاني إيجاد الطريق؟ أو هل انتهى وقتي كرفعت؟ وهل نفدت رسائل الله لي؟

البطل

لما دنا ذاك الشاب الملتحي من ابنتي، ليلا، في حديقة المنزل؛ جنّ جنوني! دون أن أشعر دخلت دائرة الكره والخوف والدفاع. المدّ الأصولي حولنا تعملق تحت شعارات متعدّدة فارضا طريقة تفكير واحدة وطريقة لبس واحدة، وأهداف حياة واحدة وموحّدة. تحوّلنا قفير نحل أو نمل أو قطعان نعاج تريد أن تحيا وحسب ولا يهم أنّها تحيا لتذبح. فالحياة "هي جيفة، طلّابها كلاب" كما قال لي إبن أخي المراهق عندما سألته عن أحلامه في الحبّ والزواج: "يكفيني يا عمّتي أن يمنّ الله عليّ بشهادة، فالحوريات الست والسبعون بانتظاري في الجنّة".

لكن الفتى الذي لاحق ابنتي، لم ينتظر الحوريات ولا الجنّة. دخل حديقتنا، وفتحت له صغيرتي البّاب وقلبها.

خرج زوجي كما المجنون بعد أن ناديته. اختفى الفتى وبقيت سيدرا مسمّرة في مكانها. قال أبوها كلاما ثقيلا؛ لم يكن كلاما، كان سبابا، آذى روحي عميقا. لمّا صفعها، كاد يغمى عليّ.

كنت امرأتين: واحدة متمرّدة، قويّة، مؤمنة مليئه بالحماس والشعور بوجوب المقاومة والتغيير لتكون حياتنا أفضل؛ وأخرى مقهورة ذليلة، وحيدة، خائفة تودّ لو تختبىء وأطفالها تحت ذراع أيّ رجل أو في ظل جدار. لكن في الواقع، أخشى على ابنتي من أبيها، كما أخشى عليها من العالم.

شعرت بجزع حدّ الهلع. كيف أنقذ ابنتي؟ سيدرا الرّقيقة في ذاك العالم المقفل بالأسود! لم تجد أمانا في عالمي. ماذا قدّمت لها؟ حزن وخوف وقهر ونفاق وعدو لاهث وراء الأشياء!

ابنتي مهووسة بالبحث عن بطل. تعرّفت على ذاك الشاب "البطل" في احتفال ديني. كان أحدهم يتحرّش بها، بزغ هو فجأة، ضربه على

وجهه ضربة قويّة، على إثرها فرّ المتحرّش هاربا. رأت فيه ابنتي الفارس المنقذ.

حكت لي مشاعرها، وكان ردّ فعلي هستيريا. كنت من هشاشة وخوف، وهذا زعزع علاقتي بها؛ هي تحتاج أكثر ما تحتاج شعورا بالأمان والتفّهم. لكن للأسف مشاعري كانت من غلوّ ومبالغة وتهويل. وباتت مهمتي الرئيسة حمايتها من العالم وقيمه وقيم أبيها! أخالني أسمعها تنشج: "أين البديل يا أمي؟ أعيديني إلى رحمك وتنتهي الحكاية."

أخذت أتخيّل أنّي سأفقدها كما فقدت رين. "سيأخذونها منّي بعيدا". كنت أتخبّط وأنا أراها تزداد ولعا بذاك "البطل"؛ تحوّلت عمياء أنا أيضا؛ فقد اعتقدت أنّي أستطيع إقناعها بالعقل والمنطق!

باتت تراني عدوّة لها، وتسخر من عقلي الذي حوّلني امرأة معلّقة في الفراغ أبدا! امرأة من كلام!

لم أفقدها! الله أحدث أمرا! تدّخلت أمّ ذاك "البطل" التي ساءها جدّا أنّ ابنها أغوته "فاجرة كافرة" كأمّها.

في عيد الميلاد، طرقت ابنتي بابهم وهي تحمل باقة ورد مع هدّية. طردتها أمّه قائلة: "نحن لا نحتفل بأعياد لا تخصّنا وديننا".

لم يكن البطل، بطلا على أمّه. ترك ابنتي تعود "خائبة" مع هديتها!

أحتاج حمارا لأفرح.

في تلك الغرفة في فندق سياحي بغرف لا تعدّ، وجوه غريبة تحرص على أن تكون جميلة، كنْتُ بدون وجه، أو بوجهي كاملا.

- يا عمر، أنا بلهاء، أو ماذا؟

- أنت بوعي مستلَب.

- كيف يكون وعيي نقيا؟

كأني لا أثق بهذا العالم، لا أثق بكلّ مسالكه. لكن الغريب أنّي جائعة، وعاشقة.

- كيف نكون معا يا شمس دائما؟

ها أنا الآن خارج العالم فعلا، ما عدت خائفة. لكنّي ما زلت وحيدة. غادرني الجميع حتّى عمر! أو أنا غادرت.

في بلاد يصدّق فيه الجميع أنّنا من هورمونات وأشياء ووظائف أعضاء وحسب! كيف لا ننفق من الوحدة؟

أمّي قالت أنّي طفلة بكّاءة. لم تفقه أنّي لا أفهم كيف تعيش مع أبي الغاضب أبدا والذي فجأة يخرجها من الغرفة بشعرها ويدفعها خارجا وهي لا تدافع عن نفسها؛ ولا أفقه لمَ يقف إخوتي على الحياد؛ ولماذا أحتضن عامود البيت جامدة آيلة للسقوط؛ لا أفقه كيف بعد يومين، تعود أمّي لتعدَّ لأبي الطّعام الذي يحبّه وتحدّثه طويلا وتبتسم له وتشتمني وتدعي أنّي بوم، ونذير شؤم! لا أفقه كيف أشقائي بعد هذا يجلسون أمام صينية الطعام يتسابقون على البيض في المقلاة وعلى الزيت، ويلعبون ورق الشدّة بحماس ويفرح أحدهم أنّه كسب، ويكتم الآخر غيظه الشّديد لأنّه خسر!

أنا يبدو أعشق الخسارات، لربّما لأنّي لا أريد أن أنتصر على أحد، أو لأنّي أوهن من أن أنتصر! أنا في المعارك خاسرة خاسرة لا تغويني نشوة الانتصارات!

كنت وشقيقتي نحلم معا ونلعب معا وكانت سعيدة أنّها دوما المنتصرة وكنت لا مبالية بشعورها ذاك. لا أعرف لم دوما أشعر أنّي في مكان ما خارج المنافسة. لم يزعجني هذا، إلّا عندما حوّلت قوّتها هذه وسلطتها هذه إلى سلطة وتسلّط وحق مطلق في إهانتي، والاستخفاف بي أمام الآخرين؛ كأنّها باتت مشغولة بفكرة إزاحتي.

كنا جميلتين معا في الخطأ والحلم؛ إلى أن بدأت أقرأ بوضوح رغبتها بألّا أظهر في الصّورة، في أيّ صورة. كنت من يخطّط دوما، رغم أنّي الأصغر، فقد كنت الأجرأ، والأكثر دينامية وحياة.

في يوم خطرت لي فكرة أن نستعير حمار جارنا. فكرة ركوب الحمار، وتجاوز المكان، فكرة جاذبة! صاحبها يعيرها لأبناء البلدة بشروط. عرفت تلك الشروط: يكفي أن نقول له أنّ أمّي تحتاجها لنقل الدّن الذي يسلقون فيه القمح ليحوّلونه برغلا؛ الطّعام الأساسي في بيوتنا. الدّن وعاء كبير (يسمونه خلقينة) وتمتلكه في الضّيعة إحدى العائلات الميسورة ويستعيره على التّوالي أهالي الضيعة بعد حجز مسبق. لم تكن أمّي تحتاجه يومها، فهي لم تشترِ القمح بعد. اقترحت على شقيقتي أن نذهب إليه ونستعير الحمار بدعوى أنّ أمي تحتاجها؛ متجاوزة خوفي منه! إذ كان طبعه حادا بالكاد يبتسم! كان شائعا أنّه سوري الأصل، هرب من الشام شابا بعد أن خنق زوجته السّابقة بجدائل شعرها الكثيف القويّ التي تشبه جدائل شعر أمّي. يسمّونه الشلبي (يجمعون كلمة شام وحلب معا ربّما). تجاوزت عينيه الواسعتين ببياض كثير، خوفي الّشديد، وضآلة حجمي أمامه؛ وطلبت الحمار منه.

أجاب:

- هو هناك في الاسطبل. فكّيه عن الوتد. لكن أتستطيعين جرّه وحدك؟

قلت:

- نعم. أختي معي وهي تنتظرني في الخارج...

أخذته وانا أشعر أنّي ذكيّة قادرة على تحقيق أمنياتي. ركبنا كلتانا الحمار وكأنّنا نركب مركبة فضائية أو الكرة الأرضية! سرنا نزولا حيث النبع والخبيز والصعتر والعليق... مضى النّهار سريعا، سريعا جدا، كضحكة قلب. قرّرنا قبل المساء أن نجمع الحطب لنرضي أمّي. أخذنا نجمع الأعواد اليابسة الهشّة؛ كوّمناها فوق خراج الحمارة، بطريقة عشوائية؛ قدناها طلوعا إلى المنزل وقبل أن نصل؛ سمعنا سيلا من الشّتائم بصوت الشّلبي. كان أخي معه، وربّما أمّي؛ لا أتذكّر. أتذكّر وحسب خوفي الشّديد، وشعوري بالذنب والإثم؛ مع أنّي لم أفقه لمَ غضب بهذا القدر. هل أخذت أمّي الحطب؟ لا أتذكّر أيضا. أتذكر أنّي اختبأت خلف الباب أصلّي لله، كما أفعل دوما في أوقات ضعفي الشديد. رجوته بحرارة شديدة أن يجنّبنا" القتلة" أي ضرب أبي المبرح الذي توقّعته، تخيّلت عينيه حمراوين والخشبة أو العصا... الغريب أنّ أبي الذي يعاقبني بالضّرب الشديد على أتفه الأشياء عفا عنّي وعن أختي!

كنّا ننجح معا وننجو معا، نضحك معا ونبكي معا. حتى بات يزعجها شيء ما فيّ: لعلّه ذكائي الفطري الفجّ، شجاعتي، أو بروز قدراتي أمام الآخرين. أستطيع أن أكون ذكية في الظّل، المسرح لا بد أن يكون لها وحدها! باتت تحرص أن تكون ناجية وحدها، قويّة وحدها، منتصرة وحدها.

لا تطيق تمرّدي، ربّما يذكرها بانصياعها. ما أسهل الكره! لماذا أنا اليوم أنصاع وأكره؟ دوما هنالك شيء ما قادر على أن يمنحنا الفرح. هذا الموات في بيتي وفي جسدي تافه!

يتمتم آدم جنبي وهو يهز يدي السّاكنة:

- أمّي، أمّي ألن نذهب معا في رحلتنا المعتادة على الدرّاجة؟

أجابته الممرضة برقة:

- سيصحبك أبوك يا صغيري.

تمتم آدم:

- وحدها أمّي تفعل.

- سأصحبك يا آدم وسيكون لنا حمارا، وسنفرح!

همس قلبي من خلف جفوني المسدلة: سأنجو هذه المرّة أيضا.

بيني وبين الله

هي الحياة لمّا تقسو، نقسو نحن. هل عليّ أن أعوّل على الآخر؟ من يأبه؟ دخلت ذاك المنزل المهجور وجلست فيه ساعات وساعات أنظر للسّموم التي جلبتها معي، وللجدران المقشّرة. لا... لن أموت! نعم لا أريد أن أكون لائقة! أريد أن أتأرجح بين ذراعي عمر؛ وأريد قبل كلّ شيء وبعد كلّ شيء أن أبكي طويلا وكثيرا؛ وألّا أموت!أنا أخطئ كثيرا، أخطئ دوما... ويخفق قلبي، ويمتقع وجهي وأصلّي...

الأخطاء ليست أنواعا كما أعتقد: صغيرة تافهة، أو كبيرة عظيمة. الأخطاء أخطاء وحسب وخاصة عندما نقترفها بدعوى أنّها حلول ذكية.

دوما كنت على عراك مع قوانين هذا العالم ومعاييره. كأنّي كائن غابٍ! وحدي في مواجهة غير عادلة مع العالم. هل تتذكّر يا الله يوم كنت أجوع حدّ الصداع وأحمدك بحرارة وابتسام على السندويتشات التي يرميها الأطفال المترفون في سلال مهملات المدرسة المجاورة لمسكننا؟ وهل تذكر يوم كنت أصغي باهتمام عجوز لهواجس تلك المرأة العانس وحكاياها؟ تحكي لي عن ذاك الذي عشقها وكذب عليها، إذ كان عاشقا لأموالها! وعن أوجاع جسدها الهستيرية التي تتنقّل من طرف إلى طرف؛ وعبثا يتمكّن منها الأطباء! وعن شقيقاتها اللواتي يغرن منها، وعن أخيها الجشع الذي يتوق للتخلّص منها حتى يستأثر بكلّ المال الذي كدّست؟ هي أربعينية وأنا ابنة السّنوات العشر أو أكثر قليلا؛ هي بدكّانها الذي يكتظ بألواح الشوكولا وبكلّ الأشياء التي حرمت منها منذ الأزل؛ وأنا بخدماتي التي ترهق نفسي قبل جسدي والتي أقدّمها صاغرة وبابتسام. هل تذكر يا الله يوم تركتني وحدي في دكّانها لتصلّي لك؛ وأنا بسبب الجّوع أو الشّره، نسيت وصيتك "لا تسرق" والتهمت أو ابتلعت وازدردت لوح شوكولا (أو

إثنين) من ماركة "أونيكير"؟ وبعد التلذّذ ولذّة الشّبع، حرت أين أخبئ أغلفتها الذهبية! وأخيرا وجدت مكانا مناسبا خفيّا وخلتني نجوت بفعلتي تلك! وإذا بي أتحوّل لسارقة سلسلة ذهبية لم أرها أصلا! ولم تكن لتغويني حتى لو رأيتها بقدر لوح الشوكولا. الغريب أن أحد الدجّالين"المكشوف عنهم حجابك"، أي أحد الذين" يتحدّثون معك مباشرة"، سألك عن سارق السّلسلة، ووصفتني له بالتفصيل! فتاة نحيلة قصيرة القامة بقلب عاشق جائع وعينين حالمتين بإصرار، وبيدٍ أخذت السلسة! لعلّك يا الله لا ترَ جيّدا! أنا فقط التهمت لوح الشوكولاته! والذي خبّأته كان غلافه الذهبيّ، فهل تختلط عليك الأمور مثلهم؟

أو أنّك أردت إنذاري (عبر ذاك الدجّال) بألّا أتمادى وفقا لقانون أنّ من يسرق بيضة يسرق جملا؟ تألّمت كثيرا فوق قدرتي على التحمّل. صلّيت وأنا أرتعش؛ وعزمت ألّا أرتكب أية معصية من أيّ نوع كانت، سأسير على الصّراط المستقيم!

ولكنّ الحياة بقوانينها حولي لا تسمح بنقاء كامل، أو حتّى بنقاء كثير، نحن مزيج من القاذورات وأحلام النّقاء؛ كلّنا يهوذا المسيح.

تألّمت وخفت لكنّي لم أتعلّم! كبرت وأصبحت أنثى سمينة ثخينة بشكل مقرف (كما تخيّلتني). ربما بسبب لوح الشوكولاتة ذاك! وحتّى أنسى وحتّى لا أفكّر، وحتّى لا أشعر بالحرمان، اشتريت الكثير والكثير من ألواح الشوكولاتة، التهمتها أو أدخلتها أحشائي كأنّي أسدّ ثقوب نفسي التي ترشح حزنا. اِشمأز جسدي من طعمها وعافها؛ عاقبتُه على شرهه ذاك اليوم يالله معك! أرأيت كم أنا مخلوق طيّع لطيف؟ ولأتطهّر وأعود نقية، كنت أتقيّأ كلّ ما ألتهمه مرارا وتكرارا!

وحتّى أكفّر عن خطيئتي وترضى عنّي تماما، كففت عن أكل الشوكولاتة وأكل كلّ شيء! دخلت في حالة خشوع وصوم. لكنّ جسدي الذي خلقته

أنت وفقا لقوانينك، لم يتحمّل، سقطت مغشيّا عليّ في الحمّام! فهمت الرسالة: لا تريد منّي أن أصوم ولا أن أكون شرهة. قرأت وفهمت ماذا تريد تحديدا؛ فأصبح جسدي رشيقا قويّا جميلا. لكن هل تعرف أنّي احتجت مالا كثيرا لكي أعدّ طعاما خاصّا صحيّا غير ذاك الطّعام الدّسم الذي تعدّه أمي؟

كنت لمّا أذهب إلى الجامعة (مرّة أسبوعيا أو في أوقات الإمتحانات) أرحّب بأيّ سيّارة تقلّني أوتوستوب؛ لأوفّر الليرات القليلة التي أملك. لكنّك عاقبتني على هذا بشدّة! لماذا فعلت هذا يالله وانت تعرف أنّي أحيا في لبنان، في حقبة الحروب؛ حرب إسرائيل على لبنان وعلى جنوبه الذي أنا منه وفيه أقيم؛ وحرب المخيّمات بين حركة حلم والفصائل الفلسطينية، وحرب حزب الله والحركة وحرب أبي وأمّي، وحروبي مع ذاتي وعاداتي السيئة ومع أشقائي وحروب أخرى أهلية داخلية وخارجية... من أين أجد وسيلة نقل رخيصة؟ ليس عندنا باصات ولا وسائل نقل مشترك؛ فقط التاكسي التي تطلب الكثير، أكثر مما كنت أحمل وأتحمّل.

أحسست أنّه يتتبّعني حين كنت أمشي بعيدا عن مدخل الجّامعة محاولة الوصول الى الشّارع الرئيسي. لا بل ربّما سمعت كلماته المبتذلة التي غازلني بها. لمّا وصلت إلى الطريق العام، أوقف سيارته أمامي بغتة قائلا:

- أين تحبّين أن أوصلك؟

كان شكله مخيفا؛ لا أذكر كيف كان تحديدا. أذكر فقط أنّه نحيف جدّا بطول لا ينتهي وبشعيرات قصيرة قاسية مبعثرة في ذقنه. ركبت معه كأنّه قدري. كنت متعبة من الدّرس ومن الكتابة لساعات في الامتحان، ومن الجّوع والنّهار يوشك أن ينتهي. صعدت السيّارة ذاكرة له المكان الذي أقصد.

ابتسم ابتسامة الذئب لليلى:

- تكرمي... ستكونين بسلام وحيث تريدين.

وصدّقته بسذاجة ليلى؛ وأخذت أنظر وأدقّق في الأوراق التي معي لأتأكّد أنّي أحسنت الإجابة على أسئلة الامتحان.

قال:

- ما اسمك، أحبّ أن أتعرّف عليك.

- أنا ركبت معك لأصل بيتي وحسب، وليس لأتعرّف عليك وإذا هذا يزعجك، دعني أنزل هنا.

- لا... لك ما تشائين. لن أزعجك بعد الآن.

كنت طوال الوقت لا أنظر إليه وهو كان طوال الوقت ينظر إليّ! وبأدب جمّ مفتعل، استأذن لكي يملأ غالونا ما، من محطّة في الجّوار. أومأت برأسي دون تفكير أن لا مانع.

وفي لحظة كما في أفلام الرّعب والسّحر وجدتني في السيّارة معه وحدي في مكان خال أشبه بصحراء! في ذات اللحظة أشهر في وجهي مسدّسا ضخما وهو يتمتم:

"ترفضين أن تضعي يدك في يدي! ترفضين التعرّف عليّ وتتجاهلين تغزّلي بك؟ تعبت وأنا أتبعك، وأنت لا تبالين، من تظنين نفسك؟

مع كلّ التّعب والجّوع والخوف، بات وجهي شاحبا أكثر من وجه ميت! عجزت حتّى عن التنفّس، وأخذ جسدي كلّه يرتجف. أجبته بكلمات متقطّعة:

- أنا أردت... كذلك التعرّف عليك وإلّا لماذا صعدت معك؟ لكنّي فقط أتعمّد "الثّقل" حتى لا تقول عنّي سهلة.

انفرجت أساريره بغتة. بدا ساذجا أنويا كمعظم الناس، يصدّقون في أعماق ذواتهم أنّهم الأفضل.

كان سيناريو ما سيحدث لي يبدو كارثيا! أخذت أحدّث نفسي:

"عليّ ألّا أخاف... لكّني خائفة بالفعل وجدّا. سيعرّيني ويفعل ما لا أتحمّل أن أتخيّله. يرتمي بجسده فوقي، وينتهك جسدي بكلّ تفاصيله... وربّما يقتلني بعدها. وحتّى إن لم يفعل هو، مؤكّد بعد هذا لن أستطيع حمل جسدي وفوق جلدي بصماته التي لا تنمحي! سأقتل نفسي بعدها حتما."

وقرّرت ما دام الموت حتميّا، فلأمت نظيفة، بدون لهاثه ولعابه وسوائله الأخرى.

رغم عدم قدرتي على التحكّم بجسدي الذي كان يهتزّ كلّه، تابعت متلعثمة:

- عليك أن تبعد مسدّسك لانّي أخشى أن يغمى عليّ فأنا عندي فوبيا الأسلحة... أقصد أنا أخاف السّلاح حدّ الإغماء.

عليّ أن أقنعه بأنّي أريده، حتّى يأخذني الى مكان مأهول؛ هذه هي خطّتي. لم أكن قادرة فعلا أن أراه ولا نظراته ولا جسده.

لا أعرف إذا تحسّس جسدي، لكنّي أعرف أنّي تحوّلت كتلة شحوب وارتعاش.

لربّما دنا منّي، من وجهي، من فمي، من ثدييّ...

أذكر أنّي تمتمت:

- أريد ماء لأكون معك كما تحبّ وعلى طبيعتي... هكذا سيغمى عليّ!

نظر إلى يديّ اللتين ترتعشان؛ اطمأنّ وابتهج.

وقال وهو يلعق فمه كذئب ليلى:

- تخلعين ثيابك تماما؟

- نعم.

- أنيكك"؟

- نعم.

- من أين آتي بالماء؟

- من أيّ مكان قريب. أرجوك! بسرعة.

قاد السّيّارة إلى مكان فيه كشك صغير بالقرب من مبنى قيد الإنشاء. نزل هو، وفتحت الباب أنا. نظر إليّ غاضبا، زاجراً.

قلت:

- أحاول أن أتنشّق هواء نظيفا وحسب، أنا أريدك. هل نسيت هذا؟

دخل الكشك، عدوت وقدماي تلامسان رأسي! وقبل أن يعدو ورائي، خرجت سيّارة من المبنى. رميت نفسي أمامها؛ وقبل أن يوقف السّائق سيّارته تماما، كنت جالسة جنبه، طالبة منه أن يقود بأقصى سرعة محذّرة إياه من ذاك الرّجل وسلاحه.

طمأنني قائلا أنّه المهندس المسؤول عن المبنى وأنّ الله أرسله لينقذني في الوقت المناسب. ما إن تأكدت أنّي نجوت حتّى أجهشت باكية بشدّة طوال الطريق، كنت أرتعد كلّما خطرت لي فكرة أنّه كان بإمكانه أن يمسّني حيّة أو ميتة.

لم يفكّر المهندس ولا أنا بإبلاغ الشّرطة، لأنّنا في لبنان لا نعرف شرطة؛ البلد كونتونات وميليشيات.

لم أخبر أحدا؛ خوفا من أن يدينوني لأنّي أصعد مع غرباء أوتستوب؛ (مع أنّ كلّ صديقاتي يفعلن) وخوفا من أن تمنعني أمّي من الذّهاب إلى الجامعة (هي تردّد: الجامعة تعلّم البنات الفسق"عشنا وشفنا بنات بتروح على جامعات!"

تسلّلت الى فراشي؛ وما إن لامس جسدي الدثار حتى تذكّرتك يالله، إذ دوما أحادثك ليلا قبل الخلود الى النّوم؛ وبدل أن أصلّي بكيت.

أيستحق طمعي بادّخار ليرات معدودات هذا العقاب الشديد؟

ولكن كيف نسيْتُ أنّك أنقذتني في الوقت المناسب تماما؟

لم يكن عقابا؛ ولم أكن وحدي فأنت معي أبدا. هذا ما أردت أن تقوله لي؟

أنت لا شك غاضب منّي اليوم أكثر من أيّ وقت! جبانة، لا أقاوم، أتخلّى عن أولادي، وعن حياتي. وحتّى أتسبّب بورطة لذاك السائق الذي دهسني. اعتقدت أنّي سأنجو بالموت! نسيتك يا الله ونسيت آدم، ونسيت عمر ونسيت سيدرا ونسيت ذاك السأئق الذي ابتلى بي وعائلته!

هل ستعاقبني؟ أو أنّك لم ولن تيأس منّي قط؟ هل سيكون هذا الذي يحصل لي ومعي، مجرّد تجربة تجعلني أكثر نقاء وصدقا وحياة؟

سأصبح حرّة!

انتظرني أبي على باب الثّانوية بعد انتهاء الدّوام، قاد سيّارته بهدوء وابتسام، وصل إلى الدوّار الأخير قبل مفرق بيتنا؛ توقّف وقال بمودّة وحنو:

- شمس... انزلي واقرأي ما كُتب على تلك اليافطة.

نظرت إليها، وإذا بي أرى صورتي مبتسمة بشعر حريري يداعب وجهي، مرفقة مع عبارة كتبت بخيوط من ضوء: "شمس لا تنسي طريقك إلى الشمس..."

نظرت إليه وأنا أبتسم أو أبكي، وددت لو أخلع عنه نظاراته وأمطر عينيه ووجهه السّمح الوقور قبلاً!

وتمتمت: أنت حقّا أبي؟!

واستيقظت. كان هذا حلما...

الواقع من غبار، وعبوس، وتوبيخ وأنت لا تصلحين لشيء يا شمس.

كان جسدي ينمو ومعه حزني. أخشى أن أنتحر يوما ما فعلا، إذ الانتحار فكرة مريحة، تمنحني الشّعور أنّي دوما أستطيع فعل شيئا ما حيال هذا القهر، أقلّه الموت. وحتّى لا أفعل كنت أعدو إلى المطبخ، أملأ بطني بأيّ طعام أجده، وأصمّ أذنيّ بأصوات المضغ...

خرجت ذاك اليوم هربا من كلّ ما يقيّدني وجسدي، وردّدت وأنا أحاول أن أغنّي: "أنا دوما أستطيع أن أحلم..." فالحياة تمنح فقط الذين يضحكون بقوّة رغم النحيب والعويل حولهم...

كنت أرى شعري مصدر قوتي، وكان ممنوعا عليّ فرده، أو حتى كشفه بحسب قوانين أبي.

أخذت أدندن أغنية عبد الحليم حافظ (قدّك المياس ياعمري) بوعي غائب عمّا وعمن حولي. رميت الإيشارب عن رأسي، وحللت الضفيرة، ونسيت أجهزة الرقابة التي تتلصّص لصالح أبي. أبي الذي يخشى الشمس والحقيقة والناس ونفسه ومظاهر الأنوثة في جسدي. يريدني أن أخبئ شعري ليرضى الله عنه، أو ليؤكّد التزامه الديني، أو ليشعر أنه سيّد في مكان ما وعلى جماعة ما. سلسلة من المحظورات والممنوعات يفرضها علينا ولا يحتاج أن يبرّرها، ولا أن يشرحها لا لنفسه ولا لنا: "نفّذ ولا تعترض."

يومها قرّرت ألّا أنفّذ. طار شعري خلفي وحولي يحلّق وأحلامي التي لا يسوّغها لي واقع ولا عقل أو منطق.

وقبل أن تتسع خطواتي الراقصة، وقبل أن يعلو صوتي في الغناء، وجدتني أمام وجه عبوس غاضب:

"إذهبي الى البيت فوراً"

دقّات قلبي تجاوزت صدري، وحالة الغبطة التي تملّكتني، تحوّلت إلى حزن حاد، مصحوب بفزع شديد...

دخلت البيت، تكوّمت وراء الباب الملاذ والمعبد، أبسمل آية الكرسي والسّد وكلّ الآيات التي حفظت.

سمعت صوته الأجشّ، دقات قلبي كانت أعلى من صوته، رغم هذا سمعته، ناداني باسمي، (لم يستعمل لقبا أو شتيمة) وهذا مؤشّر ايجابي كما اعتقدت؛ مثلت أمامه بعينين كسيرتين، وجسد خائف أغراه أن يؤذيني، وإذا به بغتة يأخذ لوحاً خشبياً، ويهوي به على رأسي الصغير وعلى ابتسامتي البلهاء. وقعت أرضا. ولم أعِ ما حصل بعدها، وجدتني بشاش أبيض حول رأسي، وشاح، حجاب، ايشارب الزامي من نوع آخر... ويا شمس إيّاك أن تحدّقي بالشمس!

هذا بعضٌ ممّا قالته تلك الحادثة، وما ردّدته أمّي وهي تنظر الى رأسي بإشفاق. لكنّي فهمت شيئا آخر، وعزمت على شيء آخر.

لن أمكث في هذه المساحات من الخوف، وردّدت كلمة بطلة رواية إحسان عبد القدوس التي عشقتها: "أنا حرّة". عليّ أن أصبح حرّة... سأصبح حرّة.

كنت في السابعة عشرة من عمري، كان جسدي ممتلئا بالخواء والدهون والسكّر، أخبئ ابتساماتي وسنّي المخلوع.

سأصير ما أريد... وضعت مخطّطا ينقص عبره وزني، وتزداد لياقتي، وكذلك ثقافتي. عليّ أن أمارس الرياضة، وعليّ أن أقرأ وأن أذاكر حتى أنهي البكالوريا وأفتح الأبواب التي أنتظر. بيت أهلي مكتظّ ولا مكان هادئ فيه. حملت كتبي وحبلا صالحا لرياضة نطّ الحبل، وتوجّهت نحو الحقول في تخوم البلدة...

سلكت طريقا (قادومية) لأجدني فجأة أمام منزل كوخ، أو غرفة كبيرة ذكّرتني ببيت الغولية في قصة هانز، لم يكن بيتا من الشوكولاتة كما في القصّة، لكن كان مكانا هادئا، باردا تحيط به أشجار التّين والعُلّيق ويقيم فيه نبيٌّ من الأنبياء المجهولين! اسم المكان مقام النبيّ وحسب. دخلته بمهابة وأنا أضحك من خوف الطفلة في داخلي، الطفلة التي كانت لا تجرؤ على المرور بمحاذاته.

ها أنا اليوم أدخله! كان المكان هادئا معتما، يتألّف من مطرحين، أو من غرفتين. الأولى شبه فارغة إلّا من شموع ذائبة منتشرة في كلّ مكان، وبعض أوراق البخور المترمّدة المكوّمة في الزّوايا. دخلت المكان بعينيّ الباحثة، التي قرأت كتاب نقد الفكر الديني لصادق جلال العظم وبدقّات قلب الطفلة التي تخاف كلّ شيء. اجتزت الغرفة الأولى وأنا أداري بعض خوفي بابتسامة باهتة، وجدتني أمام ضريح يعلوه هيكل حديدي مرتفع

مكسو بطبقات متعدّدة من أثواب الأقمشة البيضاء والملوّنة. دنوت منه، رفعت الأقمشة واحدا تلو الآخر؛ وجدت تحتها أحجار باطون مكتوب على أحدها: "هنا يرقد النبي صلّى الله عليه وسلّم". لم يُكتب اسم النبيّ ولا تاريخ مولده ولا حتى تاريخ وفاته؛ هنا نبيٌّ وحسب. وقبل أن أترك لفائف الأقمشة الفاخرة للحجر، لمحت في مكان ما بضع ورقات نقدية، هي بالنسبة لي ثروة." هي عطيّة الله ونبيّه لي" فكّرت. أخذتها وأنا أقول في نفسي، العظام لا تحتاج أوراقا مالية ولا كسوة ولا شموعا تبدّد عتمتها...

قرّرت أن أكون ضيفة ذاك النبيّ المجهول من دون دعوة أو حرج، وهو الذي يستقبل العطايا والنذور، وأنا.

الغريب أنّ بعض النذور كان فرشا إسفنجية، ومخدّات وشراشف...!

أخذت الى المدخل المضيء بعضها، افترشتها وأخذت أذاكر دروسي بهدوء وتركيز لم أعتده، كأنّ الله تولّاني عبر نبيّه، رغم أنّي "لصّة"... لصّة مسكونة بالله. أؤمن بالأقدار، بالمعنى، وبأنّنا نريد ولكن علينا دوما أن نحبّ ما يريده الله لنا.

كنت قبل مغيب الشمس أنهي مذاكرتي؛ وآخذ الحبل وأقفز وأقفز بحماس شديد، كأنّي أقفز قهري وخوفي وفقري وضعفي وذلّي والكيلوات التي تثقل جسدي؛ لأعود بعدها البيت آمنة مطمئنة.

ذاك المكان منحني فراشا نظيفا ونقودا غبّ الطلب؛ أجدها لمّا أكون في حالة احتياج شديد لها. (أذكر أنّي اشتريت بأول مبلغ وجدته كتابا في علم النفس العام).

ذاك المكان، أو ذاك النبيّ، منحني كذلك الشّموع التي أحتاجها لأقرأ ليلا. إذ في ذاك الوقت وحتّى الآن، الكهرباء حلم، كما أكثر الضّرورات الحياتية إبّان الحرب. لم أشعر بالإثم؛ إذ ببساطة كان عقلي قادراً على التبرير:

أليس من الأجدى أن أستعمل أنا الشّموع والنّقود والمكان بدل الجدران وتلك العظام المسجّاة؟ (هذا إن كانت هنالك فعلا).

الحكاية لم تستمر هادئة، هكذا كهدوء ذاك الجبل وذاك الضريح ونفسي.

كنت مستغرقة في القراءة، عصرا، قبل هبوط الظلام بقليل، وإذا برجل يرتدي بدلة كحلية وربطة عنق مزخرفة، يدنو منّي ومن المكان. كان قصير القامة بنظارات سميكة، وجسد خفيف زئبقي، تخيّلت يده قادرة على الوصول إلى أيّ مكان. لملمت جسدي وكتبي والشراشف والمخدّة مسرعة، وعدوت لأضع كلّ شيء مكانه، وقلبي ملؤه الخوف. لم أتصرّف كأنثى فريسة؛ فقد نسيت أنّي أنثى. لكن نظراته التي عرّتني، واستقرّت على أماكن محدّدة من جسدي أيقظت خوفي؛ ذكّرتني بفكرة الأنثى الطريدة، الفريسة المشتهاة. المكان شبه معزول، والظلام يوشك أن يهيمن.

وجدتني بسرعة أقول له: جلبت بعض الشموع، أمّي نذرتها، لكنّي نسيت أن أجلب عيدان الكبريت. أختي الكبرى ذهبت لجلبها، ألم تلتقها؟ ناولني علبة كبريت وعيناه تغوصان في ملامحي وفي جسدي. وتمتم: بارك الله فيك وبالتي أنجبتك! امكثي قليلا.

أجبته مربكة: عليّ الذّهاب. أمّي أوصتني ألّا أتأخّر.

حاول أن يسدّ عليّ الطّريق. صرخت: وصلت أختي.

عاوده وجهه الوقور.

وقال: أنا المسؤول عن هذا المكان وعن النذور. كأنّما أحدهم يسرق النذور، هل صادفته؟ أين سيفرّ من النبيّ والله؟

- بل أين سيفرّ منك؟ قلت في نفسي.

وسألته بسذاجة تعمّدتها:

- ماذا تفعلون بالنذور؟

تمتم بمهابة مفتعلة:

- أفعل ما يأمرني به الله ونبيّه. ويا نيألك يا فاعل الخير. أحيانا يزورني النبيّ في أحلامي ويملي عليّ أمنياته. لا بدّ أنه سيصف لي ذاك اللصّ اللعين.

- ولو كان مسكينا فقيرا؟

كان يحدّق بثديي المنتصبين دون أن يبالي بسؤالي... تمتمت: أختي تناديني. رميت علبة الكبريت، احتضنت كيس كتبي جيّدا وعدوت أتدحرج بين نبات البلان والقندول. لم أشأ أن أسلك الطريق القادومية التي لا بدّ سيأخذها هو؛ خوفا منه.

هل أنا لصّة فعلاً؟ وهل كنت لصّة لمّا أخذت الحلوى من خزانة أبي وأنا طفلة في الخّامسة من عمري؟

هل سرقتنا لما نحتاجه ولما لا يحتاجه الآخرون هي فعل سرقة آثم وحقيقي؟

ولماذا جان فالجان في بؤساء فيكتور هوغو كان لصّا نبيلا، وقد آوى وساعد كوزيت ومساكين آخرين؟

هل يحقّ لبعضهم أن يمتلك حقولا تتساقط ثمارها أرضا وتتعفّن وتهترئ ويُمنع على الجائع الفقير تذوّق إحداها؟

نحن في مجتمع يحكمه لصوص كبار، ويبجّل اللصوص اللصوص ويحمي اللصوص اللصوص...

حتى قبر النبيّ ذاك، يسرقه أحد وجهاء البلدة ممن يدعون الفضيلة ويلاحقون كلّ نساء "القبيلة". لاحقا عرفت أنّه لا يكتفي بأخذ النّذور، بل يؤجّر الأراضي الزّراعية حولها ويدّعي أنه يوزّعها على الفقراء. هو يزداد وجاهة وغنى، والفقراء يزدادون فقرا وقهرا وعددا.

ربما، أنا الآن أفعل كما نفعل عادة ودوما، نحاول أن نسوّغ أفعالنا وأن نبرّرها. رغم هذا لن أقول كما قال روسو في اعترافاته أنّ فعلتي تلك تؤرّقني حتّى الآن. هو آذى ماريون الخادمة البريئة والتي طردت من عملها بسبب فعلته، وقد جعلها في عيونهم لصّة، بدل أن يعترف بأنّه هو من سرق الشّال وأهداه لها... نعم المعيار الأساسي في الفعل الأخلاقي هو الأذى... ومن يحكم ها هنا؟ ليس سهلا أن نهرب من التحليل والتأنيب! ولكنّي أمتلك عقل شيطان ربّما أو عقلا قادرا على الهرب من الأطر النمطيّة الجّاهزة الغبيّة والأسر، عقلا يسأل ويعشق ويتمرّد ويريد أن يفهم، عقلا يعرف أنّنا هنا لنحيا، ويعرف أنّنا نحيا عبر جسد علينا احترامه، ومساحة وقت علينا ألّا نهدرها.

صحيح الغاية لا تبرّر الوسيلة، لكن كلّ الوسائل مشروعة إذا كانت القصّة، قصّة حياة وموت ورسالة. ولأؤدي رسالتي كاملة غير منقوصة، بدون أن أكون لصّة، أو بدون أن أعود لصّة، عليّ أن أصبح حرّة.

لو أحبّ جسدي!

اشتدّ الصراع، ما عادت تنفع جرعات البنادول المتتالية في تخفيف حدّة الصداع والأسئلة... فقدت الكثير من أنوثتي وأحلامي، ذكرياتي ما عادت تخيفني؛ ماضيّ المثقل بالخوف والتهميش، ابنتي التي غادرت باكرا، يوميّاتي التافهة، الخالية من أيّ حدث استثنائي.

أبي مات أخيراً... حدث استثنائي، لا يتكرّر.

لم أعرف إذا بكته أمّي، أو بكت نفسها...

لمّا هاتفتني ذاك اليوم...

- أبوك مات.

رميت الهاتف، صرخت صرخة، أخرجتني من جسدي، تحوّل جسدي كلّه صرخة، لا بل أنا كلّي أصبحت صرخة...

هل كنت متعلّقة به إلى هذا الحدّ؟

أو أنّ جزعي ناجم عن أنّي أدركت من جديد، بوضوح تام وبدون مواربة أنّ الموت هو الحقيقة الوحيدة التي لا شكّ فيها.

مات أبي. آه! لماذا مات الآن...؟ لماذا نموت...؟ أريد أن أرى ابنتي، لماذا ماتت هي الأخرى حتّى قبل أن تعيش؟ كيف يموت الأطفال؟ كيف نكون، وفي لحظة تافهة، ولأسباب تافهة نرحل ولا نكون؟

نتوقّف عن أيّ فعل عندما نموت إلّا فعل الموت عينه. هل ننسى موتانا؟ هل نُنسى؟

ذاك الجرو الوحيد المنسيّ على ناصية الشّارع، مات وهو يرتعش بردا وجوعا ووحدة... كذلك أبي...

حمدا، أنّه في آخر أيّامه، تخلّص ممّا أثقل روحه، من ذاك الهاجس في أن يكون رجلا "كاملا"، فظا، خائفا، حانقا، وقاسيا. كلّ تلك الصفات التي قتلت روحه في شبابه وفي ما بعدها، تبدّدت في كهولته؛ فقد كان لطيفا جدّا عاشقا للحياة؛ عاد طفلا، أنانيا بشكل جميل، محبّا، حنونا، خائفا على أمّي وعلينا.

تجمّع الناس حول جسده الذي أصبح فجأة جثة...

صرخت حنينا الى جسدي وخوفا عليه، جسد زوجي، جسد ابنتي، جسد هذا العالم؛ كلّنا سنغادر وأجسادنا للتوّ وسريعا...!

كنت أسيرة لعوالمي الداخلية، كعادتي، وكان إحساسي بالحزن والفقد شديدا. رغم هذا، أشعر أنّي قادرة على الخروج من عالم الأجساد المتهالكة هذا...

لماذا نحن هنا في هذا العالم؟ ببساطة لنرى ما يجب أن نراه. عليّ أن أكفّ عن إغماض عينيّ خوفا، وعليّ أن أجعل هذا العالم حولي أجمل! أمضي وفي عينيّ صور جميلة... عليّ أن أخفّف القبح في هذا العالم، وهل هنالك أقبح من الخوف والكره؟

عدت إلى البيت، وجدت زوجي كعادته يشاهد الأخبار، يرى العالم من الخارج. كان هاربا من ذاته أبدا، وكنت دائمة النبش في ذاتي أبدا، مشغوفة بالدّاخل حدّ التطرّف. حزني لا ينفكّ يتعاظم؛ بيننا موت من نوع آخر. ما الفرق بيننا وبين الأموات؟ يرون ما لا نرى، ويدركون ما لا ندرك، عوالم منفصلة أبدا. بيني وبينه موت فعلي... وحيدة جدا، وحيدة أبدا.

لن يراني حتما، ونحن نحتاج من يرانا وحسب. دخلت الحمّام، حاولت إزاحة عطر الموت وأبي عن جسدي. لا أنفك أفكّر. علي أن أفعل لأكون في هذا العالم. أنا لا أفعل شيئا، أنا ميتة... أرعبتني الفكرة، وجدتني أصرخ في الحمّام بطريقة هستيرية بأعلى صوت، كأنّي أؤكد لنفسي وللعالم، أنّي حية،

لم أمت، أنا هنا، وجسدي لم تنته مدّة صلاحيته. صرخت وصرخت أكثر مما يتحمّل جسدي، وظليت أفعل حتّى أغمي عليّ...

لا أعرف ماذا حصل، رأيت وجه ابنتي الرّقيق وظهر زوجي. العالم دوما يدير لي ظهره، وكذلك هو... لا ينفع الصّراخ ولا الاحتجاج ولا الحزن ولا البكاء لأثبت أنّي حية. لأكون عليّ ألّا أخشى الهواء الطّلق، عليّ أن أخرج من سجني.

وقرّرت أن أخرج... وأن أخرج كلّ ما في أعماقي. لو أكتب! لو أحبّ جسدي! لو أقف أمام المرآة، دون أن أخشى ملامحي، عليّ أن أرى هذا العالم بكلّ ما فيه من قبح وجمال؛ عليّ أن أخطئ وأن أعيش...

الصّراط المستقيم حلم غبيٌّ غير متاح في هذا العالم، نحن من سيرورة وصيرورة، قوانين العلم ليست صراطا مستقيما، العلم غبيّ رغم ذكائه... الحياة في مكان آخر أبعد من دوافع، واحتياجات...

"تضيق العبارة فتتسع الرؤيا..."

البطل في رواية نجيب محفوظ "الشحّات" كان يبحث عن المعنى، عن النور، خرج من جسده ليرى الطّريق فتاه... هنا على الأرض نرى أبعد من الجسد عبرالجسد! لن أغادر جسدي؛ لن أخرج من الحياة... الحياة تستحق أن نكونها، لا أن نخرج منها... والمعادلة الصّحيحة، هي أنّ الحياة تكمن خارج المعادلات...

هذا ما كتبه لي عمرمنذ سنوات... هو في داخلي رغم السنوات، أردّد بعض العبارات التي كتبها لي، في لحظات صدقي مع ذاتي. لم يمت رغم الصّمت والمسافة... لا أحد يدخل أرواحنا ويموت حقا وأبدا! أبي لم يمت، كذلك عمر.

وجدته، لا بل بحثت عنه في الفيسبوك: اسمه، بدون صورة، عمر يكره الصّور، ها هي كلماته عوالمه... مثلي كان شغوفا بالدّاخل.

أرسلت له رسالة كما فعلت أوّل ما تعارفنا، وبدأ الكلام ولم ينته، لم أنم ولم ينم، وأخذ يحدّثني في ما كنت قد نسيته أو تناسيته.

أسماء روايات وكتاب وزوربا، وآلام فرتر، عوالم، قرّرت في وقت مضى، أنّها من أوهام، وأنّ الفشلة يقرأون ويكتبون، وأنّ الأذكياء يعيشون، يتلذّذون... الكتابة ثرثرة، "والثرثرة هي أفيون المضطهَدين الجبناء" حاولت أن أقنع نفسي وأن أصدّق أنّنا مجرّد جسد واحتياجات ودوافع... وأن عليّ أن أمارس الحبّ، وعليّ أن أنجب وآكل، و... و... ولم يرضني كلّ هذا!

أخذت أصغي إليه وكأنّي أليس، ودخلت عجائبه...

شعرت بطمأنينة وسكينة، وغفوت كطفلة، أمّها تمسّد شعرها على وقع حكاية الشّاطر حسن الذي ينتصر للخير أبدا.

أردت البقاء هناك قيد اللاصعود واللا هبوط...

لكن عينيّ زوجي الغاضبتين، وصراخه هبطا بي... لا بل رأيتني أهوي...

الآن أنا لا أخشى الموت، بل أخشى فوات الحياة.

شربل

كأنّي أسمع روحه تناديني في كلّ مكان، أنا أسمعه وهو يطلب منّي بصوته المنهك الذي يصارع الموت؛ يطلب أن يشعر أنّ أحدا ما في هذا العالم لن يتخلّى عنه.

- شمس كلّميني دوما. أريد أن أسمع صوتك. أحتاج أن أسمعه لأكون بخير.

في آخر اتصال، وهو الاتصال الوحيد المطوّل بيننا، كأنّما كان يحاول أن يوثّق وجوده في ذاكرة ما. قال لي:

"كنت ثالث إخوتي. لا أذكر إذا أمّي أحبّتني أو نسيتني بين تراب الحقل وبين أترابي وفي فناء الكنيسة. أذكر جيّدا طريق المدرسة التي لم أحبّ كلّ المدرّسين فيها. الحياة فيّ تسأل، تعربد وتعشق والمعلمون يطلبون منّي أن أصغي لأخبار التتار والمغول ولبنان الكبير الذي لم يكن يوما كبيرا! في الكنيسة يطلبون منّي أن أصمت وأصلّي. لم أفعل! في أعماقي أجد العالم كاذبا، سخيفا. كنت في السّادسة عشرة يوم نادتني إحدى الأخوات في الدّير الذي يقع على التلّة المواجهة لبيتنا. سألتني أن أتبعها؛ فعلت وكان ثالثنا ذاك الشيطان الذي يفترض أنّه يخشى دخول الكنائس وجلابيب الأخوات! لم أفهم ماذا حصل أو فهمته جيّدا. حصل سريعا، سريعا جدا. ارتمت بجسدها فوق جسدي؛ وبدأت أحاسيسي الجنسية تطرد أفكاري وتساؤلاتي. عرفت حينها أنّ الأخوات لا يكرهنّ الشياطين والرجال، ولا يكرهنني رغم أنّي متمرّد على كلّ القوانين الوضعية والإلهية.

كانت النّكسة وبعدها الحرب الأهلية في لبنان، وبعدها الإجتياح الإسرائيلي. عندما كنت طفلا، كنت أعشق وادي قنوبين؛ وأحار في أمر

النسّاك، أغبطهم. لا أنسى صوت يسوع صارخا في البرّية: "دعوا الأولاد يأتون إليّ، ولا تمنعوهم، لأن لمثل هؤلاء الله."

أنا لم اعد صغيرا باكرا جدّا. منذ كبرت هجرني المسيح وسكنني العالم، وسكنني الحذر والخوف. لا مكان للصّادقين في هذا العالم الخسيس.

حملت التّرس والرّمح وحملت مكري ودهائي؛ وأخذت أبني مملكتي في هذا العالم! اعتقدتني عشقتها؛ تزوّجتها وأنجبت منها وبنيت لها بيتا. حملتها في عقلي وفوق ذراعيّ وأدخلتها السّرير وقلبي؛ وأدخلتني جسدها ولم تدخلني يوما قلبها!

الحكاية عاديّة يا شمس: جسد ومال وسلطة وأشياء وأشياء...

بدأ سريعا وباكرا جدّا جسدي يخونني؛ مرّة بعد مرّة فشلت في أن أكون" رجلا حقّا"؛ ووجدت وطني كذلك عاجزاً عن أن يكون وطنا حقّا! لم أفكّر بالأسباب! رميت نفسي في حضن أميركا والماريجوانا. حصلت على الجنسية عبرمسابقة تقوم على عامل الحظ. أنا نفسي لم أصدّق كيف حصل! أصبحت مواطنا من العالم الأوّل. زاد تعلّقي بالأشياء، التي تقدّسها زوجتي. أردتها أن تحبّني.

غازلت كلّ النساء حتّى أستعيد ثقتي برجولتي، التي غالبا ما كان يهزمها دفق دمي الضعيف.

أخفيت شعوري بالخزي والهزيمة وحاولت أن أشكّكها بنفسها وبجاذبيتها: تارة أمتعض من ثدييها المترهّلين، أو أشير إلى بطنها البارز؛ كأنّي أقول لها: أنت فقدت بريق أنوثتك! كان صعبا عليّ أن أقول لها أو حتّى لنفسي، أنّ قضيبي يعاندني؛ كان متعبا دائما، نائما دائما. رغم هذا كنت متغطرساً دائما، حتّى كان ذاك اليوم الذي وجدتني فيه في لحظة وقبل أن أدخل السّيارة، عاجزا عن التقاط أنفاسي.

في المشفى، فتحت عينيّ. ورأيتها والجزع في عينيها:

- شربل ستكون بخير يا حبيبي.

وخرجْتُ ولكنّي لم أكن بخير؛ عضلات قلبي هرمت باكرا؛ ودمي يسير ببطء في عروقي. قال الطبيب: عليك ألّا تبذل أيّ مجهود مرهق لتكون بخير.

وعرفت زوجتي، أنّها كانت وما زالت الجميلة؛ وأنّ قلبي وقضيبي هرما باكرا.

عشقَتْهُ، عشقَتْ صديقي وطلبَتِ الطّلاق. كان لها ما أرادت؛ فنحن نحيا في العالم الأوّل حيث محظور علينا التّلاعب بحقوق النساء. ها أنا هنا وحدي، رجل حيّ في عقلي ومشاعري، جائع ابدا، أنا وروحي. عندي كلّ شيء يا شمس؛ البيت والهواتف والأشياء، وعندي كذلك الخواء القاتل! أولادي يركضون، لا بل يلهثون وراء الأشياء؛ أمّهم هناك في قلب الحياة كما تعتقد؛ وأنا هنا أنتظر اللاشيء!

كتاباتك يا شمس أيقظت الحياة في أعماقي؛ عدت طفلا مسكونا بعوالم لا أفهمها. أحيانا أستيقظ فزعا، ويد المسيح تهزّني! كلميني دوما؛ حتّى لا أموت وحيدا ياشمس."

كلّنا نخاف كلّنا؛ كلّنا نحاكم كلّنا... وكلّنا يتعالى على كلّنا.

قال لي:

"حدّثيني يا شمس، وأكثري الحديث..." وقبل أن أردّ عليه، سمعت شهقات روحه وهي تفلت منه أبدا!

كيف نغادر هكذا سريعا؟ روحه المتعبة تحت رمشي، في عينيّ! ضحكته المهلّلة ترحيبا باتصالي، وهمهمته التي تبحث أبدا عن شاطئ ويقين!

كان مقدّرا لي وعليّ أن أمنحه يقينا عابرا، حتّى تغادر روحه هذا العالم المهمّ التافه، ولترقد بسلام أبدا...

أتذكّر شربل وحكايته التي تتقاطع وحكايتي في محطّات عدّة. رغم أنّي في المستشفى، وغير قادرة على خرق سكون جسدي، لا أشعر أنّ حكايتي انتهت! ها أنا وحدي جدّا! من يسمع هسيس روحي؟ تتعب أيدينا فنفلت أيدي من نحبّ؛ تتعب أرواحنا فتنشد السّلام. أنا متعبة حقّا، متعبة من التحليل، والحفر والبحث والذكريات! لو يسمح لي هذا العالم بأناسه، بأناسي، أن أبتسم بسكينة، لو أنسى اللّغة واللّوم والإنتظار. لو يأخذ أحدهم يدي الباردة ها هنا من على هذا السّرير، لأغادر أسئلتي، ولأرقد بسلام.

العالم ينتظر منّي شيئا ما لا أعرفه. كنت في حياة شربل قطرة ماء في أوان العطش. (كانت هذه آخر كلماته إليّ، مرفقة بكلمة أخرى، ليتني كنت في زمن آخر لأمنحك الحياة التي تستحقين يا شمس).

تنتظرني حياة ما، رؤيا ما.... عليّ أن أنهض قبل انقضاء الوقت لأشهق حياتي دفعة واحدة وبدون غصّة!

لن تحبّ المرأة رجلا، تخافه، أو يخافها؛ لا يبيت الخوف مع الحبّ!

اكتشف أنّي أخونه.

وجدْتُ الباب الرئيسي للمنزل مقفلا، الوقت متأخّر جدّا وأنا وحدي مع مشاعر إثم وخوف! تماما كتلك التي شعرت بها في منزل أهلي في الفترة التي كنت أتعرّف فيها على زوجي محمد سعيد.

كنا نخرج معاً غالبا، خفية وخلسة؛ أتسلّل من شبّاك الحمّام إلى السّطح وأعبر من سطحنا إلى سطح الجيران. كان الدخول إلى المنزل يربكني أكثر من الخروج، غالباً ما أجد أمّي بانتظاري، أمام الباب الرئيسي، آخذ طريقي السرّي ذاك وأتسلّل إلى سريري بسرعة وأتصنّع النّوم العميق. تقضي أمّي معظم ليلها خارجا بانتظاري، حتّى يصبح قلقها أكبر من أن تحمله وحدها، توقظ أبي شاكية جنوني وعدم قدرتها على ضبط سلوكي؛ يدخل أبي غرفتي غاضبا منفوش الشعر بعينين منتفختين حمراوين ليجدني أشبه بجثة هامدة في سريري! تختلط الأمور على أمّي وتميل إلى تصديق أنّها عميت عن رؤيتي في السّرير، تصدّق هذا، رغم أنّ ابن الجيران أكدّ لها أنّه لمحني خارجة منذ ساعات. نحن دوما أميل أن نصدّق ما يريحنا، لا يشغلنا هاجس الحقيقة، كما نزعم أوندّعي.

كان الوقت متأخّراَ جدّا، الثالثة صباحا؛ منذ مدّة غير قصيرة، أصبح نومي متقطّعا. صحيح أنّي دوما، كنت قلقة، أقضي معظم الليل في غرفة المكتبة، أو في المطبخ، أحضّر أطباق حلوى وخبزا؛ لكنّي منذ فقدت ابنتي، فقدت الرّغبة بأشياء كثيرة، منها تحضير الحلوى. أستيقظ، أقرأ أو أحادث

عمر في ما يقرأه، وفي ما يكتبه؛ أصغي إليه بلذّة ودهشة. لم أفقه ذاك اليوم غضبه الشديد، عندما سخرت من الأساطير وساويتها بالتخاريف!

كنّا نتحدّث عن حكاية يونس وأسميتها أسطورة وأردفت أنّ كلّ هذه الحكايات هي مجرّد تهويمات لا علاقة لها بالواقع. كنت أسخر من الإيمان اليقينيّ بكلّ صوره، ولا أمارس حقيقة قيمة احترام فكر الآخر ولا يخطر لي إمكانية تفكيكه، أقف عند الحدث عينه؛ يشغلني هاجس الصّح والخطأ وثنائية العالم، والحقيقة العلمية اليقينية الإستعلائية... أغاظت طريقة تفكيري هذه عمر، بحكم تكوينه الصّوفي، ونعتها بالسّطحية، وبسبب تعبه الشديد من يوم عمل طويل وكي لا يؤذيني بغضبه كما قال، استأذن، أقفل الهاتف وتركني وحدي. خرجت إلى الحديقة؛ أخذت أسترجع بعض أحاديثي مع عمر حول الطّقوس الدينية التي كنت أسخر منها، كخلع الحذاء مثلاً عند دخول الجامع.

قلت له:

- هذا أراه إهانة للإنسان وإلزاما مذلّا له وقمعا لحريته.

- لم لا ترينه تحريرا له من عبء اللباس، ودعوة لأن يتخلّص مما يرهقه؟

حكى لي حكاية مقولة الله لموسى: "اخلع نعليك أنت في الوادي المقدّس"... أي أنّك في راحة وأمان تامّين مطلقين. راقني هذا التأويل، وبدا لي منطقيا... وجدتني أرى العالم والحقيقة بطريقة جديدة؛ فعلاقتنا بهذا العالم علاقة تأويلات وتفسيرات ولغة فعلا.

لن نكون يوما حقيقيين، مفهوم الحقيقة فضفاض نسبيّ، نحن لسنا كائنات من حقيقة وقوانين وحسب. وعينا بحدّ ذاته خروج على أيّ قانون!

بدأت أشعر أنّ عمر ليس مجرّد مشروع حبيب قديم، أو صديق جديد في حياتي؛ جاء في هذا الوقت بالذّات لأرى العالم كما لم أره من قبل،

لأتصالح مع نفسي، مع ماضيّ، ومع الله. كنت غارقة في تأمّلاتي وأنا أحاول أن أفتح باب المدخل عبثا! هو مقفل بإحكام! "لن أطرق الباب وأوقظهم."

جلست على العشب في الحديقة، برد الصباح اخترق قميص نومي الخفيف الشفّاف. فجأة شعرت بالخوف كأنّي آثمة! الواقع أنا خارج المنزل وطوال الليل تقريبا؛ من سيصدّق أنّي أثرثر أو أتأمّل؛ ومن الذي أقفل الباب؟ هل هو ابني الصّغير آدم؟ لكنّه كان ينادينى... وقبل أن أسترسل في تساؤلاتي، فُتح الباب وزوجي يقف خلفه بثيابه كاملة وبيده سيجارة يدخنّها بعصبية شديدة. منظره وغضبه ملآني خوفا، امتقع وجهي وارتعد جسدي؛ انتبهت أنّي أخشاه كثيرا.

- أين كنت أيتها الزوج المصون المحترمة؟

قالها بسخرية وغضب شديدين وهو ينظر إلى ثوب النوم الذي أرتدي والذي يكشف أكثر مما يستر.

تلعثمت، ومرّت في خاطري هواجسه المحتّمة؛ هوذا المنطق، السّياق السّائد والمحتمل! وامتلأت شعورا بالذّنب والخوف كأنّي فعلا أخونه، مما جعله يستأسد ويصرخ قائلا:

- أنا أراقبك منذ مدّة؛ ها هي الحقيقة أخيرا اتضحت. أين هو؟ اليوم ينتهي كلّ هذا؛ لن تكون لي زوجة خائنة بعد اليوم.

لم أدافع عن نفسي؛ دخلت البيت بصمت، ذنبي إن كان هذا ذنبا أنّي كنت أحادث عمر هاتفيا. أمّا هذا السناريو الذي تخيّله وذكره لا يشبهني! العالم حولنا يضع لنا إطارا ويرانا داخله، صعب أن نفقه ما لم نعتده! أتذكّر يوم كنت أخرج باكرا جدّا في الطّريق البرّي آخر الضّيعة لأمارس رياضة العدو، أنّ المرأة التي تسكن في منزل مواجه للطّريق هناك؛ قالت لأمّي ولجاراتها أنّي يوميا وكلّ ليلة أخرج مع شاب، وأمضي ليلي معه؛ وأعود مع طلوع الشّمس (هي كانت تراني وأنا عائدة ولا تراني وأنا ذاهبة

فجرا، ولأنّه من غير المعتاد أن تخرج الفتيات لممارسة الرياضة؛ والفتاة لا تخرج وحدها إلا لمقابلة فتى ما). أذكر أنّ زوجي سألني عن هذا لمّا تعارفنا. قال:

أهل الضيعة يقولون عنك كذا...

ضحكت حينها طويلا وحكيت له عن الريجيم الصّارم الذي اتبعته والرّياضة الصّباحية التي كنت أحرص على القيام بها قبل ذهابي إلى العمل؛ زعم أنه صدّقني وابتسم ابتسامة صفراء.

كرّت أمام عينيّ أكاذيبي الكثيرة معه التي باتت أسلوب حياة اعتمدته لأتحاشى الصّراخ والمشاكل، لا يصدّق إلّا ما هو سائد ومتداول وعاديّ؛ طفرات سلوكي البسيطة غير المألوفة تربكه، وتثير في رأسه تساؤلات عدّة، كما حصل معي ذاك اليوم، يوم الخيانة المفترض.

لربما هذا الحدث يوم حصل أخافني، أو أرعبني، لكنّي بعدها عرفت أنّه حرّرني، حرّرني من زوجي ومن الكذب ومن الخوف؛ حتّى الموت الذي آلمني شديدا، عقدت مصالحة معه! لكن رغم هذا، أنا الآن لا أريد أن أموت!

الفصل الثالث

أحتاج أن أشعر أنّي حيّة!

في بيتي الكبير، جلست على حاشية الكنبة، رجلاي تصعدان وتهبطان بهستيريا؛ وعيناي لا تلتقطان لا الأشكال ولا الأضواء؛ يغشاهما فزع شديد. هذا الوجه الحزين يخذلني دوما. نسيتني طويلا، لماذا يراني أو يعرفني زوجي؟ مرّت في رأسي انتظارات عُمْر.

كنت دوما أنتظر شيئا ما لا يحصل، حياتي راكدة أبدا! قالت ماغي فرح أنّ برج القوس سيتعرّض هذا العام إلى تغييرات جذرية في حياته الأسرية. مضحك هذا فعلا، يعني هل عليّ أن أصدّق الأبراج؟ أكاد لا أصدّق، كأنّي أشهد أحداث حياة امرأة أخرى، لا تشبهني، ولا أعرفها.

قال: "انتهى ما كان بيننا يا شمس، هذه ورقة الطّلاق."

أخذتها ببرود، مع أنّ قلبي ينبض بشدّة. الدّمع كاد يخونني؛ لكنّي ابتسمت. أنا رخيصة كورقة؛ حياتنا معا رخيصة كورقة. ولكن لربّما هذا ما أريده أنا. نعم أردت دوما أن أكون حرّة.

من أين أخرج؟ لا أشعر إلّا أنّي أمّ وحسب. وعيي مسحور... مشاعري متداخلة؛ ما الذي انتهى؟ وما الذي سيبدأ؟

كنت في ذاك الوقت أرى عمر صديقا لروحي وحسب. ما كنت أتخيّله رفيق جسد ووقت وحياة...

عليّ أن أنتظر أيضا... ماذا؟ لا أعرف. الغُصّة في جوفي وتنهيدات كثيرة. يدي تخشى يديه فعلا. نجاة تردّد: "عيش معايا"... أنا وأنت، والحلم على حافة الفرح، على حافة الحرّية.

أخذت أثرثر مع عمر دون توقّف؛ قلت له أشياء كثيرة، إلّا ما يشغلني حقّا، ما يخيفني حقّا." الثرثرة خوف مقنّع... الثرثرة جنس مقنّع"

- أنا جائعة أو أريد أن أبكي، هلاّ تأكل معي؟

"الشره رغبة بالآخر مُحبَطة" كانت تعبرني تلك الأفكار دون أن أقولها. هل أنا أرغب به حقّا؟

عدت إلى أمس كان فيه محمّد سعيد زوجي؛ وكنت أحمل في أحشائي طفلتي الأولى.

قلت له وقتها برقّة متناهية:

- هلاّ تحبّني؟

كان يقبّلني؛ ورأسي لا يهدأ.

وبعد يا شمس؟ لهاث، وغبار كثيف، ولا يراني ولا أراه! أشياء كثيرة حولنا أراها؛ تشغلني تلك الزّهرية وتلك الأريكة.

وفكّرت "هوس اقتناء الأشياء، محاولة لردم الفراغ المتعاظم أبدا".

-هل تحبّني؟ سألت زوجي.

لم يجبني، قبّلني وحسب. صدى الفراغ أكبر من قبلاته وأكبر وأكبر... أكبر من بطني المنتفخ! وتضيع قبلاته وتضيع ركلات طفلي المنتظر!

الموسيقى الرقيقة تملؤني حزنا، الماضي كما الحاضر؛ الغد، الغد هل سيكون تكرارا للأمس؟

يكتب عمر:

- أنا أحبّك يا شمس.

أردته لو يصرخها ملء السماء، وملء دماغي، وملء غرفتي، وملء الفراغ الذي يأكل قلبي.

كتب عمر مرات ومرات: أحبّك، أنا أحبّك، نعم أحبّك. لماذا لم تقولي لي أنّك أصبحت حرّة قبل الآن؟

- هل أنا قلتها فعلاً الآن؟

- شمس هل أنت بخير؟

- هل تحبّني؟؟

أريد استعادة عقلي وجسدي.

هل التحليل والبحث عمّا وراء السّلوك وعن معناه ينفع؟ هل علم النفس برمّته ينفع؟

لِمَ الخوف؟ سأموت بحادث سيّارة عبثي ربّما، بجرعة سمّ مقصودة ربّما... أو كهلة متمسّكة ببقايا الحياة فيها... لا بأس! قهقهت بمرارة وأنا أتمتم: لماذا الانتظار؟ المضحك المبكي أنّي دوما أشكو الوحدة! من منّا ليس وحيدا؟

أكذب لو قلت أنّي ما عدت أخشى الشّعور بالوحدة؛ وأكذب أيضا لو قلت أنّي أنتظر من زوجي تغييرا ما. لا يعنيه أن يرى ما أرى ولا يعنيه كذلك أن يحاورني في ما يراه. يعشق الراحة والسّلام. بالنّسبة له، الكلام متعب، الشّوق متعب، والتحليل لا طائل منه.

- القصّة يا شمس أنّك تعشقين القصص والحكايات والثرثرة، وأنا متعب.

قال وسكت.

انتظرت أن يقول: تعالي أحبّك! أن يعتذر عن شتائم الصّباح، أن يشرح لي أسباب لامبالاته الدائمة بما يشغلني، أن يقول شيئا ما، أن يفعل شيئا ما وألّا يتركني وحدي.

ربّما أنا فعلا مخطئة؛ ثرثارة في الحبّ كمراهقة!

جسدي متخشّب، وكذلك مشاعري. أحتاج أن أشعر أنّي حيّة.

قلت له:

- هلّا تصغي إليّ؟ أنا أحتاج أن أشعرأنّك تحبّني وأنّي أحبّك لأمارس الحبّ معك. أحتاج أن أسمعها بوضوح أو بمواربة عبر لمسة، كلمة لطيفة،

اهتمام بما أفعل، كلمة شكر وإعجاب... أحتاج ألّا أشعر أنّ ما بيننا هو مجرّد نزق جسد.

- أنت زوجتي، ولو لا تعجبينني، ولو لا أحبّك، لماذا تزوّجتك؟ تتوقّفين دوما عند تفاصيل صبيانية تافهة...! أنا أستمتع بك ومعك.

قال هذا، واستلقى على السّرير، أدار ظهره، وغفا للتوّ!

الرّجال يستمتعون بسهولة...! مع مومس، مع أيديهم ومع صورة...! هل علينا نحن النّساء أن نتخلّص من فكرة أنّ الجنس مرتبط بالحبّ وبالشّخصية ككل؟ هل علينا أن نصدّق أنّ القصّة هي جسد متوتّر واسترخاء؟ هل وعيي مسكون بالتابوهات؟

الحقيقة أنا لا أخشى جسدي؛ ولكنّي أخشى أن أصدّق أنّنا مجرّد هورمونات وجسد... من سأكون غدا؟ أو ماذا سأكون؟ كومة لحم مترهّلة عفنة!

لماذا لا يصغي إليّ؟

هو يحبّني بعد أن يمارس الحبّ معي، وأنا أحتاج أن أحبّه وأن أشعر أنّه يحبّني لأستطيع ممارسة الحب معه! لو نتحاور، لو لا يصمت، لو يهتمّ، لو لا أبكي وحدي، لو لا أحلّل وحدي، لو قال أيّ شيء، بدل ذاك الصّمت الثقيل...

هو متعب من كلّ شيء ومنّي ومن العالم ومن الحياة؛ يقول.

وأنا رغم كلّ شيء، عاشقة للحياة، ولممارسة الحبّ. ليته يفقه هذا، ليته لا يملّ بسرعة منّي ومن غنجي، ومن عقلي.

القصة ليست معقّدة وصعبة... ولكنّها تبدو فعلا صعبة!

كان الوقت ليلا؛ طفلتي البّكر تبكي كثيرا؛ وهو كعادته ينام آمنا مطمئنا أو هاربا... هل سمع صراخها؟

ملامح وجهه الغاضبة المنكمشة وشت بهذا.

دخلت غرفة الجلوس، وضعت طفلتي على الأريكة بعد أن حاولت بشتّى الطرق تهدئتها، دون جدوى. لم تنفع الهدهدة ولا محاولتي إرضاعها ولا تغيير حفاظتها، ولا مشاعري المستجدية البائسة...

وضعتها على الأريكة مستسلمة. لم أستطع أن أفعل شيئا لها أو لنفسي، عجزْتُ حتّى عن البكاء! حاولت أن أتذكّرني، أتذكّر تلك المرأة التي تعشق الرّقص والموسيقى والمعرفة والابتسام. كنت أمّا خائفة وحزينة فحسب. جسدي المهمل منذ أنجبتها، أو منذ حملتها في أحشائي، نسيته. نسيت الفساتين والعطر وشعري، بسبب المسؤوليات الماديّة والمعنوية التي أثقلت كاهلي. "عليّ قبل كلّ شيء أن أؤمّن لها احتياجاتها، أريدها في حالة اكتفاء ورضى." لكنّها لم تكن كذلك! تبكي كثيرا، رغم أنّها شغلي الشّاغل!

ربّما هي مثلي تعشق الموسيقى والابتسام... وهذا غير متوفّر في بيتنا منذ زمن لا أتذكّره.

- عليّ أن أستعيد وجهي وروحي وابتسامتي، لأجل ابنتي.

بحثت عن أغنية أحبّها.

مع الموسيقى التي تصدح كنت أبكي بشدّة، أبكي الفرح الذي غادرني وأحلامي وأضحك من كوني أحلّل كثيرا، أضحك وأتكوّم قربها. عليّ أن أنسى أسئلتي التافهة؛ لكنّها تقفز إلى سطح وعيي دون استئذان. نعم أنا أحبّها كثيرا، ونعم أنا بائسة كثيرا.

وجدتني أغوص في عوالم السؤال والمعنى... ربّما مشكلتي هي ذاتي. وحتّى لا أدينه، أو أدين العالم أو حتّى الظروف؛ أخذت أنبش في داخلي؛ وطفا ذاك السؤال:

- لماذا أنجبتها وأنا لا أعرف كيف أحتفظ بابتسامة واثقة على وجهي؟

لم أجد بيتا لي ولا وجها ولا دورا منذ كنت! لست زوجة صالحة؛ لم أكن ابنة بارّة صالحة؛ لا أتقن الكذب الثقافي؛ ذاكرتي خرقاء، لم تحفظ حتّى كلمات العزاء والتهنئة التقليدية... فاهي يفغر ودماغي يخرج منّي في معظم المواقف الاجتماعية. لا أعرف من أنا! لست امرأة عادية! لكنّي عادية وجدّا... و... و...

فجأة وجدته أمامي غاضبا، حانقا! أخذ يتأفّف من صوت الموسيقى العالي، ومن عدم إحساسي به وبتعبه...

حاولت أن أتجاوز هذياني، وتمتمت لنفسي:

عليّ أن أفهمه وأتفهمّه؛ وأردفت بغنج أبله:

- أنت تقليدي.

- أنت مجنونة، تافهة! قالها وصفق الباب بقوّة.

سكتت، أو صرخت. لست أدري، هل قلت هذا له؟ أم قلته في نفسي؟

"أنا عاشقة للحياة، وأنت على هامش الحياة، شبح، صورة لهم، لما يريدونه منك... كلماتك حفظتها وتردّدها، حتى دورك كأب... تكرار مقيت لما يملونه عليك."

لم أفهم لماذا كان غضبه شديدا... هل لأنّه يريدني أنثى شبقة مغمضة العينين بلا أسئلة؟

"لو احتضن رأسي بدل أن ينهرني"!

أردته صديقا لعقلي المتعب بالشّعور بالذّنب، وبالبحث عن معنى وهوية... أعرف أنّي لن أنجح يوما في أن أكون امرأة عاديّة.

المعيار الذي يضعونه، يؤكد أنّي ناقصة، فاشلة، غير جميلة، غير صالحة للحياة.

أردت أن أهرب من نفسي ومن تحليلاتي.

- "قل لي أنت جميلة وأنا أحبّك وسينتهي الأمر"

قلت هذا لنفسي، ولم أجرؤ أن أقوله له. وفكرت أنّ لغته تختلف عن لغتي، كما قرأت في كتاب "الرّجال يأتون من المرّيخ والنّساء من الزّهرة"

هو غاضب لأنّي بعيدة عن جسده منذ وقت لا أتذكّره! ربّما حاولت تأديبه، ليستسلم ويفعل أو يقول ما أحبّه وما أريده. لن يقولها على طريقتي. ربّما نهرني لأنّه ما عاد قادرا على هجراني لسريره وجسده! وبدل أن أبكي، عاندت مشاعري. وحاولت أن أتجاوز كلّ هذا. طفلتي غفت، وجسده يرتعش رغبة، أو غضبا. وجسدي يحتاج طمأنينة أكاد أنساها. لا أعرف ماذا حصل ولماذا شعرت بالتعاطف معه وقلت له بغتة:

"أنا جا هزة لأن أكون امرأتك وحسب... خذني بعيدا عن أنا"!

نظر الي باستغراب؛ لم يستطع فهم قفزتي المفاجئة. وهذا أعاده بعيدا، غريبا وربّما كريها؛ وأعادني إلى مشاعر الغضب، والبكاء.

- أنت لم تحبّني يوما، تقارنني بأمّك وبكل النّساء. لست من النّساء، أوأنّك لست الرجل الذي أتوق أن أعود وأختبىء بين ضلوعه.

نعم انت محقّ. أنا مجنونة وتافهة، وأنت عاقل جدّا؛ فكيف على كتفك أنام؟

أحتاج أن أشعر أنّي أنثى!

انطلقنا صباحا باكرا في الباص أنا وزملائي. المحطّة الأولى قلعة الشقيف. جلس نايف أستاذ الأدب العربي، بجانبي، هو يهتم بكلّ تفاصيله؛ شعره، هندامه، عطره، وكذلك رقّته النافذة! حدّثني عن رسالة الماجستير التي يعدّها؛ أصغيت بتيه وخوف ولذّة! شعرت أنّي بدون أحمال وأثقال وقلق؛ كأنّ الأمومة والزواج مسؤوليات وهلع وحسب! تفاقم إحساسي بالخوف، لأنّ زوجي ترك مسؤولية تربية الأولاد كاملة عليّ.

تحدّث نايف عن رواية" الحياة في مكان آخر" لكونديرا، عن علاقة البطل المرضية بأمّه؛ تذكّرت أنّي متوتّرة دوما، عصبية معظم الأحيان، خائفة كلّ الوقت، حتّى أنّي أكاد أنام مفتوحة العينين! مع صوته الدافئ الهادئ، طمأنينة غريبة تسلّلتني، وددت لو ألقي رأسي في مكان ما بعيدا عنّي! لكني سرعان ما استعدت صلابتي، وارتديت وجهي المعتاد. لم أكن صديقة فعلية أو حتى صورية لأحد من زملائي أو زميلاتي. "ما كان عليّ أن آتي معهم، عجزت عن أن أتحدّث في أيّ شيء، كما كنّ يفعلن: يثرثرن في الطّعام، في شراء الحاجيات من السّوق، في مهنة الأستاذ المرهقة، في غباء هذا الجيل، في كلّ الأشياء التي لا تستحق أن نتحدّث فيها كما ارتأيت؛ تحولّت إلى إنسانة عملية؛ أتعلّم، وأصغي إلى الجديد "المفيد": لا وقت للترّهات... أو بالأحرى لا وقت للحياة!

مشيت صامتة، ساهمة؛ زلّت قدمي وكدت أفقد توازني بين ممرّات القلعة غير المستوية. المكان دافئ رغم أنّه من أحجار وصخور؛ هو مُثقل بعبق حيوات! كأنّي سمعت أصوات أناس تألموا! كافحوا، حاربوا، حلموا، نسيوا وماتوا. الموت آت! لماذا أنا لست سعيدة؟ لماذا أنتظر الغد دوما؟ ابتسمت بأسى؛ أنا أنتظر الموت! أشعر أنّي وحيدة جدّا وفعلا! أحتاج

سكينة ما؛ أحتاج أن أسند قلبي وروحي بأنفاس أولادي... كان قرار المشاركة في هذه الرحلة خاطئا!

زلّت قدمي مرّة أخرى؛ تدارك هذا نايف بأن أسند جسدي مسرعا. كنت قد لاحظت نظراته التي تترصّدني والتي ذكّرتني أنّي أنثى مرغوبة، وذكّرتني كذلك بأنّي أمّ وزوجة! أفلت منّي إحساسي في تلك اللحظة: جسدي ارتعد، شعرت أنّي هشّة جدّا كإمرأة وحيدة مهملة منذ زمن بعيد لا تتذكّرأوّله! شعوري المكثّف بالرّغبة بأن أتحدّث مع زميلي ذاك، وبأن أكون معه وقربه، كان جارفا. أجلسني على صخرة، وعاد يتحدّث، كنت لا أصغي إلّا إلى رقّته، وإلى ذاك الشعور الذي خلتني نسيته تماما؛ ذاك الشّعور بلذّة الصّمت والابتسام. شعرت أنّي أصبحت مشعّة! جلسنا معا وحدنا أحسّ به جسدي بكثافة... لماذا أنا لسْتُ محصّنة؟ لماذا أكاد أتحوّل أنثى هذا الرجل وأنثى كلّ الرجال إلّا أنثى زوجي؟

كنت واقفة فوق أنف العالم، وكان الوقت واقفا في أنفاسي على شكل غصّة.

ابتسم صديقي؛ وتحدّث عن الحياة التي تعبرنا وتبقى. أحبّ أن أصغي؛ الحكايات تجعلني هادئة رقيقة، طفلة وامرأة كاملة في الوقت عينه!

"قريبا جدا لن يعود بوسعك فعل شيء، لن يعود بوسعنا فعل شيء": قال.

"الخيانة فعل سهل، يبدو!" فكّرت.

سرعان ما عاودني الشّعور بالخمول، وبعدم الرّغبة بالتفكير بأيّ شيء.

وددت لو أردّد:

"احتضني! قريبا جدّا لن يعود بوسعي فعل هذا، وفعل أيّ شيء آخر ممتع!" كيف نسيت أنّي أخطو مسرعة إلى نقطة اللاعودة؟

لست امرأة خؤون، لكنّي امرأة!

ذهب العالم وبقيت مع نفسي؛ أو أنّه بقي جنبي. كأنّ جسد المرأة عبء! كأنّها فعلا من ضلع الرجل! كأنّها تتوق الى العود الأبدي إلى ذاك

المكان الآمن... جلّ ما تحتاجه المرأة من الرّجل الإحساس بالأمان. ليس سهلاً هذا! ابتسمت بحزن. لقد نسيت أحلامي كلّها منذ وقت طويل.

لطالما ردّدْتُ:

"أريد مجنونا يقفز معي من الشّرفة ومن الحزن ومن السّكينة ومن الرتابة ومن المنطق ومن الصّراط المستقيم ومن الجنة... إلى الحياة"!

ها هنا مسؤوليات حياة، بدون حياة! لقد تزوّجت رجلا عاقلا، عاقلا جدّا!

لماذا أفكر بكلّ هذا الآن، هل أبحث عن مبرّرات لفعل خيانة ما؟

كأنّي هرمت فجأة. هل هذه هي حياتي؟ أنا أعشق أولادي؛ ألا يكفيني هذا؟

البارحة قلت لزوجي، أو لنفسي لأنّي على يقين أنه لا يفهم لغتي:

"كذبنا كثيرا... كذبنا عمرا كاملا... فلنصدْق في لحظة الاحتضار، علّ هذا يكون تعويضا عن حياة كاملة سقطت بين الغفلات"!

- لا أفهمك.

ولا أنا أفهم نفسي! لكنّي أعرف أنّ حياتي راكدة؛ والحياة كالمياه إذا ركدت فسدت وتعفّنت.

لم تكن مشكلتي في الشّعور بانعدام الرّغبة مع زوجي فحسب، بل بحاجتي الدّائمة ألّا أكون نفسي معه لتحاشي الصّدام والصّراخ. أصبح العالم بيننا احتياجات وضرورات.

جسدي أصبح ثقيلا وفي حالة خدر شبه كاملة! أخذني نايف من خاصرتي، دنا بجسده من جسدي، لامس صدره صدري، دخل بيننا ذاك الشّعور اللّذيذ، اختفاء العالم في لحظة سحر!

تدفّق اللعاب في فمي؛ ابتلعته وشعرت بزخّات خوف وهلع عندما نادتني بغتة زميلة.

أريد ألّا أفكّر، أن أكون تافهة أو أن أكون خفيفة، أنا وجسدي ذاك.

كأنّي أخشى فقدان اليقين، بماذا أفكّر أنا؟ شعرت أنّي محبطة حدّ اختفاء الصّوت.

"أسوأ ما تفعله هو أن تسلّم دفّة حياتك لآخر" وجدتني أتمتم.

أين هي حياتي؟ وما علاقتي بكلّ هذه الأمكنة وأناسها، وبهذا الرّجل الذي يراني امرأة وحسب؟

شعرت أنّي أضعف من أن أقول له لا، جسدي كلّه يرتعش، تحوّلت في لحظة إلى أخرى ترضى بأيّ نوع من الطمأنينة، طمأنينة جسد عابرة! أغمضت عينيّ، حضر المشهد كاملاً: نايف يقبّلني بتلذّذ شديد وأنا أفعل الشيء عينه!

تمتمت وأنا أشعر بحمّى شديدة في رأسي وفي جسدي: لا لست هذه! لا أريد أن أكون هذه!

وصرخت، استيقظ زوجي قائلا:

- شمس... أنت بخير؟ تحلمين؟

ناقلة سندويتشات

الخلافات اليوميّة على التّافه والمهمّ، التهمت الفرح في منزلنا.

جلس أمام التلفاز يتحدّث عن مشاكل العالم والوطن التي لا تنتهي.

"لم لا تحدّثني عنّا، عن خوفنا وعن هروبنا وعن جبننا؟" قلت في نفسي ولنفسي. لكن لا جدوى من أن أقوله له.

الكلام بيننا سريعا سريعا بات صراخا وشجارا ونقطة بدون سطر. لا حكاية ولا أحاديث، تفاصيل تافهة تأكل أيّامنا وأرواحنا؛ حتى العيد أصبح طقسا كريها فارغا.

استيقظ وارتدى ثيابه.

- أنا أنتظرك، لنزور الأهل والأقارب.

- لا تنتظرني. لا أرغب بارتداء ثيابي أو حتّى تسريح شعري! لا أرغب بشيء.

- كما تحبّين. قالها بلامبالاة وخرج وحده.

وأنا مكثت ووحدتي وخيبتي التي كنت أوثّقها بمنشورات على الفيسبوك، والتي يتلقفّها الهاربون أمثالي من المواجهة. كثرا كانوا! خالد كان أحدهم.

قال:

أنت كاتبة استثنائية يا شمس، وأنثى استثنائية! انتظرتك أبدا... أريد أن أعرفك أكثر. ممكن؟ أريدك قبل الغد والموت والترهّل، أريد أن أتزوجّك. (لم يكن يعرف عن تفاصيل حياتي الشّخصية شيئا بتاتا!)

كان الحزن قد تسلّلني، فوجدتني أتمتم بصوت خافت حزين وهازئ:

-أنا ناقلة سندويتشات.

-ما قصدك؟

كنت لا أسمعه وإذا بي أسترسل:

- الوقت وملامحي وهذه الجدران... قبرٌ غداً وانتظارٌ الآن. ما الفرق؟

جدرانٌ ومتاريس، قيمٌ وجِلْد، وتفاصيل... نعم. وجهي يترهّل وكذلك أحلامي. نعم. أنا تافهة ولكنّي لا أصدّق أسطورة القفص الذهبي وحكاية "الثبات والنبات والصبيان والبنات"...

- أنت تهربين.

وجدتني في لحظة أعود الى الواقع. (كنت على يقين أنّي أهرب)

ردّدت وكأنّني أبرّر لنفسي استسلامي وخنوعي:

- هاتِ. ماذا أستطيع أنا؟ هل أنزع من ذاكرة خلاياي آلام ولاداتي المتعسّرة؟ هل أنسى أطفالي على رصيف الملل وأعدو إلى اللّاضفة والشّغف؟ هنا سرير ومرآة، وهنا أنا ساكنةٌ أبداً؛ أحدثّك وتحدثّني، وأحدّث ذاك ويحدّثني. لست وحدي... كلّنا غرقى والمدى مقفل! المدى من وحدة وعيون مُطْفأة. الحبّ وحده ممتع والشيخوخة تأكل كلّ امتداد خارج الذّات. أريد أن أعشق الآن بتعداد خيباتي في الحبّ، بتعداد مشاعري المتكاثرة أبداً، أنّي غير محبوبة وغير مرغوب بي.

أنت تكتب جميلاً وتقف منتصباً، وتعيش مسرحية هزلية أو مأساة. لا فرق! لك زوجة بخمار وأولاد؛ ولي زوج هلاميٌّ وأولاد يلعبون طوال الوقت، يكبرون في المكان عينه ولا ينفكّون يلعبون وينتظرون سندويتشا أحملها وحبّة فاكهة وحلوى وحبّذا لو أحمل لبانا!

أقدامي تراخت... عمراً كاملاً! من البيت الهلاميّ إلى الدّائرة... انتبه! كلُّ ما أقوله ربّما متخيّل؛ لكن ذاك الفتى ذا السحنة البيضاء البيضاء، أرضعته مرارا. كان يتكوّر في كفّي ومحور عالمه ثديٌّ يلتهمه بنهم وسكينة... يريده عقلي؛ تحنّ إليه أكتافي المتهدّلة؛ قلبي يبتسم له. صدّق، هو لا يراني! يحدّق في اللّعبة، وينتظر ساندويتشا يلتهمه بعيدا عن

حضني، وكفّي. ها أنا أهرول جيئة وذهابا أبداً، أحمل له نفسي، يحدّق في عينيّ، يأخذ الحلوى ويعدو بعيدا...

سأبقى أنا وحدي، بأقدام منتفخة متراخية، ورأس من حلم وخيبة وعشق!

- من أنت؟ كأنّك بقايا أنثى جميلة! لا أفهم أحيانا وجهك الذي يتحوّل رخاميا، كما كلامك. أين أنت؟

- أنا حيث كلّنا نعبر... حيث لا شيء يستحق... ليتني هذه اللبنانيّة المغرورة الأنيقة التي تعتقد! اِخلع عنّي أسمالي وسترى جسداً حزيناً بعلامات وجع متناثرة، سترى ثديين خجولين وتفاصيل امرأة عجوز طفلة، مومس بكر، أنثى...

- أناديك أنا.

- تعرفني أنت؟

- أخبارك؟

- هل تعتقد أنّي من أخبار وأحداث وفرح وحزن وسمر ولعب وتهليل؟ لا شيء يستحق. كلّنا عابرون...

- شكراً للإيذاء، للإيضاح، شكراً لأنّك متعجرفة!

- لماذا نصرّ على إيذاء بعضنا البعض وإدانة بعضنا البعض؟ ها أنا. هل أنت تسمعني؟ هل أنت تراني؟

- كيف أنت والكورونا؟

- الكورونا لا تزعجني. ستعبر... لا شيء يدوم.

المشكلة أنّي لست في أيّ مكان! لستُ كما تتخيّلني ولستُ كما تريدني، ولست كما أنا. لمَ الكلّ يعشق القتل؟

- أنا واضح بسيط؛ أنت من يعقّد الأمور ويهوّلها.

- تريدني بصورة عينها...

- تتخيّلين نفسك ملاكاً؟

- لا أتخيّل شيئا، ليتني أصدّق شيئا! ليتني أنتهي كسدهارتا... لكنّي أسيرة جدران ومنزل ودائرة و... سندويتشات!

- لسْتِ إلهة أنت؛ أنت إنسانٌ لاغير.

- ليتني شيء ما! ربّما أكون حمقاء، تافهة، غبيّة، جبانة، رعديدة عنيدة... عدّد؛ صنّف؛ لا يهمّ! لست مغرورة؛ أنا مجرّد بائسة على ناصية.

- الآن أنا حرٌ؛ تتزوجينني؟

- لسْتَ حرّاً أبدا. لم لا تسألني؛ تحبينني؟

- آتي وأتزوجّك؟

- لا أريد زواجا أو عقداً أو ثوباً أو قلادة... أو مجرّد وسادة! أريد أن أكون هلامية لأتوافق مع ما أنا عليه؛ لست شيئا أنا...

أنا ناقلةُ سندويتشات حزينة وعظيمة!

حكاية نجوى

أرتاح من الملل والحزن؛ أقف على الشّرفة؛ أرقب طائريّ الدّوري؛ أغمض عينيّ وأفتحهما. لا بدّ أنّ هنالك حياة ما خارج الحلم!

رنّ الهاتف وضحكة صديقتي معه. هذه الضّحكة تذكّرني أنّ الفرح مُعد، كما الحزن.

وراء الضّحكة الرنّانة، يصدح صوت صديقتي:

- شمس... نجوى عندي وتريد التعرّف عليك؛ أنت بالبيت؟

- أنتظركما.

جلست نجوى قبالتي؛ تريد أن تتكلّم، تفرغ جوفها وخوفها. وبالطّبع أبديت إعجابي برشاقتها وأناقتها، وتعمّدت الكذب بشأن تنبؤي بعمرها؛ حذفت حوالي عشر سنوات:

- تبدين خمسينية أو حتى أربعينية!

ابتسمت، والسّيجارة في فمها وقالت مزهوّة:

- عمري ٦٣سنة! هل يراني عجوزا؟ أُنظري يا شمس كم هو جذّاب رزين! أليس هو كذلك؟ هو جاد رصين، محترم ولا يلعب.

فتحت الهاتف، وظهرت صورة رجل خمسيني أسمر، يميل جسده إلى الامتلاء.

- كيف تعرّفت عليه؟

- عبر الفيسبوك. طلب صداقتي؛ وعبر المسنجر، أرسل رسائل عدّة؛ تجاهلتها مرّات ومرّات. لمّا وافقت، طار فرحا. (كانت صورها على الفيسبوك تظهرها أربعينية في ذروة اكتمالها خلافا للواقع).

هو يحبّني أليس كذلك؟

الرّسائل باردة لا تقول شيئا؛ صور ورود وقلوب وتحايا، ممّا هو شائع ومتداول.

قبل أن أجيبها، أكملت:

- يكلّمني صباحا ومساء ولكن... لا أريد أن أخفي عنك شيئا، أحيانا يختفي تماما أسبوعا كاملا أو أكثر!

- اِحكي لي عنك.

- حكايتي أطول من أن أسردها في جلسة وحديث. أنا لا أتذكّر إلّا أنّي كنت في مدرسة داخلية؛ بالكاد أرى أهلي. في أحد الأيّام زارتني أمّي؛ إثر عودتها من السّفر؛ (تعيش مع أبي في أفريقيا، يعودون إلى لبنان إبّان عطلة الصيف) سألتني:

- تريدين مغادرة المدرسة أبدا؟

كنت تعلّمت أنّه في الحياة ليس عليّ أن أفعل ما أرغب أو ما أتمنّى؛ عليّ أن أفعل ما يجب وحسب. أربكني السّؤال.

- ستأخذينني أعيش معك وأشقائي؟

أجابتني:

- لا... سترتدين فستانا أبيض جميلا بورود، تمتلكين حلى ذهبية، وتسافرين. ستعيشين في البلد ذاته الذي أعيش فيه لكن مع زوجك.

وكان زوجي؛ وكان زواجا لا روح فيه. كنت أفعل ما يجب عليّ أن أفعله وحسب. كان غير حذق في العمل وفي... أشياء كثيرة اخرى! كانت مصاريفنا تفوق دخلنا؛ اشتريت ماكينة خياطة، وبدأت أخيط أثوابا لجاراتي (تعلّمت هذا في المدرسة الدّاخلية). ولأنّي ماهرة، دقيقة، متفانية في عملي، بدأت جاراتي يأتين وصديقاتهن، وصديقات صديقاتهن. بدأت أشتري بعض الملابس الجّاهزة وأبيعها لهن. ودون أن أشعر بالزّمن، أو بالتّعب أصبحت صاحبة سلسلة محلّات ملابس مشهورة! ونسيت نفسي وجسدي كلّيا.

يشغلني كيف أسافر وكيف أنجز صفقات. كنت نادرا ما أرى زوجي أو أحادثه؛ ينام قبل أن أعود من عملي؛ ونادرا ما مارست الحبّ معه.

ذاك اليوم، يوم فعلت، أصابني مرض جنسي. قال الطبيب أنّه لا ينتقل إلّا بالعدوى، وأنّه عليّ ان أتحاشى الإتصال الجنسي تماما. وتساءلت من أين أصيب به زوجي ونقله إليّ؟ كنت وقتها في الأربعين من عمري.

عدت يوما باكرا على غير عادتي، لأجده عاريا مع "العبدة"(تقصد العاملة ذات البشرة السوداء)، وعرفت أنّه هكذا كان يقضي وقته وأنا غائبة. انغمست أكثر وأكثر في العمل. لم نتطلّق لأنّي لم أرد أن أؤذي أولادي ولم أرد كذلك أن أشوّه اسمي وصورتي بلقب" امرأة مطلّقة".

مرّ الوقت وغادر أولادي كلّهم المنزل بعد أن تزوّجوا. بقيت وحدي مع المال والأشياء التي أكدّسها. شعرت أنّ عمري مضى، وأنّي لم أكن سعيدة ليوم واحد.

وبعد أن تعرّفت على أحمد عبر الفيسبوك، تعرّفت على الفرح! قرّرت أن أطلب الطّلاق. ساعدني ابني في هذا؛ وأصبحت مطلّقة وفرحة وغير خائفة من هذا اللقب! ووجدتني جائعة لكلّ شيء يا شمس! أريد أن أستمتع، آكل، وأمارس الحبّ بنهم!

منذ سنة وأنا أفعل هذا مع أحمد.

- عشتم معا؟

- عبر الرسائل والهاتف.

حاولت أن أخفي استغرابي ودهشتي؛ وسألتها عن التفاصيل.

قالت:

- هو يعمل في دبي، هو مهندس محترم، وعائلته تعيش في مصر، عنده فيلّلا هناك.

- هو متزوّج يعني؟

- نعم. وقد تزوّجني أنا أيضا.

- كيف هذا وأنتما لم تتقابلا؟

- عقد متعة بيني وبينه شفهي. نمارس الحبّ معا كأنّنا زوجان عاديان. أرسل له صوري، بالمايوه، ونمارس الحبّ صوتيا. أنا أستمتع معه كما لم يحصل أبدا مع زوجي، وهو كذلك. أحيانا يفتح فيديو، أرى كلّ شيء، كلّ شيء يا شمس! ما إن يراني حتى يكون انتصابه كاملا. ألا يعني هذا أنّه يحبّني؟ أنا تقريبا أدمنته. المشكلة أنّه بعدما تيقّن من هذا؛ بات يتركني أياما، أو حتّى أسابيع! ويعود؛ يعود مشتاقا، متلهّفا؛ يمارس الحبّ معي بشغف وشبق؛ ويعود ويختفي! وأنا بتّ أعجز عن أن أرفضه، لا أستطيع أن أقول له: لا...

هل يحبّني فعلا يا شمس؟

قلت له: "سآتي عندك دبي. رفض؛ حفاظا على صورته في العمل كما ادّعى. لا يريد أن يلتقيني. هل يحبّني يا شمس؟

رجع إلى مصر من أسبوع ومن وقتها لم يعد يكلّمني! أكاد أجنّ! هل يحبّني يا شمس؟

أوجعني حالها جدّا. لهفتها على الحياة التي فرّطت فيها عمرا بأكمله جهلا، خوفا، جبنا! إقبالها النّهم على ممارسة الجنس وعرض جسدها على أيّ طالب بعد أن أصبح يستحقّ الحنو والاحتواء والحبّ الكامل؛ وليس الجنس المفرّغ من مشاعر الحبّ والاحترام.

لسنا من عقل! نحن من عشق وحياة أبدا. الحياة إن خبت، تعود لتتوهّج، لتثأر من الموات.

أنا لا أحبّك... أنا أحبّ تاريخي فيك...

أنبش الأمس بحثا عمّا يؤكّد أهليتي للحياة وللمعنى:

ماذا أعشق أنا؟

أعشق إيكاروس وأعشق أن أمارس الحبّ مع زوج شريك، شريك. أعشق أن أحزن ويأخذ يدي، أن نخبر معا طعاما لذيذا، وأن أشهق بجنون أمام زهرة، لحن، عطر، كتاب، فيلم، فستان أو نظرة... بجنون واع قادر على حمل وتحمّل، وتجاوز خيبات هذا العالم!

في أحد أيام الخريف الدافئة، دعاني محمّد سعيد إلى وليمة حلم! كان حبيبي المفترض. رميت كتبي وأقلامي وقلقي، ارتديت ثوبا أسود يظهر انحناءات جسدي؛ وتركت شعري حرّا. كان لقائي الأوّل معه وحدنا، وسيرا على الأقدام... مشينا معا في أسواق صيدا القديمة؛ لم أسمع أصوات البّاعة! لم أر الحشد حولي! يشغلني شعور أوحد: الأمان. أخذ يدي، شعرت بها ثقيلة كما كلّ أعضاء جسدي. أريد بشدّة أن أرتاح منها ومن جسدي، من عبئه، نهمه، تعبه، حزنه، من كمّ الحياة الفائض الذي يسكنه ويسكنني! أغمضت عينيّ؛ أصبحت من حلم! وضع يده بوجل حول خصري؛ فقرّرت ببساطة، أنّي سأتزوجّه.

نسيت حلمي ومشروعي: (أن أكون حرّة) ووعدت نفسي بالدفء وببعض سعادة: يكفيني منزل أقوم فيه بكلّ وظائف المرأة التقليدية بتقدير وإيمان وحبّ، بطريقة غير تقليدية. قرّرت أن أعنى وحدي بالتفاصيل، كلّ التفاصيل التي تجعل حياتنا من وعي ورخاء وطمأنينة وفرح...

غرقت في التفاصيل، حدّ عدم القدرة على التنفّس!

ما عدت أنا ولا أصبحت أخرى... وكان هو آخر، أو كان نفسه ببساطة... كان هو كما هو، لا كما أردته أو تخيّلته، ووجدتني رغما عني

غير راضية: أكره رائحة جسدي ورائحة جسده؛ أكره رائحة فمي وفمه، وعاجزة عن التعامل مع أولادي بفرح.

كأنّ اللّعنة أبدا تتوقّف بمحاذاتي! لم تنته مع موت ابنتي الصغرى ومع ذكرياتي المرتبكة، ها هي التعاسة تمتدّ وتهيمن وتنتشر.

قالت ابنتي وهي ترتعش:

- أمّي... أنا لا أحبّ كريم ولا أريد البقاء معه...

- ولماذا اليوم وحسب تذكّرت هذا؟ هل نسيت أنّه حبيبك وبطلك؟

ابتسمت ابتسامة صفراء قائلة:

- لم أعد تلك الطفلة يا أمّي التي تعشق الباربي والأحلام والأفلام... لا أحبّه ولا أحبّ الرّجال كافة... كلّهم أغبياء، أنانيون ويسخرون من الورود والكلام والأحلام... يريدني إحداهن، يهمّه فقط أن أكون دوما أجملهن!

هو لا يراني! أنا بائسة جدا! قالت هذا وأجهشت بالبكاء.

- نسي عيد ميلادي، ما معنى هذا؟ لا أريد ان أكون تعيسة مثلك. أريد أن ينتهي كلّ هذا.

ابنتي تعشق الهدايا والورود بشكل مبالغ به؛ تريد أن تنتقم لي من كلّ الرجال الذين عبروا حياتي؛ أرادت أن تنصفني: أبي لم يمنحني شيئا وكذلك أبوها؛ حريصة ألّا تكون حياتها كحياتي! كنت أبالغ في الاهتمام بالمناسبات علّي أخترع فرحا خارجيا، اهتماما ملموسا، يكذّب إحساسي الأبدي أنّي هامش، وأنّي لا شيء. لاشكّ أنّي نقلت لها هواجسي تلك، أوعلّمتها هذا.

كان صعبا أن أجد رجلا يملأ أعماقي، حاولت أن أجد رجلا يملأ عينيّ وعقلي بحسب علم النفس، فشلت نظريات علم النفس وفشلت أنا وها هي ابنتي كذلك تدخل دائرة الفشل.

لن يملأنا أحد! لن يملأنا آخر! أنا يا صغيرتي ضللت الطّريق!

كبرت كثيرا يا ابنتي وكبر حزنك وحزني. لا مفرّ... مابني على باطل، باطل؛ الحبّ ليس هذا؛ الحياة ليست هذه.

دخلت غرفتي... وأنا أفكّر بحياتي وحياة ابنتي وحياة ابني. أنا أسير في طريق مسدود معه؛ المشكلة أنّه لا يشعر بالمشكلة!

عرفت هذا لمّا كان عمر ابنتي مجرّد شهور، كذّبت نفسي. وهاهي تلك الرسالة في دفتري الذي أدوّن فيه خواطري، والتي قرأها بلامبالاة وشبه سخرية، قرأها ورماها أرضا قائلا:

- متى ستنضجين؟

اعتقدتني ناضجة جدّا، وواعية كذلك؛ كنت أريده ان يحتضنني ويكذّب ما كتبت، كنت مستعدة لأن أكذّب نفسي وأصدّقه.

أزمتنا أنّنا نريد تبريرا وتفسيرا في عالم غير مبرّر، غير مفسّر! قلبي لا ينفكّ يطلب منّي أن أكون مغمضة العينين؛ الحب يموت مع عينين مفتوحتين أبدا.

لماذا كتبت له تلك الرسالة؟ هل هي فعلا دعوة للحبّ، أو أنّها رسالة تشاوف وهزيمة؟ لسنا آلهة؛ ولا نستطيع أن نحدث التغيير الذي نزعم في حياة الآخرين!

"في تلك الأمسية حينما كنّا معا وكنت تطوّقني بحنانك، وترجو لو جنّك الأزرق يخفي العالم ويبقيني أمامك! في تلك الأمسية لمحت فيك آخر، لمحت ذاك الذي ارتدى أسمالهم وأسماءهم وطقوسهم ولغتهم وقيمهم، وأطنانا من معادنهم التي يدّعون أنّها ثمينه. لمحت حرصك حدّ البخل، جبنك حدّ الذّل.

لمحت نهدي تحت أناملك المرتعشة... ولمحتني فريسة سهلة غبية لا تعدو حتّى أمام الصيّاد!

لمحت الآلة الحاسبة تحت إبطك، ولمحتك تزهو بي أمام أمّك التي تخلّت عنك.

لمحت ولمحت ورأيت ورأيت... وراهنت عَلى أنّ الله فيّ أقوى وأكبر وقرّرت أن أعلن الجهاد الأكبر! وكان ما كان. وما زلت أعتقد رغم الفتور ورغم الموات أنّ رهاني لن يخسر. وأنّه سيأتي يوم أعلن فيه عليك الحبّ كاملا وسيروقك... وبه ستثمل دون أن تحتاج أن تسكر!

وستخلع أسمالهم وأكاذيبهم وتأتيني مطمئنا، عاريا مبتسما راضيا مرضيا."

كانت هذه الرسالة ليكون حوار؛ قرأها وانتهى الحوار بيننا. كأنّما اختار أن يهزمني، يهزم قدرتي على الحبّ!

استمرّت الحرب باردة، والوجوم والسّكات. أنا مع حزن يأكلني؛. وهو مع لامبالاة لا حدّ لها. وبدأت الحكاية أو انتهت. انتهى كلّ حادث وحديث ومدهش بيننا...

هل أنا قاتلة؟

كم نتلوّث... لنكون!

أنا لا أكرهه البتّة، لكنّي لا أحبّ الموت. هل أحبّني يوما؟ هل أحبّ نفسه؟ هذه الخطط التي نتعلّمها لنحمي الأنا والتي بعضها يكون هجوميا؛ تحوّل كلاً منّا على التوالي إلى فريسة وصياد وإلى قاض وجلّاد. أخجل أن أهاجمه، وعيي يمنعني. اختبأت دوما منه، حتى ما عدت أجدني؛ أكذب، وأداري، وأواري! أرى فرحه ساذجا، نمطيّا؛ فهو لا يعشق المعرفة أو الدّهشة أو القلق مثلي! عاديّ، نعم عاديّ مطمئن أكثر من شارل بوفاري! لا أعرف إن كنت أنا من سبّب القطيعة بيننا بشكل لاواع. لكن لم يكن الخلاف أساسه الاختلاف على بعض التفاصيل وحسب. معه كنت ميتة، أكثر ممّا يُحتمل أن أكون عليه الآن في سريري هذا. تركني للأولاد، كأنّي أمّ وحسب، أو كأنّه أرادني الأمّ التي لم تكنها أمّه! يعوّل على قوّة الحياة في داخلي؛ ينتظر وينتظر حتى أطأطئ أنا ولو كان هو المخطئ. أنا التي تؤمن بالآن وحسب، عليّ أن أتعلّم قتله! أقتل حاضري وأقتلني معه وأقتله، أقتل زوجي وأقتل فرحي.

حتّى لا أشعر بالإذلال، (ولا أعرف إذا كان هذا يعود للطبيعة الأنثوية، أو للممارسات الاجتماعية، أو أنّها سمة تخصّني وحدي) كنت أنتظرأن يتودّد إليّ، أن يحدّثني، أن يحاول فهمي، يظهر لي أخطائي التي يراها، كما يراها، يقبّل رأسي، يدي؛ يدغدغ غرور الأنثى؛ يبادر أقلّه في الكلام؛ لكنّه لم يفعل! كلّ شيء حولي يضغطني: شكواه الدائمة منّي ومن الوضع الاقتصادي السّياسي الميؤوس منه، المسؤوليات الملقاة على عاتقي كصانعة للحياة والفرح والطعام والنّظام داخل منزلي وحدي. رأيتني أشهد موتها،

(موت الأنثى في أعماقي) يوما بعد يوم، أصلب حنوّها وملامحها وصوتها وكلّ التفاصيل الأخرى الحيّة فيها. الجملة الدرامية الكليشه انطبقت عليّ:"نسيت أنّي أنثى". أصبحت جسدا بوظائف، وروحا بحزن غائر. كلّ لهفتي تمظهرت في أمومتي؛ فأصبحت أمّا سيئة كأمّي! أمّا غير مطمئنة؛ أقرأ كثيرا عن كيفية تربية أولادي، عن كيفية ترتيب منزلي، وعن كيفية إعداد الطعام والحلوى والولائم، وعن كيفية فهم الآخر، وعن وعن... وأفعل، أعدّ الطعام، أنزّه الأولاد، أقيم الولائم والحفلات! أحرص على إغراقهم بكلّ ما هو جميل، عداي، لم أكن جميلة!

تنتابني نوبات بكاء وعزلة واكتئاب؛ أنهض من حزني زاعمة أنّي القصّة كلّها! لم يتخيّل يوما ولم أتخيّل أنا كذلك أنّ هذه العاشقة لبيتها وأولادها ستصرخ:

- كفى، لا أريد كلّ هذا... أعجز عن الاستمرار!

هذا هو ببساطة قانون الحياة؛ لا شيء يتلاشى. ذاك القانون الذي يتجلّى في "من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره." لا شي عبثي، أو مجاني. لما نُظلَم كثيرا (بمشاركة، وقبول جبانين منّا)، لا بدّ أن نثور أخيرا.

لا أنسى جدّي، والد أبي، لا أنسى يوم زرتهم لأكتب له رسالة لأحد أولاده المسافرين بناء على طلب منه؛ لا ولم أنس بكاءه كطفل وهو عجوز مقهور، مسجّى في سريره، وجدّتي تحمل "الشحّاطة" وتلقي بها بدون تمييز على أكتافه، يديه، وجهه وحيث يُتاح لها. كان عاجزا عن الدّفاع عن نفسه تماما. المنظر ذاك أفزعني حدّ الرعب! هالني استغلالها لعجزه وضعفه. لمّا سردت ما حدث لأمي عرفت منها أنّها تثأر لنفسها منه. فقد كان يضربها بقسوة مرارا ودوما، يخونها في شبابها، ويتزوّج ما لذّ له وما طاب. ادّخرت له غضبها المكبوت عمرا كاملا، وها هي تكيل له كما كال لها! لا أحبّ

الانتقام، ولا يغويني تعذيب الآخرين وإهانتهم! لا أريد أن أهرم مع الشّعور بالقهر. نُقْهَر فنتغطرس، ونتسلّط، وننسى أنّنا كائنات دينامية، بدأنا نطفة، وننتهي لو هرمنا! كومة يباس، ذاكرة لا تتذكّر.

الذكريات السيئة مع زوجي تتداعى أمامي. لن أهرم معه! لن أهرم أبدا! نتخيّل موت الآخرين، وننسى موتنا. ها أنا الآن ميتة أو آيلة للموت. كأنّي أرسم قدري بغباء وعمى! أحيانا أشعر أنّي مسؤولة عن موت رين، كأنّي قتلتها عمدا! حزنت يوم عرفت وهي في رحمي أنّها أنثى؛ حَزِنَ زوجي، فلم أجرؤ على الفرح بها! يوم ولادتها، شعرت بعمق أنّي فاشلة! تضاعفت آلام الولادة، عجزت حتّى عن احتضانها! الآن أفقه أنّي تورطّت، ساومت، لعبت وخسرت خسارة لا تحتمل! نستطيع أن نلعب بكلّ الأفكار والأدوار، وأن نقبل وأن نحجم وأن نتراجع؛ إلّا مع الأمومة! كنت ماكرة مع زوجي، مع أمّي ومع نفسي؛ أهتمّ، أقبل، أتردّد، أحجم! لكن مع طفل في رحمي وفي حضني وفي حصني، صعب، صعب التخلّي والعودة إلى نقطة البدء..

ننتهي بأن نعتاد كلّ شيء: المساومات والطأطأة والانحناء. هذا التكيّف الاجتماعي مقزّز وليس من الذكاء في شيء كما علّمونا. علينا أن نقول لا، في أوانها. مشكلتي خوفي!

كأنّما لا مفرّ من "يجب" و"المفروض" و"من الأفضل" و"الأولى"... ربّما هنالك "يجب" واحدة عليّ أن أعنى بها: يجب أن أحيا بكامل صدقي.

العجوز الشّاكرة

ذاك اليوم دخلت جارتنا الفضولية دارنا وهي تزمزم فمها متمتمة:

- لا... شيءٌ لا يصدّق! أنا فعلاً أكاد أكذّب عينيّ.

- ماذا حصل؟ ما الحكاية؟

- الحكاية لا تُحكى، عليك أن تري بعينيك.

- أرى ماذا؟ وأين؟ ومتى؟

- عند المساء ستعرفين كلّ شيء بنفسك، لو تحبّين أحضري طعاما معك.

- أنا لا أفهم شيئا.

- أنتظرك مساء.

ذهبت أنا وأختي؛ انتظرتنا في مدخل الحيّ المقابل؛ همست متسائلة: مدير المدرسة المحترم يفعل هذا؟!

كنا نتبعها وهي تشتمه، وتشتم هذا الزّمن.

قالت: "هنا، من هذا الباب الخلفي؛ كسرنا القفل البارحة لنتمكّن من الدّخول؛ الباب بات مفتوحا. كنا نسمع ليلا ويوميّا صوتا غريبا ضعيفا كأنين، يتسلّل من هذا المكان مع السّكون؛ خلنا أوّل الأمر أنّه صوت حيوان يحتضر، فالمكان غير مسكون كما اعتقدنا، لكن البارحة اتضحت لنا الحقيقة!"

دخلنا غرفة المدخل؛ أضاءت الجّارة شمعة أحضرتها معها؛ المكان فارغ، الغبار في كلّ مكان، كما السّكون! لا شيء فيه سوى رائحة نتنة قويّة لا تحتمل!

مشينا وراءها؛ المكان عبارة عن غرف متصلة فارغة إلّا من تلك الرائحة التي ازدادت حدّة، حدّ الاختناق.

عجزت عن أن أتخيّل ماذا سيكون في هذا المكان؛ وقبل أن أزداد حيرة، وقبل أن أعلن عن رغبتي بالخروج، سمعت صوتا ضعيفا يهمهم في العتمة. دنت الجارة التي تعرف المكان جيّدا، دنت من عجوز اختفت ملامحها؛ كومة من العظام الناتئة المختبئة تحت غطاء عدائي الملمس! عارية تماما بجلدها المتشقّق ووجهها الغارق بين كتفيها! لم أستطع أن أفتح فمي أو أنفي. كانت تقضي حاجاتها في المكان عينه؛ تأكل، تشرب، تتبرّز وتبول على نفسها وحولها. لم أفقه ما هذا الذي أراه! تمتمت الجارة: هذه أمّ المدير المبجّل! لم يكن ذاك المدير، إلّا وافدا على البلدة من عدّة سنوات. لا أحد يعرف عن أهله، أو عائلته. لكنّه سرعان ما اكتسب مكانة مرموقة في البلدة بسبب وظيفته الرسمية، كان موظّفا حكوميا في وزارة العدل، إضافة إلى كونه صاحب ومدير مدرسة خاصة في بلدتنا عينها. ما إن دنونا منها، حتى أخذت تقول كلاما غير مفهوم وصلني منه شكر ودعاء. نسيت أنفي وأنفاسي وحياتي! أحاول أن أفهم كيف يكون هذا؟ كيف يفعل آدمي بأمّه هذا؟

قوّة الحياة فيها غريبة! أكلت الساندويتش الذي قدّمته لها الجارة بنهم وشهيّة تتعارضان مع شكل جسدها الميّت تقريبا، ومع قذارة المكان! تمضغ وتشكر! لا تمتلك ترف التذمّر. الإنسان ينتهي بأن يتعوّد كلّ شيء وأيّ شيء، بشكل لا يمكن توقّعه، أو حتّى تخيّله. كم أسعدها سندويتش اللبنة!

ما الذي حمل ابنها على إخفائها هناك؟ أخفاها ببساطة لينجو من همّ العناية بها، ولتموت قبل أن تموت! كان ينعم ببحبوحة عيش، وبمال يجنيه بوسائل "قانونية ذكية": تزوير أوراق ومستندات (يسمّونه عندنا في لبنان، تسهيل معاملات وشطارة)؛ مدرسة خاصّة مجانية بأسماء طلّاب وهميين (تدفع له الوزارة تكلفة تعليمهم!)، وإفادات مغشوشة... باختصار "خدمات عامة إنسانية" بأجر! هو معذور! عليه سدّ جوع ثلاثة عشر فم

مفتوح (عدد أولاده)... وفم أمّه المفتوح أبداً طلبا للهواء قبل الماء، وجسدها المسجّى تحت القسوة والوحدة والعتمة والخراء، كلّ هذا لم يكن في الحسبان!

لا أستطيع أن أنسى ذاك المشهد الذي قوّض فكرتي النمطية عن علاقة الإبن بأمّه: الحكايات والمحفوظات والجنّة تحت أقدام الأمّهات، والكليشيهات الأخرى التي لا نفتأ نردّدها.

كيف ينام بسلام؟ وكذلك زوجته، وأولاده، كيف لا يشعر أيّ منهم بالتقصير والذنب؟ كيف ينجو من كوابيسه؟ وألف كيف وكيف وألف سؤال وسؤال وشعور بالغضب حدّ الرّغبة بفعل أيّ شيء. ولكن ماذا حصل بعدها؟ لاشيء. ماتت المرأة أخيرا وبعد عدة أشهر من رؤيتي إيّاها؛ وكانت مراسم العزاء تليق بشخصية هي من وجهاء الضّيعة وأعيانها، موظّف حكومي مهمّ ومدير مدرسة عصماء تكرّس العلم والقيم والأخلاق!

ماتت هي وأكملت حياتي أنا، بخوف وجبن ورغبة خجلى بتغيير نظم هذا العالم وآلهته ربّما! لكن في الواقع لم أفعل شيئا. لا أنفك أقطّب، وأخاف وأتذمّر. كأنّي لا أجيد الحلم! أجيد التذمّر وحسب.

الغريب أنّ تلك المرأة كانت تبتسم وتشكر! شكرتنا كثيرا وابتسمت لنا ابتسامة واسعة بفمها الأدرد لا أنساها! لم أنسَ كذلك ذاك الإبريق البلاستيكي الذي نستعمله في المراحيض، والذي كان متروكا جنبها، لتشرب منه! ورغيف الخبز المرقوق، الذي يرمى للدجاج متى فقد ليونته، يغطّي رأسها ووجهها؛ وجهها الذي غابت ملامحه، وتبقّى منه صوت، يشكر، يئن وينتظر.

لو كتبت تلك المرأة، لربّما عرفت الشّكر والرّجاء والابتسام أكثر مني! كأنّي اعتدت الحزن خوفا وتحسّبا من حزن حقيقي قاهر أكبر! أداوي خوفي من الحزن بحزن! وكأنّي أعي وأصدّق أنّ هذا العالم بكلّ فوضاه وخرابه، كلّ ما فيه محسوب بدقّة! "لا يكلّف الله نفسا إلّا وسعها!"

لماذا حضرت في ذهني تلك الحكاية الآن في سريري هذا، في حالتي هذه، وفي وضعي النّفسيّ والجسديّ هذا، بعد مرور عقدين من الزمان على حدوثها؟ عليّ أن أقرأ جيّدا، عليّ أن أسكن، وأفهم، وأصلّي! ليست تلك الصلاة التقليدية، الباردة! صلاة من نوع آخر، تمكّنني من أن أرى أنّنا دوما محظوظون في مكان ما؛ قادرون على فعل فرديّ ما. فبعيدا عن تحليلات الماركسيّين الماديّين لحركة المجتمع والتّاريخ، والمثقفين الثوريّين الذين يزعمون أنّهم يسعون لإنصاف هؤلاء المنسيين أبدا؛ بعيدا عن كلّ الجمعيات الإنسانية، ورغما عن كلّ شيء وربّما مازوشية منّي، وبعدوى من تلك العجوز الشّاكرة، أشعر بالامتنان وأشعر أنّ عليّ أن أشكر وأصلّي وأبتسم وأحيا وأفعل! أفعل كلّ ما بوسعي ليكون هذا العالم مكانا أفضل!

لا وقت للغد

كان شعوري بالذّنب يتعاظم، كلما تعاظم إحساسي بعمر، وفرحي الغامر بعشقه الخالص وغير المعلن لي.

عدت إلى المنزل باكرا على غير عادتي، وجدت زوجي مريضا جدّا، يعاني من ألم شديد في أسفل بطنه، أصرّيت أن آخذه الى أقرب مستشفى. قال الطّبيب: نحتاج أن نجري له بعض الفحوصات المخبرية، والصّور الشّعاعية. أمسكت يده بحزن وخوف شديدين؛ وقلت له: ستكون بخير، لا تقلق...

لم أستطع أن أنام طوال الليل، شعرت أنّي من أذى وخرق... غير قادرة على إسعاد أحد ولا حتّى نفسي.

هاتفني عمر، أخذت أكلّمه وكأنّي أكلّم نفسي: لا أستطيع البقاء حيث أنا، عليّ الذّهاب إلى أيّ مكان آخر.

الكثير من المشاهد التي أتذكّرها من حياتي، تبدو لأوّل وهلة من غمّ وحزن. طفولتي لم تكن وردية؛ جعت وخبرت الكثير من مظاهر الفقر والجهل، التي نتخيّلها ولا نتخيّلها؛ لكن كلّ هذا جعلني عاشقة للحياة بضراوة؛ رغم أنّي فكّرت بالانتحار مرّات ومرّات.

هل حان الوقت لأنهي هذا العمر المربَك؟

ربّما سيكون العالم أفضل بدوني: عالم عائلتي، الذي عجزت وحدي عن ضخّه بالحياة؛ وعالم عمر الواقف أبدا كما قضية وطنه فلسطين.

أقفلت الهاتف غير عابئة بما قاله عمر. قال أشياء كثيرة منها: "لا تقتليني ياشمس!"

نحن قتلة دوما وبطرق عدّة وشتّى؛ نقتل لأنّنا نخاف، نخاف على الأنا من الآخر ومن ذواتنا! نخاف الله ونخاف المجتمع ونخاف الآخرة ونخاف

الدّين ونخاف سمات كالبله والحمق والعته والصّدق ونخاف الموت ونخاف الجوع ونخاف العوز ونخاف الأمس ونخاف الفشل والغد ونخاف على أهلنا ونخاف منهم! نخاف خوفا لا متناهيا أبديا؛ دقات قلبنا من خوف ووجل.

أنا خائفة من أن أكون أنانية، وخائفة أكثر من أن أكون ضحية. هل أنا قاتلة فعلا؟

هل من غد أفضل؟ رغم أنّي أعرف أن الزمن يتكوّن من الآن وحسب، هذا الآن الهارب والعصيّ على الالتقاط؛ ما زلت في أعماقي تلك الطّفلة التي تصدّق أمّها! يتملّكني أو يحييني ذاك اليقين أنّ العالم لا بدّ يسير نحو الأفضل! "الغد آت ومعه البهجة والبهاء والابتسام"! من المؤكد أنّي حملت هذه الفكرة الساذجة من أمّي، أو من بانجلوس فولتير في روايته كانديد، إذ لم ينفك يردّد: "كلّ الأشياء تعمل من أجل الخير والأفضل". رغم هذا أمّي كانت بائسة دوما وتنتظر! حتّى تهافت جسدها ومات أبي، وأيقنت أنّ لا وقت للغد، وأنّ لا مكان لفرح آتٍ في هذا العالم "الأفضل"!

لن أنتظر غدا كغد أمّي! دخلت غرفة الحديقة وتناولت أشدّ أنواع السّموم فتكا؛ صنعت منها مزيجا، لن يفلت الموت منّي! لن أبقى ها هنا. في تلك اللحظة، لم أعد أذكر إلّا خرقي الشّديد الأبدي، وعجزي عن إسعاد الذين أحبّهم. تراءت لي ضحكة طفلتي رين التي غابت أبدا، وجه زوجي الذي يعكس آلامه، وكلمات ابنتي الكبرى: "أنا لا أرغب بشيء، لا شيء يبهجني يا أمّي. هل تفهمين هذا؟"

نعم أنا أفهم هذا، وأفهم أشياء أخرى كثيرة. أفهم كيف نكون عاشقين للحياة بعمق وقوّة، وكيف تكون الحياة مستحيلة! مستحيلة في جسد، مستحيلة في عائلة، مستحيلة في مجتمع، ومستحيلة في وطن!

وجدتني أجهش بالبكاء عاليا؛ وكأس السّم أمامي؛ حركة واحدة وينتهي كلّ هذا الخوف والضجيج!

ولكن كيف أجهز على هذا الكمّ من العشق في داخلي! أنا أحبّهم جميعا... وما زلت حيّة!

لم أشعر بالوقت؛ ساعات كثيرة مضت؛ استعدت فيها محطات عدّة من حياتي... الحياة دوما انتصرت وتنتصر!

نسيت شكّي في زوجي وتصرّفاته الغريبة مع طالباته في الجامعة؛ نسيت كلّ سلوك شائن قام به. شعرت أنّي من أفسد ويفسد العالم. أنا لا أنتحر ليحزنوا لأجلي، أو ليشعروا بالذّنب لأنّهم لم يحبّوني كما ينبغي؛ أريد أن أغيب عن هذا العالم لأنّي عاجزة أبدا عن صنع الفرح فيه! حتّى آدم، لم يكن طفلا سعيدا. ما إن حضر آدم في ذهني، وجدتني أستيقظ من نوبة الهلع والمبالغات التي دخلتها؛ وفجأة شعرت أنّي حمقاء فعلا، لأنّي فكّرت بالانتحار... لا شيء يستحق!

هل تجدني جميلة؟

- أحتاج أن أشعر بنفسي كامله رغم النّقص، غير خائفة، غير آثمة. هل تفهم ماذا يعني هذا؟

هل تذكر أنّك لمّا عرفتني قلت لي: "أنا لاأستطيع أن أعيش مع هذه ال "شمس". أردتني أنا وأردت امرأة عاديّة! أصبحت امرأة مسخ...

لم أقتلك أنا فحسب، أنت تزوّجتني بشرط أن أموت.

صامت أبدا، كأنّما لا تسمعني! لا توافقني؟ ليس ضروريا. أحتاج فقط أن تسمعني. أنا كائن حزين حتى عدم الرّغبة بأيّ شيء، بكلّ شي! تريدني ألّا أناضل؟ ألّا أقاوم، ألّا أتكلّم حتّى؟ أعجز عن هذا. أعجز عن أن أصبح إنسانا بوظائف بيولوجية واجتماعية وحسب.

- ماذا تريدين منّي؟

- أريدك أن تناضل لكي تكون سعيدا، لكي نكون كلّنا أفضل؛ لا أن تشرب كأسا وتنام ثملا، وانتهى يوم! أنا ميتة. أراك، أرى كلّ شيء، ولا أحد يراني! هل تراني؟

- ما قصّتك وكلامك الفارغ هذا؟

- قصّتي؟ ليس عندي قصّة! هذه هي قصّتي. نفسي تزعجني، جلدي، لوني، وجهي، أنفاسي، صوتي، ملامحي، ضحكي، بكائي...

هل نحن معا؟

أغمض عينيه ونام متمتما: أنت مريضة.

هو نام واستيقظ حزني؛ ذاك الحزن الذي أخشى هجماته الشّرسة؛ والذي أتحوّل أمامه كائنا مستعدّا لقبول أيّ شيء، كلّ شيء. اقتربت منه

وأنا لا أشعر إلّا أنّي أريد أن أنجو! تحوّلتُ كائنا بلا جنس، أو ملامح، أو لون؛ كائنا حزينا وحسب. وبإرباك وبخرق، حاولت أن أدعوه لممارسة الحبّ، وفي أعماقي شعور واحد أنّي مقزّزة.

كان جثّة.

لم يجدني جميلة؛ لأنّي لا أشعر البتّة بهذا. لا أعرف هل المرأة هي التي تجعل الرّجل يراها جميلة، أو أنّه هو الذي يمنحها هذا الإحساس. للحظة شعرت في أعماقي أنّي الحكاية والراوي، أنا من يستفزّ الخير أو الشرَّ عند الآخر، المحبّة أو الكره أو اللامبالاة! أنا الإله، وكلُّ ما يكون، يكون لأنّي أريده أوأتمنّاه! كنت إلها ملعونا، يحتاج المساعدة، ولا يعرف كيف يطلبها! كأنّي في أعماقي، متيقّنة أن أحدا لا يستطيع مساعدتي!

مع زوجي، كان متوقّعا أن أصل إلى هذا الطّريق المسدود. يبدأ النّهار، أدخله مع الإحساس أنّي كائن آثم، حزين. أحاول بشتّى الطرق أن أكفّر عن هذا، أعمل أيّ شيء وكلّ شيء، لعلّه يرضى، أو أسكن أنا.

يرضى عندما أتحوّل امرأة ماكرة! أدنو منه، يقبّلني ويقْبلني؛ لكنّي لا أقبْل نفسي! أراني امرأة هرمة، كبيرة؛ والكبار ماكرون... لايعرفون الحبّ.

كأنّ حياتي انتهت!

أحتاج يدا، لا تخشى يدي. أريد مرآة أرى عبرها طهري وبراءتي وقدرتي على الحبّ.

المشاهد تتتالى أمامي وأنا على ذاك السّرير عينه... لم أتوقّع أن يكون في حياتي طلاق أو موت أو عُمَر مرّة أخرى.

سألت عمر، عندما التقينا وجهاً لوجه أوّل مرّة:

- هل تجدني جميلة؟ هل أنا هي المرأة التي تريد وتحبّ؟

قال:

- أحبّك يا شمس كما طفل لا يحلّل ولا يفكّر ولا يتوقّع ولايجامل أو يتجمّل؛ أحبّك وحسب، أثق بك وأريدك. أراك كما يرى الطّفل أمّه؛ لا تشغلني تفاصيل؛ أجدك جميلة جدّا كما أنت وكيفما كنت!

نحن لا ننفكّ يا شمس، نشيّء بعضنا البعض الآخر، نرانا بمقاييس وألوان ونسب ومعايير؛ نرى ببؤبؤ وعدسة؛ وحده القلب يمنحنا فرح الرؤى.

شعرت أنّ الحياة تخترقني رائقة، نقيّة؛ وأنّي معه أمارس الحبّ بلا دنس.

- عمر، الحياة لا تعبرني. أنا ميتة وأحيا بك. عليك أن تحبّني دوما، أن تقبّلني دوما حتّى لا أموت من جديد!

- أنا فعلا أحبّك يا شمس. لكنك حيّة بدوني وقبلي؛ حيّة لأنّك تستحقين الحياة.

انسابت أغنية فيروز رقراقة في قلبي وأذني:"حبيتك بالصّيف، حبيتك بالشتي..." في ذاك المطعم الصغير الهادئ حيث كان عمر يجلس قبالتي ويحدّق في عينيّ بابتسام لذيذ. أحسست أنّ الحياة فيها من الجمالات ما يكفي ويفيض لنكون بخير جدا!

الفصل الرّابع

لماذا لا نقول لا؟

قال: خنتني بعد عمر طويل!

قلت: خنت نفسي عمرا طويلا، عمراً كاملاً. ليس ذنبك وليس ذنبي. هذه الكليشيهات، لماذا نتمسّك بها؟ يتعبك كلّ ما يصدر منّي وعنّي. ترهقك جرأتي، وتخشى صدقي وأفكاري. لا تحبّ ملامحي. بتّ أرغب لو أتخلّص من ملامحي! نسيت الابتسام وأحلامي، جسدي انفصل عنّي؛ أصبح بليدا! جسدي ذاك لا يخصّني، ولا يشبهني! لست أنا من يبتسم تلك الابتسامة المنطفئة، لست أنا من يحتفي بالّضيوف بتصنّع، وملل. لست أنا من يشارك الجّارات في النميمة. لست أنا! وليست ثيابي! وليس عقلي! أنا مستلبة كلّي. كيف ترضى بي؟ أعرف أنّك غير راضٍ؛ ما يحصل ليس قضاء وقدرا؛ هذا بيت تعيس. كلّنا تعساء وكذبة؛ ليست الحياة هذه!!

كيف يكون أولادي بخير؟ جسد منفى، بيت منفى، مجتمع منفى، وطن منفى... لماذا لا نقول لا؟

أعدو بين قلبي وبين الأبواب المقفلة، وأنت تنام كثيرا، تنام طويلا؛ تحلم بأميرة، على شكل امرأة عاديّة جدا! المشكلة، أنّك لا تريد صفة محدّدة. ليس استغناء، جبنا ربّما، عفة ربّما. هكذا كلّنا نموت! لن أكون أمي. لست "ابنة أصل" تستوعب "خفّة عقل الرّجل وتصبر وتموت معزّزة مكرّمة. النّساء لسنا هكذا، نحن نكذب، كلّنا كاذبات. أمّي كانت تجن وتقهقه وتشتم وتدعونا ليل نهار لأن نكره أبي دون أن تدري، أو وهي تدري! لا أريد أن أكره! لكني فعلت، كرهت، كرهت نفسي وحياتي وأنت!"

ابنتي والبطل

دخلت غرفتي؛ يكاد ينتهي العمر! في المرآة أنا وجسدي ووحدتي الكثيرة. من يطرق الباب؟ لا أحد. هل تجدي هذه الأشياء المكدّسة في كلّ مكان؟

- أمّي... أمّي... هل أبي بخير؟ أمّي لمَ لا تجيبينني؟

لم تنتظر ردّي. دخلت غرفتها ومعها اثنتان من لعب الباربي؛ صبيّة جميلة وزوجها البطل كما أسمته.

لماذا لا أشعر أنّي أمّ فعلا؟ منفصلة عن هذا العالم بكلّ مكوناته. هل عشت معهم؟ تلك التراتيل الشيطانية عاودتني!عندما أشعر أنّ الوجع حولي أكبر من أن أستطيع تحمّله أوالسّيطرة عليه؛ وأنّ العالم الخارجي غائب كمصدر للحياة، حتّى لا أنهار وحتّى أنجو من التفكيربالانتحار، أعدو إليه، إلى ذاك العالم وأشيائه! أختار معرضا يكتظّ بالأشياء؛ أدخله؛ أفتّش بينها عن فكرة ما، عن حلم ما، عن طمأنينة ما...

زوجي في المستشفى بين الحياة والموت إثر حادث سيّارة؛ خائفة عليه بشدّة؛ أريده بخير كما هو! لا أتحمّل فكرة فقدانه!

"ها انا بين الأشياء: تلك الزهرية وذاك الفنجال، تلك الصينية وتلك الطاولة، ذاك الشمعدان.؛ أشياء أخرى كثيرة بديلة عن دفء وأمان مفقودين! أشعر بالبرد شديدا، أشعر بالخوف كثيرا. ما زلت تلك الطفلة التوّاقة أبدا لحضن وحصن! أريد أشياء أكثر وأكثر حتى يخفت هذا الطنين! خائفة عليه؟ لا أعرف. خائفة من الوحدة؟ لا أعرف. خائفة وحسب. هل مشاعري تعني أحدا في هذا العالم؟ هل يفكّر بي؟ لم يقل شيئا عندما زرته. كان حريصا ألّا تلتقي عينايّ عينيه. تحدّث عن المال والأولاد فحسب؛ هاجسه أمان شكلي. لا بأس! أنا أحبّه بحزن، بغصّة. لا يهمّ! أنا أحبّهم رغما عن أنّهم يحبّون الأشياء. أحتاج أن أقهر هذا العالم

الذي يعشق الأشياء. أكدّس أشياء فوق أشياء! سآخذ كلّ أشياءكم! بودّي لو لا أترك لهذا العالم أشياء يشتهيها! يتكوّم حينها أمام بابي لأمنحه شيئا ما". (ربّما نتكالب على السّلطة والأشياء لنشعر أنّنا ضروريون، مرغوبون... هي مجرّد بدائل وهمية، تعويض.)

استشعرت صاحبة المحلّ هوسي الغريب بالاقتناء؛ فأخذت ترفع الأسعار بشكل خياليّ. لم أكن أنا، لم يكن وعيي! كنت خواء وخوفا. أحتاج كلّ هذه الأشياء ولا يهمّ أيّ شيء آخر! تسرقني؟ لا بأس. أخفيت ملعقة وملقطا في إحدى الطناجر التي اخترت؛ لم تحسب ثمنها؛ لم ألفت نظرها، أراحني هذا بعض الشيء؛ لست أنا المخدوعة، لست أنا المستغَلَّة، لست أنا المسروقة! لكن غبطتي لم تدم! سرعان ما استدركت الأمر، بعد أن وجدتها وحاسبتني؛ أخذت ثمنا مضاعفا! وعيي الهشّ المبعثر لم يسعفني إلّا بالصمت! نظرت إليّ فرحة بذكائها الفائق؛ لقد أمسكتني بالجرم المشهود! نظرتها كانت كفأس هوى فوق رأسي. لماذا أنا أفعل هذا؟ لماذا أنا أشتري كلّ هذا؟ أكره الأشياء وأكره عبوديتي لها، أكره وحدتي وأكره هذا العالم النّهم الجشع الذي لا تغويه إلّا الأشياء. لم يحتفي بتلك الطفلة التي لم تحسن يوما اقتناء الأشياء! سخر من ملابسها التي لا تتغيّر إلا عندما يمزّقها جسدها... حتى عُمر في ذاك الحلم المُجهَض، تلاشى قبل أن يكون!

عدت إلى البيت بغصّة، بخواء (رغم كلّ الأشياء التي اشتريت) وبمرآة أرى نفسي فيها بوضوح مرعب! أنا ميتة تتمسّك بالأشياء حتّى لا تندثر! دخلت غرفتي وبكيت طويلا: لم أنجح في أن أكون أمّا، ولم أنجح في أن أكون حرّة!

لم يكن زوجي رفيقي يوما؛ يكره مونولوجاتي المطوّلة مع ذاتي؛ يكره الكتب والمسرح والسينما... تغويه أحاديث المقهى، والتبغ والسياسة. ابنتي ومشاكلها لا تعنيه! طفلي وهواجسه، مسؤوليتي وحدي؛ السّقف وشقوقه، مهمّتي! حزني، عشقي للحياة المغتصَب، وتفاصيل أخرى كثيرة لا تعنيه. لا بأس! كيف تعبر "لا بأس" هذه وأنا عاجزة، خائفة حدّ الإرتعاد؟

حبست أنفاسي؛ وضعت المخدّة فوق وجهي؛ أنا أختنق ولا أموت! صوت سيدرا أيقظني. أنا أحبّها، وأخاف عليها. لماذا هذا البيت ينبت من ياسمينه موت؟ أستيقظ قبل الفجر، أنثر الورود والأشجار والنّرجس والزنبق حول البيت. أردت أن أبعد عنه القيظ والحزن والجرذان وثاني أوكسيد الكاربون. لكنّي لم أنجح! زوجي ليس بخير، رين غادرت إلى الأبد! لم أحتضنها قليلا أو طويلا! أُقتَل ولاأموت!

دوما أخطئ... كأنّي لا أتعلّم! أخشى التغيير، أعوّل على الزمن ومروره.

مرّ الزمن سريعا؛ كبرت سيدرا. كانت سمراء كحنطة، دافئة كمشمشة ورشيقة كأغنية؛ لكن لم تكن سعيدة.

بكت طويلا يوم منحت حبيبها قبلة في فمه. كان هذا في عيد ميلادها السادس عشر. منحته قبلة، وبكارة مشاعرها فتركها وغاب! كأنّما القهر كما الملامح يورّث! تعتقدني قويّة، قادرة على حمايتها؛ أصيبت بهلع شديد لمّا ضربني أمامها مرّة أبوها بوحشية (كانت المرّة الوحيدة التي فعل). كيف تحميها أمّها وهي عاجزة عن حماية ذاتها؟ أبوها لم يكن الحلم، لم يكن البطل. أصبح هاجسها إيجاد الفارس البطل الذي يحبّها ويحميها. ذاك الفتى الجميل الذي فتن بقامتها الملأى بالحياة، ذهب عند أخرى. بكت طويلا وتمتمت:

"أنا لست كما تتخيلني! أنا بائسة. خنتك أمّي وخنت جسدي!"

سقط قلبي منّي! وددت لو أعيدها إلى رحمي. أكملت، وما إن أكملت حتى تملّكني وجوم وخوف وصمت وراحة؛ عاد وعيي إليّ. قرّرت أن يكون رد فعلي ذكيا نقيا وليس كما فعلت مع أختها رين.

"قبّلني يا أمّي في فمي وأبي رآه وهو يفعل ولم يخبرك!"

كنت أتخيّلها دوماً وأبداً طفلة تحادث باربياتها، تزوّجها، تطبّبها، تحلّ مشاكلها؛ لكن لم أتخيّلها بحزن ومشاكل. كبرت هي وحزني لم يصغر! أضافت

عليه حزنها. كيف أعلّمها الفرح وأنا غارقة بين الأشياء وبين الصّمت والخوف. لم أجد طريقي! هل وجدت إبنتي طريقها؟ هاجسها ذاك البطل الموعود الذي سيأتي يوما ويبدّد خوفها وإحساسها بالإثم من قبلة الفم تلك. كانت تبكي وهي تقول: "قبلتين يا أمّي! قبّلني مرتين! وليس هذا فقط؛ أنا شاهدت مع روز صديقتي فيلما غريبا؛ العالم فيه ليس كعالمنا هذا. هنالك العالم كلّه عار بأعضاء يداعبونها بطرق شتّى، يأكلونها حتّى!"

روز التي تحمل مفاهيم بيروت عن الحرّية، والتحرّر (سكن أهلها حديثا في الضّيعة)، تعرف الكثير، أكثر ممّا ينبغي ولا تخجل من عرض جسدها الممتلئ أنوثة رغم أنّها في الرابعة عشرة من عمرها.

- هل تعرفين يا أمّي أنّ أختها المطلّقة تأتي وصاحبها هنا وتقبّله أمام أولادها؟ لا بل هي تنام معه في غرفة وحدهما بعيدا عن أولادها. رسمت بالتاتو على عضوها الأنثوي رأس تنين!

كنت أصغي وأنا أحاول أن أتجاوز ما أحمله من إرث الخوف والاشمئزاز من كلّ ما هو جنسي. رغم هذا عجزت عن السّيطرة على خوفي. أبديت دهشتي وسكتت.

فتحت الموضوع في اليوم التالي مع روز أمام ابنتي. كنت أصغي بهدوء واهتمام لروز وهي تدافع بشراسة عن المساكنة، وعن حقّ المرأة بحرّية التصرّف بجسدها والاستمتاع به.

أجبتها بهدوء شديد مبالغ به:

- أؤمن بالحرّية، وبأنّه يحقّ لكلّ منّا أن يحيا وفقاً لقناعاته؛ لكن لماذا نختار ما يؤذينا؟ لماذا التنين هذا، والتاتو الذي يغيّر معالمنا الإنسانية أبدا؟ المساكنة؟ لا أراها ضرورية، أو مبرّرة في مجتمعاتنا. من يحبّك، سيكون مزهوّا بإشهار حبّه لك. لماذا يحبّك في الظل؟ وهل يخشى ورقة أو عقدا يوثّق فيه حبّه ويؤكّده؟ ربما عند الغرب المساكنة حاجة ملحّة لأنّ الطلاق

صعب عند بعض أو معظم الطوائف المسيحية؛ الزّواج عندهم ورطة أبدية! عندنا ليس هنالك أيّ إشكال! يخطبك وإن لم يكن توافق تنفصلا ببساطة! لماذا هذا الدّفاع المستميت عن المساكنة ومع وضدّ؟ أحيانا نستدخل مناقشات وطرق عيش لا علاقة لنا بها.

شرحت هذا مطوّلا لروز المتحمّسة للمساكنة.؛ لعلّ ابنتي تفقه وتتبنّى وجهة نظري. أقنع صديقاتها، فتقتنع؛ هي تصدّقهم وتقلّدهم، ولا تصدّقني ولا ترغب بتقليدي! لا ألومها؛ حزني كان منفّرا.

سألت روز عمّا قصدته بالاستمتاع بالجسد.

أجابتني:- ممارسة الحبّ، أو العادة السرّية.

روز تثق بوعيي، إذ أحرص على فهم وتفهم مواقف الآخر وأفكاره؛ لكن حديثها عن إمكانية ممارسة العادة السرّية أربكني.

ابنتي كانت تصغي دون أن تبدي رأيها.

لم أفقه، لم أفهم، لم أتكلّم! جرأة روز فاقت توقعاتي.

لا أنسى قبل عامين لمّا استدعاني مدير المدرسة ليقول لي بجدّية مفرطة، وبحذر وبإدانة شديدة:

- ابنتك ذات الأثنتي عشرة سنة وزميلتها روز كتبتا على الحائط fuck myself. Fuck you:

لم أفهم أين الخطورة في هذا؟ ما هذا الحدث الجلل الذي استدعى أن يقفل الباب ويعقد معي ومع أمّ روز اجتماعا سرّيا عاجلا؟

أجبت ببراءة:

- هذه مؤكد سمعتها من الأفلام وهي تترجم بـ"تباً لك".

- المشكلة ليست فقط في معناها الحقيقي المختلف؛ المشكلة هما كتبتا myself وهذا يشير إلى ممارسة العادة السرّية، قالها وكأنّه يزفّ لي خبر موت ابنتي. ضحكت، ابتسمت. "ما هذا التهويل؟ ما هذا الهلع؟

لم أكن أعتقد أنّ البنات يمارسن العادة السرّية. كانت الفكرة مستبعدة تماما حتّى عن مخيّلتي.

بعد حديث روز ذاك، رغبت أن أعرف منها عن الموضوع وعن كيف تفعل الفتيات ذلك؛ كنت فعلا لا أفهم كيف يحصل هذا! سكتت روز وابتسمت.

دخلت غرفتي وأخذت أفتش في جوجل عن كلّ ما يتعلّق بالعادة السرّية؛ تأثيراتها، مضارها، الكيفية... بحثت حتّى عن فيديوهات إباحية ووجدتها مقزّزة! وجدت أنّنا فعا نحوّل الجنس غولا كبيرا. الموضوع لا يستحق كلّ هذا الجزع! أخذت كعادتي أضيف تحليلاتي لأطمئن وأفهم وأتفهّم العالم: الله لا يكلّف نفسا إلا وسعها؛ لماذا خلق المرأة ببظر خارجي وجعله عضوا للذّة وحسب؟ ولماذا تستطيع أن تتخلّص من التوتر الجنسي والوصول إلى الرعشة وحدها؟ الموضوع ببساطة تفريغ للتوتر، ممّا يمنح الجّسد والدماغ سكينة وراحة. القّصة أنّنا نشيطن أو نؤلّه؛ نتعلّق بربّما وأخواتها؛ فلربّما هذا يتحوّل إدمانا ولربّما... وربّما... الأكل يتحوّل إدمانا؛ هل نتوقّف عنه؟ التسوّق يتحوّل إدمانا! ندمن صديقا، ندمن حديقة، ندمن مكانا... الحكاية في أن نعرف أنفسنا وجسدنا ونحدّد خياراتنا؛ والمشكلة في الفراغ والخوف: ندمن لأنّنا نخاف ونخاف فندمن أكثر. شرحت كلّ هذا لابنتي بعدما سألتني عن رأيي بما قالته روز، ودعوتها لأن تفكّر أكثر في أهدافها، دروسها، مشاريعها؛ وأن تمارس الرياضة، والرقص وألّا تخشى شيئا.

لربما ارتحت أنا؛ ولكن هل سيدرا الآن مرتاحة مع بطلها؟ لماذا تركتها تصدّق حكايات الأبطال؟

"آه يا ابنتي! ليتك تدرين، عبثا تبحثين عن مسكن لنفسك خارج نفسك." كريم شاب طيّب ويحبّها، لكنّه لا يستطيع أن يكون بطلا. أخشى عليها من الحزن، من فقدان الطّريق، من التعويل على الآخر.

يوم أنجبتها؛ تمدّدت فوق ذراعي، رقيقة كوردة؛ كنت أخشى حتّى أن أحتضنها؛ أبكي لمّا تبكي! حاولت أن أكون دوما رحما، يمنحها كلّ ما تحتاجه للتوّ! هذا آذاها؛ جعلها تنتظر منّي ومن الآخر أكثر ممّا تنتظر من نفسها.

بصعوبة شديدة انفصلت عنها! الآن هي ما زالت رقيقة وادعة؛ لا أعرف إن كنت سأغادر سباتي هذا؛ لا أعرف إن كنت سأعود إليها، إليهم، إلى ذاك العالم من جديد!

أحسست بسخونة تغمر وجهي. سمعت الممرّضة تقول:

- ستنجو، إنّها تبكي.

كانت دموعي تكسو وجهي؛ لكن عيناي لا تفتحان.

لا بأس بأخطاء جديدة!

أعرف أنّنا هنا على كوكب الأرض، لن نكون يوما بخير تماماً. وأعرف أنّي ما انفككت أرقب عمري الهارب؛ ربّما أفتعل الحجج لأدين الآخر؛ وربما أنا مازوشية فعلا وربّما، وألف ربّما...

عندما أشعر بالخواء، أو بالخوف من النّظر إلى حياتي؛ أحاول أن أواسي نفسي بحكايا الآخرين؛ فالتغيير ليس مجرّد قرار، نحن نُربّى على عشق الثّبات، والماهيات. هذه هي حياتك يا شمس، لن يكون زوجك صديقك، ولن يحبّك بالطّريقة التي تتخيلين، و... لو أخرج من هذه المتاهة أفضل. وجدتني أتلذّذ بالإصغاء إلى صديقتي التي تدّعي أنّها ضحية، رغم أنّها تحيا في كنف رجل طيب!

"الحكاية ببساطة يا عزيزتي أنّه يغار منّي! الرّجل لم يكن يوما متفوّقا على المرأة، يؤرّقه شعوره بالنقص حيال قدراتها المتعدّدة! أصبح لا يُحتمل يا شمس...

كانت هناء تتكلّم وكلّ خلايا جسدها في حالة غضب وثورة.

- هل تعرفين ماذا أرغب؟ هدوؤه يكاد يجنّني... أريد أن أرقص!

لا يعرفني! لا يعرِف ماذا يزعجني... ولا يهمّه أن يعرِف! يهمه أن يُعرَف. كما أنت، كما أنا، أين الزوج الذي نسكن إليه؟"

هي تحكي؛ وأنا أحاول أن أربط بين أحداث حياتها وحياتي. نحن لا نتوقّف عن مقارنة أنفسنا بالآخرين.

"علّيك ألا تدعيه يفعل ما يخطر على باله، كلّهم رجال يا شمس! والنّساء من ضعف وغيرة (ما عداها)... أنا أحدّد له خطّ سيره فوق جسدي وخطّ سيره في علاقاته واهتماماته... لا حلّ، الحياة هكذا... لم أسأله رأيه، هذا جسدي، يخصّني وحدي!"

لو أسمع زوجها، سأسمع طفلا خائبا، يحمل أحلام حسن الشاطر وسندباد وسليمان الحكيم ويعيش بخيبة خانع وعقدة أنّه يخشى أن يكون متسلّطا كأبيه!

الحكاية أنّ أباه ضرب أمّه وصرخ في وجهها وأوقعها أرضا، والحكاية أنّه يحبّ أمّه كثيرا، وكاره فكرة التماهي بأبيه.

تمتم لي بصوت خافت متهدّج:

"سأكون ما أريد! بدأتُ الرّحلة باكرا؛ وصلْتُ دون أن أصل! التحصيل العلمي حتّى الدكتوراه لم يمنحني السّلام الذي أنتظرت، حياتي مع هناء مأزومة. أغمضت عينيّ طويلا، فعلت كلّ ما أملته عليّ: تسلّقت جدار الحزب الحاكم، وحاولت أن أكون فاعلا في البلدية والبلدة. راقتني الرّفعة والتحايا، ونسيت الدكتوراه في علم الاجتماع ورسالتي في أسباب التخلّف في مجتمعاتنا ونسيت دوري؛ دخلت الدائرة، وأصبح الكرسيّ الأماميّ في المناسبات الاجتماعية محجوزا لي. تأمّلت رأس زوجتي المرفوع زهوا، وابتسمت؛ لكنّي لست راضيا!

أخجل أن أبكي، وأخشى أن تراني زوجتي أكلّمك! ستقول أنّي أغويك كما غويت كلّ صديقاتها! أزعم أنّي مختلف، لكنّي "رجل، مجرّد رجل قذر مثل كلّهم، مثل بعضهم!" يأكلني الخنوع والشّعور بالخيبة والفشل!

أنا أهرم بين محاضراتي الفارغة وبين أولادي الغارقين في التيه والكبرياء البلهاع، وفي حضن أمّي العفن. عِمامة أبي لا يحتملها رأسي. لأوّل مرّة أقولها: أشعر أنّي عار ومسجّى بدون غطاء أو كفن وأنّ عضوي الذكري، أهانني، وأنّ توقي لإرضاء أمّي أخصاني! هل أَنقذَ أمّي غرقي هذا؟ أنا لا أفهمها ولا أفهم نرجسية أولادي. دخل كبيرهم بين أحضان زعيم الطّائفة، ولم ينج! كلّنا غرقى ياشمس! حولي جسد أبي المتساقط وصوته المرتجف، وجسد أمّي اللاصق في السّرير، وشقيقاتي الناقمات على كلّ الذكور، وهذا

الوطن الذي لا أمل فيه ومنه! وزوجتي وسيجارتها الشّامخة وصوتها المتوعّد الذي يضع لي الشّروط والخطوط البيض والحمر!

ممنوع عليّ أن أحبّ أو أن ألمس مناطق معيّنة في جسدها! ممنوع عليّ أن أحادث طالباتي أو زميلاتي! أعرف أنّك تقولين أنّي أبالغ في لعب دور الضّحية. القصّة يا شمس بدأت بتنازلات بسيطة، وبانتظارات كسب عظيم محتمل! لم أكن أعتقد أنّ الوقت من لا وقت، وأنّنا مجرّد وقت، وأنّ الحياة فعلا هي موقف. لمّا عدت من السّفر، كلّي حلم وثقة، الكلّ قال: عليك أن تطأطئ مرّة لكي تحيا هنا بـ"كرامة"! ها أنا بوظيفة أستاذ جامعي، وبمنصب عضو في المجلس البلدي، كسير العين والظّهر والابتسام مرّات؛ أجلس أمام التلفاز مكتوف اليدين؛ منتظرا رضى زوجتي والمهدي ومرور الوقت!

ماذا أحكي لك بعد؟

كنت مُربكة، لقد اعتدت أن أستدخل كلّ حكاية وكلّ صورة وأن أبحث عن ملامحي فيها.

هل أشبهها أنا؟ هل يشبه هو زوجي؟

يحلو لي أن أبكي بعد كلّ سؤال هربا من الشّعور بالذّنب، أولأنّني أتصوّرني ضحية! زوجي لن يحكي عنّي، لا أطأ قشرة دماغه؛ ولو تحدّث، سيتحدّث عن أخرى لا تشبهني!

الغريب هذا الشّعور الذي لم يفارقني يوما: حكايتي لم تبدأ بعد! هذا من ناحية يمنحني قدرات خارقة، ومن ناحية أخرى، أشعر أنّي من الهامش وللهامش!

خيالاتي الغريبة، كانت وحدها تضجّ حياة! كنت أتخيّل زوج صديقتي تلك متعرّقا، لاهثا وهو يدور حول المنطقة المسموحة ويتحاشى المناطق الممنوعة في جسدها! هل يغيب فيها؟ أرى أنّ ذواتنا بحقيقتها الكاملة تظهر فقط في السّرير وإبّان ممارسة الحب. كانت تنتابني تخييلات حول الكثيرين

الذين أعرفهم: ترى كيف يمارسون الحبّ؟ أويغمضون عيونهم وقبلات وتلامس وجماع ونهاية وحركات آلية نمطية؟ هل الحبّ هو هذا؟ الحبّ بالنسبة لي حالة تيه؛ يبدأ ونمارسه فعلا عندما نتوقّف عن الرّصد والتوقّع...

كنت أحيانا أرصد أجساد نساء أعرفهن؛ أجساد من توتر، وخوف وعيب، وبدون ملامح أو حيوية وانحناءات، لا تعشقن الطّعام ولا الاكتشاف... كنت أتساءل هل هنّ قادرات على التلذّذ بالحبّ وباكتشاف جسد الحبيب وأجسادهن؟

خيالاتي دوما تعشق تجاوز المحظور والممنوع: تتوقّف عيناي في المناطق الحسّاسة من الأجساد! أحيانا أخرى أرصد المناطق التي تتكشّف بغتة وصدفة أمامي؛ كمؤخّرة ميكانيكي السّيارات التي تظهر عندما ينحني؛ لم يكن هذا يشعرني بالإثارة الجنسية؛ بل أحيانا كنت أشعر بالإشمئزاز وأتخيّل زوجته ومشاعرها...

لمّا نرمى وسط الخوف والكره، لن تكون لنا أحلام خفرة رقيقة!

تعاطفت مع زوج صديقتي هناء، لدرجة أنّي خشيت للحظة أن أتمنّى أن أكون أنا زوجته لأنصفه! كنت أقهقه للخاطرة! هذا التفتيش الحثيث الدّقيق (بحسب فرويد) عن العدوانية وعن المشاعر الجنسية وعن الأنانية في تفاصيل سلوكي وسلوكات الاخرين لم أكفّ للحظة عنه!

لم أنس يوما تلك العبارة في إحدى الروايات الفرنسية التي قرأت: "اطلبي ما تشائين من زوجك حين يوشك أن ينهي طعامه، سيوافق في الحال وفقا لقانون إشباع الدوافع!" وسيوافقك على ما تشائين وأكثر، لو أشبع معك دوافعه الجنسية.

هل غضب زوجي الدّائم منّي سببه أنّي كنت أثرثر وأتجاهل رغبته في أن يمارس الحبّ معي؟ يرفض كلّ فكرة أطرحها عليه، دون حتّى أن يسمعها! أشعر أنّي أغار من صديقتي.

يبدو أنّي أصدّق أمّي دوما! هي أيضا كما فرويد كما الكاتب الفرنسي، تقول: الرّجل سرّه في كرشه وما تحته!

تخييلات كثيرة وشتّى رافقتني منذ كنت، خوفي من فهم بعضها وتحليله وتفكيكه كرّسها في لا وعيي أيقونات!

ربّما أظلم زوجي، ونفسي كما هناء! لا أعرف لماذا الشّعور بالذنب لا يفارقني، ولماذا أودُّ، لو كلّ النساء يشعرن بالذنب مثلي! دائما أدين نفسي: في زواجي الفاشل، وفي خلافاتي مع من حولي، في موت ابنتي الصّغرى، وفي تذبذب علاقتي مع عمر...

لم أشأ أن أغوص أكثر في تحليلاتي، فتمتمت بهدوء:

- الحياة إمّا أن تكون من صراع ونزاع أومن حوار وتعاضد وتعاون... التربية تضع لنا نموذجا واحدا موحدا وتحثنا على التسابق على التمثّل به...

شعرت أنّي أهرب، أهرب من فكرة البحث عن وضع أفضل، أهرب من التحديق في التفاصيل، أهرب من مشاكلي، ومن مشكلة صديقتي.

باختصار، علاقتي مع زوجي لم تمنحني السّكينة، الأمر لا يحتاج بحثا في المازوشية. أريد حياة بسيطة، خالية من الرّهاب من الآخر!

لا بدّ أنّي خائفة من أن أنظر في المرآة. عليّ أن أسير دوما، حتى لا أشعر بدوار المُحال.

لست ضعيفة ولست بائسة، لست شيطانة، ولا يسكنني قرين! يسكنني خوف... خوف شديد لأنّي بوعي مستلب... لست حرّة!

لا بأس بأخطاء جديدة، أخطاء ذكية، تضعني في قلب الحياة!

رجل بحجم وطن

كتبت لعمر رسالة موجزة:

"عمر... لن أقول شيئا؛ فقط أنا أحتاجك؛ كلّمني".

رنّ الهاتف. كان صوت عمر حزينا.

- هل أنا سبب تعاستك؟

- أنا بخير.

- لكنك تبدو حزيناً جدّاً.

- هو أثر البكاء فقط.

- يالله، كم أنا بائسة! أحبّني؛ هذا أسمى من البكاء. ربّما لو أخذت يدي بشدّة واخذت يدك بشدة ننجو؛ أقلّه من الخوف.

- هل تعرفين يا شمس؟ أحيانا أكره حياتي؛ وأحيانا أجهل لماذا أعيش اصلاً؟ لماذا خلقني الله؟ ما قيمة وجودي في هذا العالم؟ لقد تسرّب إليّ إحساس الكبر بغتة!

- لا بأس. الزّمن كذبة، المهمّ ألّا تقتل حاضرك في سبيل الغد. لا تفعل مثلي؛ عش اللحظة بشغف.

- هل يفرق غيابي عن حضوري في هذا العالم؟

- ليس مهمّا. المهمّ أن تكون كلّك في الفرح كما في البكاء! وأن تكون في جسدك، وعبره.

- أريد أن أكون في جسدك وعبره.

- تتحرّر أجسادنا ونتحرّر منها عبر أجساد من نحبّ. هل تتخيّل كيف أحيانا نرصد بغباء تفاصيلنا النافقة؟ وكيف نتشاوف بتفاصيلنا النافقة هي الأخرى؟

- سأغمض عينيّ وأتسلّل قلبك.

- أنت تستحق حبّا كبيراً كثيراً يا عمر.
- قبّلتك بحنو مخيف.
- ارتعش جسدي.
- تكوّرت في حضنك.
- جسدي عاوده دبيب الحياة.
- اشتقت اليك كثيرا. لا أعرف لماذا نتقاتل، وعلام نتقاتل!
- لا تتركني أموت وحدي. أحبّني دوما.
- وهل هذا في قدرة البشر؟ ثم لماذا عليّ أن أحبّك دوما؟ وهل تحبينني أنت دوما؟
- بشكل ما نعم.
- بشكل ما؟ وما هو هذا الشّكل ما؟
- أو إنّي أحبّك بأشكال متعدّدة.
- وأين ذهبت نعوتك بأنّي ديكتاتوري وإلغائي؟ وأناي المتضخّمة، وأنّي سبب تعاستك، هل نسيتها؟
- أنا أكثر منك هكذا. كلّنا هكذا بنسب.
- وهل الإلغاء شكل من أشكال الحبّ؟ والإقصاء والمحو؟
- نحن بشر. أن نوصّف أنفسنا يعني أنّنا نموت. أنا أحبّك، هذا هو المهم.
- وبعد غد نتقاتل على قصّة تافهة؛ وتصير غاية كلّ واحد منّا سحق الاخر.
- ربما، أنا مريضة يا عمر.
- ما رأيك لو تسمعين معي محمد منير، يغني:" شيء من بعيد ناداني..."
- أحبّ هذا الرجل، أراه بعضا من جمالات هذا العالم.
- الأغنية تتحدّث عن أسطورة حوريات أوروفيوس والندّاهة العربية.
- لمّا أحزن أحبّك أكثر.

- ما علاقة هذا بذاك؟

- الحزن يجعلنا اكثر صدقا وأقلّ غضباً.

- بارك الله الحزن إذن. هو الله من حزن.

- نحن نعدو الى الزوال، لا وقت للكره. رغم هذا تأكل العدائية وقتنا وأنواتنا. الغضب بعكس العدائية يكون أحيانا جميلا؛ يترجم شرهنا للحياة.

- حتى الكراهية مطلوبة. غريب هذا العالم! صُنع بطريقة مدهشة! المجد لمن وعى.

- المجد الأكبر لمن يحبّ.

- طوبى للودعاء، أشعر أنّي ملوّث.

- أنت دوما جميل.

- يكفي أنّنا معا.

- لعلّ الله يحدث أمرا. لسنا من يخطّ النهايات؛ لنا البدايات وحسب.

- أحتاج أن أعيد تأمّل سيرة يوسف والمسيح ومحمّد؛ سيرة حياتي تتقاطع معهم بشدّة.

- المهم ألّا يغادر النقاء قلبك. أنت نقيٌّ بشدّة؛ لذا أنت حبيبي، ولذا أقرأ كلّ شيء منك بطريقة مختلفة.

- كيف؟

- أثق بنواياك، وهذا هو المهمّ. لستَ من هذا العالم.

أودّ لو أغيّر قوانين هذا العالم! حاولت فعله مع أولادي؛ كانت النتيجة سيئة؛ أردتهم سعداء وحسب، حاولت تجنيبهم الألم؛ وكان هذا غبيّاً! رغم هذا ما زلت لا أتحمّل رؤيتهم يتألّمون.

عمر، أنا أعشقك حدّ البكاء.

كنت أعشق الطيران...

أحلم بأن أحاذي الغيم، أراقص طيور البجع المهاجرة؛ أحلم برداء أبيض طويل، لا يشبه السّتارة أو الكفن!

كنت دوما أشعر أنّي قادرة على صنع حيوات! أغنّي، أبتسم، وأقرأ تحقيقا حماسّيا فأهلّل؛ أقرأ رواية رومانسية، فأغمض عينيّ بدون أن أنتظر قبلة!

أوشكت أن أصبح امرأة مكتملة؛ رغم أنّي بدون تجارب خارج الكتب والتخييل! أحيا في قفص مُحْكَمَة أقفاله: لبنان والحرب، مجتمعي الشيعي الجنوبي والمحن، عائلتي الهاربة من اليتم والتهميش والفقر والهلع...

ارتديت بنطالي الأخضر، وربطت قميصي الأبيض حول خصري؛ حملت دفتري الصّغير، وأحلامي الكثيرة! شهرزاد حكت ونجت؛ مجلّة "شهرزاد الجديدة "تحكي بجرأة، توقظ أحلام الطيران والصّدق العاري البكر في أعماقي! ربّما أستطيع أن أكون خالقة للحكايات، ناقلة للخبر؛ صحافية بفضول شرعيّ! المسابقة المعلنة على صفحات المجلّة تدعوني؛ يكفي أن أكتب تحقيقا جاذبا لأفوز وأنجو... وأصبح محرّرة مهمّة بأجر محترم في مجلّة مرموقة!

فتّشت عن حكايا جاذبة، غريبة؛ حولي وفي جعبتي الكثير، فأنا منذ كنت، عاشقة للقصص ولأخبار الناس وحكاياهم؛ وكلّ الذين حولي من خيبات وأحلام مُجهَضة... اخترت أكثر من خيبة، أقصد أكثر من حالة. كان الموضوع المطلوب اجتماعيا؛ اخترت أن ألقي الضوء على إيماننا العميق والمسلّم به بالغيب والجنّ والعفاريت، بالتعاويذ التي تنقذ، وبالشيخ الذي ينجّي!

التغيير يتطلّب شجاعة، والمواجهة تطلب عزيمة ووعيا نقيّا؛ والكلّ يخشى أن يواجه نفسه وأخطاءه! الكلّ يخشى أن يُدان، والكلّ يقدّم نفسه ضحيّة! زميلتي التي تركت السّمنة تأكل معالم جسدها بمعيّة الزّمن، والخنوع يأكل عقلها، لم تتزوّج لأنّ الجارة التي تغار منها وتحسدها، عملت لها عملا! جارنا الذي تزوّج بنت عمّه المغترب الذي ساعده ماليا ومنحه منزلا؛ والذي يهرب من شعوره بالدّونية وبالجبن عبر خيانتها مع أيّ امرأة تتاح له، ممّا جعلها مضطربة كئيبة، يدّعي أنّ جنّا دخلها وخرب عليهما حياتهما معا!

دلال تضجّ حماسا وحياة وضحكا؛ رغم أنّ أبيها، عامل النظافة في المدرسة، بالكاد يستطيع تلبية طلباتها وسدّ احتياجاتها الأساسية وأخواتها السّبع. ذاكرت بحماس ومثابرة حازت على إجازة في آداب اللغة العربية. ورغم شهادتها التي خوّلتها أن تعمل كمدرّسة، ورغم ابتسامها الدائم، لم تصادف الحبيب أو العريس المناسب! معظم شبّان بلدتنا يسافرون باكرا الى أفريقيا ليعودوا بلائحة مواصفات للزوجة المرغوبة؛ لا تملك أيّا منها دلال! هي حاذت الثّلاثين، سمراء، ترتدي حجابا يخبئ شعرها الناعم الطويل؛ جسدها نحيل متطاول كقصبة؛ وهم يريدونهن شقراوات، بعيون ملوّنة، وأجساد بضّة بالكاد تفتّحت؛ أي في السّادسة عشرة أو الثامنة عشرة كحدّ أقصى.

"إن لم يكن ما تريد فأرد ما يكون" تمتمت دلال مبتسمة وهي تحاول أن تقنع نفسها قبل أن تقنعني:

"صحيح يا شمس أنّه ترك المدرسة باكرا جدّا، هو حتّى أمّي، لكنّه رجل! والرّجل لا يعيبه إلا جيبه! هو ميكانيكي"حربوق" يمتلك منزلا متواضعا، وأهله طيّبون. ظلّ راجل ولا ظلّ حيطة كما يقول المصريون".

وأخيرا حملت دلال خاتم الخطبة الذي خلّصها من لقب "عانس"! دخلت عالما آخر، لم تتخيّله! العريس الذي طرق باب أهلها، لا يأبه بباب

قلبها؛ صحيح أنّه يجيد فهم قطع السّيارات وموتوراتها، لكنه عاجز عن فهم رعشة يد امرأة أو الإحساس بنبضها.

أرادته قريبا صديقا وأرادها زوجة تعدّ الطّعام والسّرير.

أصبح رجلا باكرا، باكرا جدّا؛ كان في الحادية عشرة لمّا شعر بثقل وبعبء أسفل بطنه؛ وجد صورا لفتيات عاريات، بأوضاع مثيرة تحت فراش أخيه الأكبر، استعارها وارتاح.

لطالما ألحّت أمّه عليه حتى يفتّش عن شريكة لحياته وفراشه. لم يكن يشعر بأهمية الفكرة، صحيح أنّه أحيانا يسترق النّظر إلى بعض الفتيات في الشّارع؛ لكنّه سرعان ما يخفض رأسه مستغفرا ربّه، حامدا إيّاه على نعمة نكاح اليد الذي يخفّف عنه ذاك العبء، دون زنى أو مناكفات!

"النّساء من نكد وطلبات": يجيب أمّه.

الحبّ، المشاعر المتبادلة، الشّراكة، هذه مفاهيم بعيدة عنه. عبثا حاولت دلال تدجينه؛ وشيئا فشيئا، بدأت تزداد نحولا وشحوبا، وغادرتها الابتسامة.

كان يزورها يوم العطلة فقط؛ بات يكرّر زياراته مع دُنوّ موعد العرس. اقترب من جسدها أكثر ولم يحاول الاقتراب منها. لم تفقه ماذا يحصل أو ماذا يفعل: ينظر إليها، يدعوها لخلع ثيابها، وقبل أن تحلم، وقبل أن تشعر، يتمتم وهو يرتدي بنطاله: "تأخّر الوقت..."

المرأة محفّز ومثير خارجي فحسب بالنسبة له. لم يعرف لذّة المشاركة أو متعة المنح في الحبّ. أصبحت دلال، وهي التي لم تكتشف جسدها، تخشاه وتخشى جسدها! تخشى شعورها بالتّوتّر؛ وتخشى الغد الذي ستكون فيه أبدا مع هذا "الرّجل" الذي لا يعنيه نداء الروح ولايفقه لغة الجسد. قاومت شعورها بالاشمئزاز منه ومن جسدها؛ تكره يديه القذرتين وانشغالهما عنها وعن جسدها بعضوه. جسدها رغما عنها كان يستكين له

للحظة، لتستيقظ بعدها وهي تشعر بأنّها مجرّد مومس أدّت دورا عبثا تحاول إتقانه.

لم يكن صديقا، لم يكن حبيبا! كان مشروع زوج مناسب حصرا.

شيئا فشيئا وجدت نفسها تسرف في الوضوء والصّلاة. ما أن يطرق الباب حتى تجلس على سجّادة الصّلاة والنوافل وصلاة الشّفع والوتر، والدّعاء وقراءة سورة البقرة (لأنّها الأطول!)...

هكذا أخذت دلال تتجنّبه وتقضي وقتها مع "الله"وملائكته؛ نظيفة، طاهرة! بدأ العريس الميمون يهدّد بالفرار... أهلها يضغطون عليها؛ وهي لا تنفكّ تبسمل وتستغفر!

قالت الجارة: البنت معمول لها عمل! ليس لك يا أختي إلا الشّيخ "الصيّاح"! كان ذاك شيخا مشهورا بالمنطقة بقدرته على تحدّي الجنّ وطردهم، وشفاء كلّ الحالات النفسية والجسدية المستعصية.

دخلت دلال غرفة البخور والتعاويذ، لتفاجأ بعد أقلّ من ثلاثة أسئلة بعصا الكرباج تنهال على جسدها من كلّ حدب وصوب، وبصراخ الصيّاح المدوّي: "أُخرج يا لعين، لن أرحمك..."

ولم يرحم الصيّاح مكانا في جسد دلال دون أن يترك فيه علامة! أعادوها البيت أشبه بجثّة هامدة.

زرتها في ذاك الوقت وجسدها مشبع بالألوان والعلامات والكدمات والقيح! كانت هادئة، وفي عينيها شرود وذهول.

سألتها عن العفريت؛ أجابت وهي تبكي: "نعم... هو يسكنني، يمنعني عن خطيبي وعن الله، وعن الصّواب!" وسريعا سريعا استأذنت منّي وأخذت القرآن وقرص الصّلاة وبدأت تستغفر الله. تمتمت وهي تنظر إليّ: "لن يتمكّن منّي...!"

صدّقتهم دلال وكذّبت عقلها ومشاعرها. "مؤكّد أنا لست مجنونة لأزور طبيبا نفسيا!" تمتمت. حتّى دلال كانت تخلط بين الجنون والمرض النفسي! قرّر خطيبها أن يفسخ الخطوبة؛ لن يقضي عمره مع مجنونة!

كانت هذه حكاية دلال التي أوردتها في تحقيقي، إضافة إلى حكايات أخرى؛ كلّها من وجع وخوف وجهل وهروب الى الجنّ وإلى الصيّاح وإخوانه.

المهمُ أنّ تحقيقي هذا كسب الجائزة؛ ولكن دون أن يتسنّى لي أن أعرف؛ فالبلد مغلق كلّية بسبب حرب الإلغاء بين فريقين لبنانيين متناحرين!

مرّت شهور؛ نسيت المسابقة ونتائجها، وأحلامي، حتّى وجدتني صدفة وجها لوجه أمام أحد المحرّرين العاملين في تلك المجلّة؛ مجلّة" شهرزاد الجديدة "!

صرخ مندهشا ما إن رآني (أرفقت صورتي مع التحقيق): أنت شمس! أنت من كتب ذاك الريبورتاج؟ آه أنت كاتبة مهمّة يا صغيرة، وجميلة كذلك! لكن حظّك سيء، المجلّة توقفّت أو أجبرت على التوقّف بدعوى أنّها تسيء إلى الدّين والأخلاق العامة! تحقيقك فاز؛ هل عرفت هذا؟ دعينا من هذا، أريد أن أراك لنتكلّم فيما تكتبين وفي أشياء أخرى.

كتاباتي حظيت باهتمام كاتب مشهور؟!

شعّت عيناي، امتلأ جسدي حياة، كدت أحاذي الشّمس! توردّت وجنتاي وأجبته:

- متى شئت؛ أنا حاضرة.

والتقيته... كان أربعينيا وكنت في العشرين. حكى لي عن زواجه الفاشل، عن أولاده الذين اختاروا أن يعيشوا مع أمّهم الأجنبية، عن مكتبته التي تتفوّق على مكتبة الجاحظ، وعن المجلّة ومشاكلها والعدد الذي نُشر فيه تحقيقي.

- أنا أحتفظ به بالطّبع وبكلّ الأعداد الأخرى.

وبينما أنا أفكّر بالعدد وباسمي على صفحاته، منتشية! أكمل:

- سترينه لاحقا ولكن الآن أريد أن أعرف عنك.

كنت بارعة وجريئة في طرح الأسئلة؛ وأحسن الإصغاء؛ لكنّي كنت أخشى أن أتحدّث عنّي. عمّا أتحدّث؟ عن قلقي وكآبتي؟ هل أقول أنّي على خلاف مع جسدي ومع بيئتي ومع القيم السائدة؟ هل أقول أنّي أجبن من أن أتبنّى قيما أخرى؟ ماذا أقول؟

وجهي فجأة فقد تألّقه؛ ودبّ في خلاياي الخوف... عدت تلك الطفلة التي تخشى وتخاف وتخاف وتخشى... استيقظت من هواجسي على يده تحيطني من خصري بودّ غير بريء! لست أدري إن كنت محقّة في إحساسي الأنثوي الوجل ذاك؛ فأنا أخاف جسدي وأقيّده وأسوطه ولكن ليس على طريقة "الصيّاح" ذاك!

كانت عيناه من شرر ذكورة؛ أشبه بذكورة الذئب والغول كما تراءى لي! أخذت أنسلّ من تحت يده، وأنا أرتعش... كنّا في حديقة منزله وحدنا؛ ومنزله يقع على تلّة آخر البلدة.

سألني أن أقرأ عليه شيئا من كتاباتي. هذا أعاد إليّ الهدوء ولكن للحظة؛ إذ أردف: "اقرأي لي ممّا كتبته عن تجاربك الجنسية الأولى، أحاسيسك لمّا مارست الحبّ أوّل مرّة..."

وأكمل هو وذهني غاب...

"عمّا يسأل هذا؟ لا شكّ أنّ ثيابي الجريئة التي تبرز تمرّد ثدييّ ونحافة خصري أضلّته!" ضحكت أو بكيت أو ارتبكت، وتمتمت بصوت خافت: "أحدٌ لم يمسّ يدي؛ لا أفهم عمّا تسألني!"

عدت إلى البيت وأنا أفكّر: "يبدو أنّي لا أصلح لأن أكون كاتبة! التجارب المفتوحة، والدّخان والمشروب... وإلّا جسدي! أخشى أن أتحوّل عاهرة مثقّفة...!"

"الزواج يستر" كانت أمّي دوما تردّد؛ كلّ الطرق الأخرى المغايرة لا تؤدي إلّا إلى البغاء. ما الفرق بين ممارسة الحب والجنس؟

المجلّة اختفت، والحلم تنحّى... والعالم الحقيقي ممنوع عليّ دخوله إلّا عبر ممرّ الزواج! ليس عندي ما أرويه! لست كحنان الشّيخ في" مسك الغزال"؛ ليس عندي تجارب، عندي تلّ من مشاعر الحزن والكآبة والشّعور بالنقص، والحرمان العاطفي! لن أكتب هذا! لا أريد تكريسه. لا أريد عالم المثقفين الذي يُذكي الصّراع بيني وبيني. أحتاج عقدا يحرّر جسدي. عليّ أن أتزوّج، وعليّ أن أنسى اليمام الأبيض والطيران وزهو الخلق عبر الكتابة!

و قرّرت أن أكتفي بالزواج والإنجاب؛ أليس هذا دورا أساسيا للمرأة؟ إنّه الخلق عينه!

أخذت خيار دلال عينه، لكن من على شرفة الوعي الذي أزعم أنّي أمتلكه!

أكون أو لا أكون تلك هي المُعْضِلَة!

كانت شمس...

قال جنان:

"لن تكوني ياشمس! تثقين بالإنسان الأعلى، نحن من خوف ورغبات، وغيرة... ليتنا نبكي! وحده الحزن فينا من بقايا الإنسان في هذا الزّمن! نحتال عليه بالدّخان، بالكحول وبالمخدّر... علينا أن نبكي لترى أعيننا أفضل؛ ليذهب الغبار والخوف والحقد وهذا الحرص على اللاشيء!"

أغمضت عينيّ. هو الآن هناك في ذاك العالم حيث لا بكاء، حيث لا جحيم. نعم نحن مساكين يا الله رغم أنّنا من كبرياء غبيّة. ننظر بالمرآة طويلا، نفتّش عن الشوائب والبثور وعن خطوط العمر والتعب؛ نعدو وراء الأحمر والأبيض والبريق، وننسى عطر العناق وننسى أنّنا مجرّد حدث ووقت!

الموت مؤلم في كلّ وقت!

"كان" هو الفعل الأكثر أهمية وضرورة وتواتراً بين كلّ الأفعال! كان... كلّ شيء كان! كان وكينونة وكائنات وكون. كلّنا من "كان"!

كان من الممكن أن يكون جنان حبيبي!

دخل قاعة المكتبة. كنت بثياب حاولت أن تكون لائقة؛ وبورود وبفرح وبزهو جسد! وضعت فوق فستاني المليء بالحلم واللون والذي يلاصق جسدي بودّ وغنج، معطفا أسود طويلا.

قال: "شمس أنت مشعّة! هلاّ تخلعي المعطف؟ أريد أن أراك، أن أرى جسدك؛ أخاله استثنائيا!"

"أنا أخاله قبيحا، وأخجل من تفاصيله؛ أكره حتّى هذا المثلّث في وسطه، الذي جعلني أنثى!"

كدت أبكي وأنا أتصفّح كتابا لزكريا ابراهيم عنوانه: "مشكلة الحب".

كانت عيناه من حبّ! خفْتُ من شدّة الأمان فيهما! عليّ أن أنكمش، أدخل المحارة وأبكي وحدي أبدا! لست أنثى صالحة للحبّ.

قال: "قومي يا شمس؛ الحبّ ليس المشكلة، الحبّ هو دائما الحلّ."

وجدتني أحدّق في عينيه؛ ملامحي استقرّت في وجهي مطمئنة! غادر فمي الإرباك...

أخذ يدي؛ انتصب جسدي؛ شعري رقص فوق كتفيّ؛ وكعب حذائي العالي أصبح منصّة! خرجت من نفق المكتبة؛ السّماء لم تطبق على الأرض! هي زرقاء بقبّة حانية! الشّمس داعبت وجهي بدفء وحنو. أخذت نفسا عميقا؛ أغمضت عينيّ لأخبئ دموعي الخجلى.

لا أعرف كيف دخلت سيّارته، التي لم أرَ لونها أو نوعها أو شكلها؛ كنت مأخوذة بذاك الشّعور بالأمان!

قاد السّيّارة صامتا؛ وأنا شبه مغمضة العينين؛ أفتحهما فأرى الأخضر يعبر... قرّرت ألّا أفكّر.

جنان شاب عراقيّ ثلاثيني ذكيّ ومقهور؛ لأنّه شيوعيّ فرّ من العراق و"بطش" صدام حسين، وقرّر أن يكمل دراسته الجامعية في لبنان (يدرس آداب اللغة العربية).

"لا تتخيّلي يا شمس كم كانت رحلة الهروب شاقّة! رغم الحرب في لبنان، هو بالنسبة لنا مكان من جمال وحرّية!".

"أعشق الكتب وأكتب الشّعر. زوجتي هناك في العراق، زوجة لم أخترها؛ اختارتها أميّ؛ هي قريبتها. جميلة؟ نعم أو... ربّما! نتحادث؟ لا. مفرداتها تقتصر على الاحتياجات والطلبات. أحبّها؟ مؤكّد أنا لا أكرهها، لكنّي كذلك لا أعشقها؛ أمارس الجنس معها وحسب.

أنا مشغوف بالجسد والشّعر يا شمس. أوّل مرّة مارست الجنس، كنت في التاسعة! هل تصدّقين؟ لا... لم أمارسه أنا؛ بل فعلته معي جارتنا، صديقة أمّي. فقدت زوجها الجندي في حرب حمقاء من حروبنا الكثيرة. رافقتها مساء إلى منزلها بإيعاز من أمّي. أدخلتني غرفتها، مشطّت شعري، خلعت عنّي ثيابي، ثمّ خلعت جلابيتها... لا أنسى رائحتها. كان صدرها كثيرا ومترهّلا. لم أفقه ماذا يحصل؛ لكنّي كنت مأخوذا، مسحورا وربّما سعيدا. كان الشّعر كثيفا بين فخذيها وفي أماكن أخرى. ملأت أنفي رائحة الرّغبة... دنت منّي كثيرا، لا بل التصقت بي! أخذت تتحسّس قضيبي... أذكر أنّه انتصب رغم صغره! رمتني أرضا وارتمت فوقي؛ وأخذت تضغط عضوي الذّكري وتحكّه بنصفها التحتي وظلت تعلو وتهبط وتتحرّك يمنة ويسرة وهي تلهث... تغمض عينيها وتفتحهما... حتّى شهقت! ارتدت ثيابها بسرعة، أكلت خدّي بقبلة، وقالت أنت رجل يا ولد! هل تفهم؟ لا تخبر أحدا عن الذي حصل...

كنت مشدوها تماما. بقي في ذاكرتي قضيبي الذي انتصب، و"أنت رجل يا ولد!" هناك لذائذ عظيمة لا يخبرها إلّا الرّجال؛ فهمت حينها هذا.

تحوّلت سريعا رجلا محروما، حتّى ذاك اليوم... كنت في السّابعة عشرة من عمري؛ أسترق النظر الى ابنة خالتي وهي تمسح أرض الدّار؛ شاهدتني أمّي. ابتسمت وقالت: أصبحت رجلا! وزوّجت أمّي ذاك الرجل من تلك الابنة، التي بدورها أنجبت لي ومنّي ابنة... وبين القهر والفقر والرّغبة وبعد حبس خانق في معتقلات صدّام كاد أن يتكرّر؛ قرّرت الفرار من كلّ هذا؛ وها أنا أمامك..." كان يدخّن طوال الوقت؛ وكنت أصغي إليه كأنّي أقرأ رواية عن هزائم بطل لا ينفكّ يحلم!

قرأ عليّ قصيدة، حاولت جاهدة فهمها: فيها المنفى وفيها الرّغبة وفيها المرأة الوطن والحلم...

وجدتني فجأة معه في مكان آسر: أشجار وارفة، نهر يجري بسكينة، شمس خجلى تكاد تغادر... وأنا وهو جالسان على صخرة. دنا بجسده من جسدي؛ ابتعدت غير خائفة: جسدي دخل السّبات منذ أوّل المراهقة، نسي رغباته ووثبات اللذّة! نظرت في عينيه؛ كانتا تحدّقان في ثدييّ البارزين وفي فمي الصغير... التقت عينانا...

"لست يا جنان المرأة التي تتخيّل! أنا أخرى... أخرى تخشى وتخاف وتخاف وتخشى! سحبت دفترا أسجّل عليه خواطري وأفكاري، وقرأت عليه نصّا ملؤه الخوف والشّعور بالإثم والذنب، كتبته إثر حكايتي المبتورة مع حسام.

رفع خصلات شعري عن جبيني بحنوّ آسر؛ كدت أرتمي في حضنه! قبّل خدّي، أخذ يدي ومشينا معاً بصمت إلى السيّارة؛ دون أن أخلع معطفي ودون أن يرى جسدي الذي خاله جميلا...

رأيته بعدها مرّة يتيمة أخرى؛ قال لي: متى ستصبحين امرأة يا شمس؟

ورفع ذات الخصلات بذاك الحنو المفرط؛ قبّل خدي ورمى في حجري بضع وريقات... ولم أستلق بين ذراعيه!

لم أعرف كيف وأين اختفى. سألت حسام عنه، بعد أن قرّرت أن أختبئ في حضنه، بعد ان خبّأت بين دفاتري أوراق القصيدتين حيث قال أنّي امرأة أعادته رجلا حقيقيا وأشياء أخرى...

شعرت أنّه هو وحده يستطيع انتزاع الغبار عن أنوثتي! لكن كان هذا بعد فوات الأوان! عرفت من حسام أنّه رجع إلى العراق واختفى أبدا! قال حسام بحزن وأسى: "رفاقه قالوا أنّه قُتل يا شمس!"

جنان كان... رين كانت... كثيرون كانوا... وأنا متى سأكون فعلا؟ متى سأكون بدون خوف أوحرص وانتظار؟

عليّ أن أكون مع عمر قبل فوات الأوان ليُقال: كانت... شمس!

كم أتوق إلى الصّدق!

لماذا أخشى أن أصدّق عمر؟ اعتدت الكذب الكثير والدائم؛ أصدق للحظة، وأخشى عليّ من الصّدق! كأنّي أنانية جبانة: أريد الاحتفاظ به وبوضعي الحالي! أخشى أن أقرّ أنّي أحبّه؛ أمرّر له خفية رسالة فحواها: "أحبّني أنت دوما، وأنا سأبقى حيث أنا!"

- ماذا تفعل؟

- لا شيء.

- في سريرك؟

- نعم.

- يعني عين مقفلة وأخرى مفتوحة.

- لا... أنا يقظ.

- غريب، كيف تستطيع أن تبقى يقظا كلّ هذا الوقت؟

- مجنون.

- كيف؟

- لديك تفسير آخر؟

- ربّما هو الشّاي الذي تكثر من شربه.

- صحيح.

- أحب نعاسي الدّائم، أجده لذيذا... تعرف أنّي لا أتناول أيّ نوع من المنبّهات.

- نعم. صحيح.

- زعلان منّي؟

قلت هذا بمكر؛ فأنا أعرف أنّه متعلّق بي كحبل نجاة ولايمتلك ترف الزعل.

- لا، أنا فقط أشعر أنّي خارج كلّ شيء.

- تبقى معي؟

أحرص على أن تكون أسئلتي بإيحاءات متعدّدة: لا أسأله فقط لو يودّ أن يبقى معي الآن، بل أردت أن أسمعه يقول: "أريدني معك دوما."

حياتي مع زوجي وأهلي عزّزت في داخلي الخوف من الآخر، والتربّص له، وكذلك الحرص على الإمساك بخيوط اللعبة. مع الآخرين فشلت؛ أردت أن أنجح معه، أن أحتفظ به، دون خسارات.

أرسلت له صورة جميلة لي، نشرتها على الفيسبوك سابقا، أرسلها لي أحد المعجبين؛ أردته أن يعرف أنّي مرغوبة وأستحقّ أن أكون حبيبته!

قلت له:

- أجد غزلهم غبيّا. كيف ولماذا يفعل هذا معظم الرجال؟ أحيانا أشعر أنّهم هررة في أوان النزو.

- لا بأس. هذا مطلوب.

- لماذا مطلوب؟

- لك، لتشعري أنّك مرغوبة؛ ولهم، لأنّهم يحتاجون ما يثير غرائزهم.

- أشعر انّي هرّة أنا أيضا بالنسبة لهم، لست مرغوبة بذاتي، أخرى تفي بالغرض.

- هذا صحيح، هم مرضى في نفوسهم.

ردّدت مستعرضة قدرتي على التحليل، والتفسير:

- لا، هي قيم وطريقة تفكير سائدة. تعرف؟ في أحايين كثيرة، يعجبني بعض الرجال، هذا أمر عاديّ، وعاديّ أن تثير بعض النساء إعجاب بعض

الرجال. لكن الغريب أن يحدّثها كأنّها امرأته تخصّه وحده، متجاهلا أنّها زوجة رجل آخر، مثلا.

- الكل تائه، ضائع ومغيّب.

- الصّدق، لو نثمّن الصّدق، حياتنا كلّها تتغيّر.

- لسنا ملائكة.

- ولا نحتاج أن نكون.

- إذن؟

- الصّدق يظهر إنسانيتنا، ضعفنا، خوفنا، تعبنا، احتياجنا للآخر، بأشكال كثيرة وبصور متعدّدة.

- صحيح.

- لكنّ اللعب يستهوينا ويثيرنا... كم أتوق إلى الصّدق!

- نعم.

- مللتَ منّي؟

كنت في أعماقي مقتنعة، أنّ الرجل يملّ من المرأة، إن لم تكن موضوعا جنسيا بالنسبة له، ولو بالتخييل وحسب.

- أبدا. أنا أسمعك.

- أصبحت تبعد كثيرا، وطويلا!

- كيف؟

هكذا، كما يحصل.

- هل أنا مطالب بتفنيد ذلك؟

- لا، لا تحتاج أن تكذب. متى نبرّر، نكذب. أنا قصدت أنّك مللت، نحن نملّ.

- أملّ من ماذا؟

- من الحديث عينه، من الشّكوى عينها، اللغة عينها.

- صحيح؛ نكرّر عين غبائنا ومواقفنا الساذجة.

- هذا ما قصدته.

- ظروفنا غير الإنسانية تقهرنا كثيرا. لا أظنّ أنّ ما نعاني منه طبيعي ومنطقي. ولولا حسن الظّن بالله، لشككت في كلّ هذا.

- ربّما علينا أن نرى أفضل؛ أن نرى أن الموت حياة، والبكاء فرح.

- لم أفهم.

- نحن نريد الفرح كما نتصوّره، والحياة كما نتخيّلها؛ نفقد حيواتنا التي لنا في سبيل حياة لن تكون.

- لا يا شمس، هذا ليس صحيحا، كلّ ما نطلبه هو حقّ لنا، ربّما طريق الوصول إليه طويل ومظلم، لكنّنا سنصل حتما. الله يهيّئنا لهذه الفترة من حياتنا.

- هنالك ما يستحق أن نحتفي به الآن قبل الغد: صحّتنا، قدرتنا على الاعتذار وتصحيح أخطائنا، والتعلّم منها...

- نعم، ولكن هل هذا يعني أن نطأطئ لأقدارنا بغبطة ورضى؟

كأنّه قال: وهل هذا يعني أن أستغني عنك، أو أقنع بتلك النعم بدلا عنك؟

أجبته ساهمة: - أنا معك، ودوما نستطيع فعل شيء ما.

- شمس، جسدي يحتاج بشدّة أن يسكن فيك، قبل أن يسكن في الموت.

- نعم.

- نعست؟

- لا، سكنني حزن شديد، أشعر أنّي مقهورة.

- وأين ذهبت نغمة الرضى والعرفان بالنّعم؟

- ذهبت...

- وهل كانت موجودة أصلا؟

- تومض لتمكنّني من الاستمرار.

- هنيئا لك الومض والاستمرار!

- تهزأ؟

- أنا أحبّك يا شمس.

قالها! امتلأت غبطة، وخوفا.

- لماذا؟

- من دون سبب.

- ألا يتسرّب إليك الشكّ أنّك موهوم أنّك تحبّني؟

- إطلاقا.

لم أفهم أو لم أصدّق أنّه استطاع تجاوز مرحلة اللعب؛ فسألته:

- ماذا ترغب الآن؟

- لا شيء.

- ألا ترغب أن تكون قريبا منّي؟

- بلى.

- لمَ لا تقولها؟

- لأنّي أشعر أن وعيك يتربّص بكلّ كلمة أو فعل أو سلوك.

- دعك منّي. اِفعل وقل ما تريده وحسب. أنا أيضا أحبّك بشكل آخر. لا ضرورة للشرح والتفسير...

- أنت يا شمس تكذبين وتلعبين، وأنا مللت كلّ هذا. أنا ربّما مللت كلّ هذه القصص والحكايات؛ أو ربّما كأنّني ما عدت أثق فيك؛ أو ربّما لأنّي ما عدت أثق فيّ شخصيا؛ أو هو تكوينك الماديّ الذي ما عدت أحتمله، أو هو الطّقس كما يقول صاحب جودو...

- والحلّ؟

- الحلّ؟ لا أعرف. ربّما عليّ أن أحترق بكاز، كي ينتهي كلّ هذا الضجيج في عقلي وأذني.

أنا دوما لصيقة بعمود اللعبة، لا أتخلّى عن الجدار! أحبّه، ولا أعرف إلى أين يقودني هذا الحبّ. لو لم يتخلّ زوجي عنّي، لبقيت دوما هناك في تلك النقطة؛ أرصد حياتي ومرورها!

عليّ أن أقول لعمر أنّي موافقة على الزواج الآن. لن أنتظر زمنا آخر، ووقتا آخر.

فيروز تغنّي: "بيقولوا الحبّ بيقتل الوقت، وبيقولوا الوقت بيقتل الحب..."

هل سنكون معا قبل أن تنتهي القصّة وقبل الشتاء الأخير؟

أنا لست أنا

يقولون ليس من العقل في شيء أن تحادثي الغرباء؛ وليس من العقل أن تطلبي من الصّياد ألّا يقتل العصافير! وليس من العقل أن تركضي في الشّارع؛ وليس من العقل أن تصرخي أخيرا بعد عمر طويل: "أنا لست أنا!"

هو يقول أنّي خنته مع عمر وأنا أقول خنت نفسي معه! جسدي من ماء، وزوجي يخشى أشدّ ما يخشى الغرق. ضاع عمري! لم أنتظر عُمَر، لست رائية! غيابه الغامض بعد ظهوره البارق في حياتي، أخافني. أردت الخروج من نفسي! أردت عالما بدون ظلام ودم وفراغ؛ أنهكني الحفر في جلدي منذ كنت! كلّ شيء مباح إلا الشّعور بالألم الغارز المتعاظم أبدا...

في رسالتي الأخيرة لعمر، التي أرسلتها عبر البريد قبل عقدين، كنت أؤرخ وجعي:

"وددت لو تحمل كلماتي هذه معاني جديدة... كلمات من يعايش الحياة ولا ينتظر حلولها! ولكن تراني أكره السّطور، أكره الكلمات، أكره البدايات والنهايات... أودّ أن تمرّ الأشياء كما هي ببساطة، دون وعي، دون عناء، دون تعقيد، ودون كتابة! أحتاج أن أردّد ما قالته إحدى بطلات تولستوي: أريد أن أكون تكرارا لكلّ نساء العالم شرط أن أكون سعيدة ليوم واحد!"

لم يردّ عمر! لم أعرف عنه إلّا ما ذكره في رسائله المعدودة، المقتضبة. أردت أن أعرف تفاصيل حياته اليومية التّافهة، هواجسه، أحلامه... رسائله كانت من إيماءات وتلميحات. كتب أنّه سيقول لي أشياء يحتاج أن يقولها، لكنه لن يفعل إلّا وجها لوجه...

أحيانا كنت أحسّ أنّه مشغول بفلسطين القضية والوطن؛ وأحيانا أخرى كنت أشعر أنّ هواجسه تتجاوز وطنا وقضية! قال أنّه فقد أباه باكرا جدّا، وأنّه لم يخبر ترف الحنين إلى طفولة ما لذيذة...

غيابه المفاجئ وغير المتوقّع جعلني أدخل قوقعتي؛ احتجت أن أحمي نفسي: يؤرّقني ذاك الشعور الذي لازمني أبدا، لست امرأة مرغوبة! اختفى أوّل مرّة بعد أن أرسلت له صورتي: "لم يحبّ ملامحي الحادّة، وقلقي العبثي الجامح! يبحث عن المرأة النموذج التي يهواها كلّ الرجال؛ المذهلة، المثيرة، التي تتلذّذ بممارسة الجنس كثيرا مع شريكها... الطّاهية البارعة التي تحبّ رجلها كما هو، تقبله أكثر ممّا يقبل نفسه!" هل هذا هو جلّ ما يريده الرّجل من المرأة؟ لم أكن قريبة من ذاك النموذج المثال! كنت عاجزة عن الامتداد إلى الآخر؛ أنتظر رجلا قادرا على إقناعي بالتخلّي أبدا عن قوقعتي...

سألني عمر لمّا التقينا: "لِمَ لمْ تنتظريني يا شمس؟" وقبل أن يسمع ردّي، تابع:

"عشت في حكاية لا تشبهني! هل تعرفين ما معنى أن يكون الرجل مهزوما حدّ الذل؟ القصّة أحداثها لن تروقك يا شمس... أمّي امرأة تصرّ على أن تكون "قويّة "؛ تركها أبي على أرض غريبة، مع كومة لحم، أنا بعضها. سقف بيتها من صفيح، وجدرانه لا تدرأ صقيعا...

أنا أصغر إخوتي. بعد موت أبي ضاجعت أمّي كلّ رجالات الحيّ، على سرير أبي الحديدي نفسه! يدخلون وأخرج... كنت أتخيّل رفّاصات السّرير فوق قفصي الصّدري... لا أعرف لماذا شعرت أنّه عليّ أن أسكت! كنت خائفا من كلّ شيء. لماذا خانت أمّي ذكرى أبي؟

نردّد أحيانا مفاهيم عقيمة نخالها كبيرة، عظيمة: القضيّة، الخيانة...

نخون الارض، نخون الشّريك، ونخون ذواتنا...! أحيانا يكون ثمن ذاك الوفاء الذي يتحدّثون عنه، مواتا كثيرا وأثقالا لا تتحمّلها أيامنا القليلة وأجسادنا الهشّة. بعض القيم سلاسل؛ وبعض الوفاء كذب وجبن ومرض. ما معنى أن تكون أمّي وفيّة لذكرى أبي؟ مع الجّوع والذّل، والوحدة والخوف

تسقط القيم... لسنا أحرارا لنختار. نخترع مواثيق، قلادات، وأوسمة ونياشين ودخانا! نخشى أن نسمعنا وأن نرى ذواتنا الخائفة! حياتنا خروج أبدي من أمان عابر ونحن لا ننفك نحلم بالعود. لماذا علينا أبدا أن نحمل فلسطين التي لم نعرف، في قلوبنا وفوق رؤوسنا؟ رأسي متعب من الأثقال والأحمال يا شمس!

لا أعرف تحديد مشاعري حيالك وقت كتبت لك منذ عقدين؛ لكنّي أعرف أنّك المرأة الوحيدة التي لم أخشَ ولا أخشى أن أكون أمامها عارياً تماما.

لماذا ارتضيت الغياب؟ لا أعرف. لست وحدك يا شمس الخائفة. قبل أن أصبح هذا الذي لا يكذب ولا يخاف؛ كنْتُ ذاك الخائف دوما؛ حياتي تساوي حياة كلب ضال، كما قالت لي أمّي لمّا نجوت من محاولة الانتحار آخر مرّة.

كرهت جسد أمّي، وكرهت جسدي، وكلّ الأجساد النهمة، الخائفة، العمياء حولي! كرهت أمّي، وكرهت صبية الحيّ الذين ضاجعوني واحدا تلو الآخر، في الظلمة، مع نباح الكلاب. لا أتذكّر جيّدا ما حصل معي، أو لا أجرؤ على التذكّر! أستعيد صوت اللهاث، وأرى أعضاء تتصلّب وتنتهك فتحات جسدي... أصغي، يختلط على وعيي اللهاث؛ لهاث بكائي وخوفي، ولهاث أمّي التي تركتني للشارع، للمقهى ورجالاته، لذاك العالم ولتلك الوجوه الكالحة المسكونة بإرهاصات اللذائذ العابرة...

كان جدّا صعباً عليّ تجاوز هذا! مرارأ، حاولت الانتحار. لم يسألني أحد: "ممّا تشكو، ماذا تحتاج؟" العالم حولي هاجسه فتوحات وانتصارات وفتحات...

لمّا كان خوفي يتعاظم ليلا، كنت أتكوّم أمام النافذة المفتوحة أبدا على ضوء القمر... أحاول ألّا يشغلني طنين كفّ الميكانيكي على وجهي ولهاث أمي ولهاث صبية آخر الليل. كنت صبيّ ميكانيكي، وصبيّ قهوة، وصبيّ

مطعم... كنت صبيًا في كلّ مكان، لكنّي لم أكن صبيّ أمي، أو صبيًا بين صبية الحيّ... يتقاذفون الكرة والضحكات وأنا أحلم بأن أضحك أو أركل كرة ما في يوم ما! رجلي تخشى أن تركل؛ كلّي كنت دوما أُركَل يا شمس!

اشتريت مذياعا من القروش التي تبقّت لي من الأجر الزهيد الذي اتقاضاه على عملي، وبعض الكتب المستعملة. وبتّ أصغي، وأقرأ... أقرأ بلذّة، ونهم وتوق! قرأت محفوظ وكانط وسارتر والحلّاج وكلّ ما أتيح لي أن أقرأه ولو لم أفهم بعضه أو معظمه! وجدت عالما نظيفا مكتظا أعيش فيه... لم أعد أشعر أنّي وحدي!

قالت أمي:

- ما دمت تحبّ القراءة، كن "صبيّ" شيخ الجامع يكفلك وتكمل تعليمك، كما ترغب. وكنت... ورأيت... الأموال الحرام تنفق في الحرام؛ أسلحة وأحزاب، ومخطّطات وصراعات... كان الشيخ يحرص أن نختم القرآن حفظا وأن نقفل عقولنا سمعا وطاعة وركوعا وسجودا وابتهالات وانتظارا للسّاعة الموعودة. هربت من رائحة الجامع ومن رائحة أفواه أسياده! فقرّرت أمّي أنّه عليّ ترك دراستي الثانوية والتفرّغ للعمل. ابتسمت، دخلت الرّكن المعتم حيث أنام؛ وقرّرت أن أترك المدرسة والحياة معا! جرعت زجاجة سمّ الفئران التي وجدت؛ لم أستفق إلّا بعد ثلاثة أيام! وجه أمي فوق وجهي بمحاذاة وجه أخي، تشتم كعادتها وتتمتم:"لو تموت؟ هل تعتقد أنّي سأحزن؟ كلبٌ ونفق..." حينها وأنا أنظر في عينيها قرّرت أن أولد بدون خوف، بدون كذب وبدون انتظار... لا شيء أكبر من حياتي نفسها!

كرّست نفسي للكتابة والقراءة، والعمل والدراسة. نسيت جسدي؛ مع أنّه كان يضغطني بشدّة! كنت أتخلّص من ضغطه هذا بضغط عضوي وتمسيده، مرات ومرات، مع شعور بالإثم يرافقني.

لا أطيق أن يقهرني جسدي، أو أيّ احتياج آخر في هذا العالم! كانت الموسيقى ملاذي الآمن، والمذياع رفيقي الدائم. تلقيّت رسالتك، عاودني الحلم مشمسا، رغم جدران بيتنا الرطبة!

لكنّي سرعان ماعرفت أن لا مكان للأحلام في حياتي... لم تردّي على رسالتي الأخيرة، التي عرفت لاحقا أنّها لم تصلك، بسبب الحرب في لبنان.

حياتي ليست من رفاهية وتخمة وحبّ... قرّرت بدل أن أجوع مرغما، أن أصوم طوعا؛ وبدل أن أُنبَذ، أن أعتزل العالم حولي. أخذت أتردّد على شيخ طريقة، حتى اعتادت نفسي كما جسدي التخلّي. كنت أحيانا لمّا أحدّق في السّماء، ألمح حزنك، وخصلات شعرك الطويل، وألمح إلها لم يعرفه أسياد الجوامع ولا شيخ الطريقة. اعتزلت الشيوخ والجوامع، وأشياء أخرى كثيرة...

ومع أنّي أكملت دراستي الجامعية، بقيت أعمل صبي قهوة برتبة "مدير" عند صهري. ما أجنيه أنفق بعضه على الكتب وبعضه الآخر مساهمة منّي في مصروف البيت. كنت دوما وحدي، حتى دخلت حياتي نور، أخت زوج أختي. أقحمت نفسها في حياتي، كنت أحتاج امرأة ما، لكنّي كنت راغبا في الوقت عينه أن أنجوَ منها!

على الفيسبوك، رأيت صورتك وابنتك، بخصلات شعرك الطويل عينها. قرأت نصوصك وحزنك؛ حاولت أن أبقى بعيدا، كنت خائفا منك وعليك وعلى عائلتك! وجدتك أمّا كثيرة وجميلة كما لم تكن أمّي. وددت يا شمس لو أكون طفلك، ولو تكوني إلهة عوالمي، لعلّ إيماني ينجّيني!

هل كلّنا نتسلّى؟
(حكاية عاشقة جلال الدّين الرومي)

أخشى التخلّي، وأخشى فكرة أنّ الآخر يلهو معي ويتسلّى بي. ولأنّي لا أحبّ التأفّف والانتظار وحكاية أنّي الضحية، أتلقّف كلّ سلوك يصدر عن الآخر بتفهّم، باحثة عمّا وراءه وعمّا بعده. كأنّ الرّجل لا يفهم الحبّ إلّا بدءا وانطلاقا من العلاقة الجنسية!

كان زوجي محمّد سعيد يغدو لطيفا بعد أن يمارس الحبّ معي، وأنا كنت أريده لطيفا لأستطيع أن أمارس الحبّ معه! هل الحكاية كرقم ٦ كلانا يقف في اتجاه ويدافع عن ستته أو تسعته؟ ربّما أفلام البورنو، وحكايات الرجولة، الفحولة التقليدية هي التي أفسدت عقول الرجال. كأنّ العالم بؤرة وثقب، و"عضو ذكري داخل عضو أنثوي". "فلنأت بها من الآخر، بدون مناورات، هي ذي فقط الحكاية بين المرأة والرجل" كما قال لي صديقي الشّاعر، صقر النّساء.

أجبته: "لا ينفع. حتى الشمبانزي يتودّد لحبيبته، يقبّل رجلها ويديها قبل ممارسة الحب."

ضحك وقال: "أتودّد إليك ما شئت داخل السّرير!"

الحكايات حولي تنتهي بهذا أحبّه وهذا أريده ولكن ليس على طريقة إحسان عبد القدّوس!

صديقتي تريد زوجها، وتحبّ حبيبها.

- أحبّه يا شمس لأهنأ، وأهدأ، وأسكن. يمنحني شعورا باللذّة لم أعرفه مع زوجي. معه أصبح أنثى استثنائية؛ كأنّي ليلى وكأنّه المجنون! زوجي يريد بيتا نمطيّا بزوجة وأولاد وطمأنينة.

زوجها جنديّ يغيب أيّاما عن البيت. اختارها أكبر منه وبجمال شديد التواضع عن قصد ووعي. اعترضت أمّه بشدّة، لم يبالِ. تزوجّا وأنجبا صبيّين. كان شديد الانضباط في علاقته معها. يهديها ورودا وحلوى وأشياء أخرى أيّام الأعياد والمناسبات. يحرص على أداء واجباته كاملة معها، البيتية والزوجية: يمارس الحبّ معها بانتظام؛ ويستأذنها قبل أن يفعل! يسألها إن كانت هي ترغب كذلك؛ و"لأنّه مهذّب دوما وبشكل ثابت ويحترمها بشكل باهت، بارد" باتت هي لا ترغب!

كأنّنا نحن البشر لا نطيق أن يسير العالم حولنا وفقا لتوقّعاتنا؛ وكأنّما المرأة تريد الرجل الصيّاد! أنا أيضا أرى أنّ الجنس تخييل وتهويم وحرّية مطلقة؛ وأحيانا حبّذا لو يكون غزوات!

صديقتي تعرف كيف يبدأ وكيف يدخل وكيف يخرج وكيف ينتهي! لا تريد أن تخونه، وليس متاحا لها أن تفعل؛ هي لا تعمل، وليس عندها مكان تأوي إليه بعيدا عن منزل الزوجية. وهي كذلك" ذكيّة" لن تبيع شرفها مقابل لذّة تدوم للحظات! وماذا بعد اللذّة؟ سيرميها الرّجل الآخر ويبحث عن أخرى، وتبقى هي مع خيبتها، وتتحوّل "شرموطة خائنة، تافهة!" هذا ما قالته لي وهي تحاول فهم وتبرير خياراتها. فقد اختارت أن تحبّ عن بعد، وعبر الرسائل والهاتف.

- قال لي يا شمس: "أنت المرأة التي طالما بحثت عنها! لماذا لم نلتقِ من قبل؟"

الحكاية عاديّة وبلهاء وصور سلفي ترسلها له صباحا ومساء! ويسرّ إليها: "أنا أحترم زوجتي ولكنّها ليست المرأة التي حلمت بها!" وتعيد هي الجملة عينها!

وتحايا وورود من صور، وقصائد مبتذلة؛ وعن بعد يبدو كلّ شيء أجمل! حياتها ما عادت فارغة تافهة، تنتظره صباحا ومساء وترسل إليه أغنية، ونصّا وأشياء أخرى...

"يا شمس قولي لي، هل أنا خائنة؟ لن أقابله. لا أخفيك... أشعر بقبلاته فوق عنقي حارّة أكثر مما أشعر بقبلات زوجي! ولأنّي لا أريد أن أخون زوجي، أقفل الهاتف لمّا يصل عند ثدييّ؛ هل أنا خائنه يا شمس؟

سألني يوما عن رأيي بالوضعية٦٩، تظاهرت أنّي لم أفهم."

أجبتها: أنا لم أفهم، ما هي هذه الوضعية؟

ضحكت كثيرا وهي تشرحها باختصار شديد وهمسا؛ وأنهت حديثها وهي تقول: "كنت أعتقدك خبيرة!"

تابعت، وقد اختفت ابتسامتها:

- ولكن ألا يعني هذا أنّه يتسلّى بي؟

سألتها:

- وأنت ألا تتسلّين به ومعه؟

- هو سرّي وحكايتي يا شمس.

وحكت لي كيف تخفي رسائله، وكيف يدقّ قلبها ويبتسم كلّما قرأت إحداها.

هل كلّنا نتسلّى؟ أم كلّنا جوعى؟

عمر دخل الدائرة عينها! كان دوما وحده، اطمأنّ لها، دون أن يعرفها.

"قالت ياشمس أنّها لم تختر زوجها، وأنّه ينهي "واجباته الزوجيّة" وينام؛ وتستيقظ هي!

تتابع كلّ ما أنشر وتدّعي أنّها تحبّ الشّعر وجلال الدين الرومي وشمس التبريزي... صورة بروفايلها لراقص مولويّ. حكايتها حكاية الرّوح الجائعة والتائهة، وحكاية الزواج المبكر واليقظة المتأخّرة! تقول: "أنا كلّي مكرّسة لك من قبل أن أكون، من قبل أن أولد! موعودة بك منذ حيواتي الأولى!

حرصْتُ على حفظ المسافات بيننا. كانت تردّد أنّ روحها تعشق روحي! لا أعرف كيف تسلّلت يومياتي وحياتي! لا تنفكّ ترسل صورها في

كل وقت وحين؛ وتمنحني حنوا كثيرا متدفّقا وغير مشروط. اعتدت وجودها! لا تتخيّلي يا شمس كم تغزّلت بصوري! أنا ذاك الذي بالكاد ينظر إلى نفسه في المرآة!

ليلا الوحدة تقسو ونفعل أشياء كثيرة ما كنّا لنفعلها نهارا! كأنّما الرقيب الداخلي يتعب!

قالت: - أنا أحبّك.

قلت لها: أشكرك.

كرّرتها وبإلحاح. ذاك اليوم كنت منهكا؛ قالت: أحبّك.

قلت لها دون أن أفكّر:

- أريد أن أراك كلّك!

أرسلت صورتها شبه عارية؛ وأخذت تتأوّه على الهاتف. في لحظة أصبحت حبيبتي! نعم ردّدت لها مرارا: أحبّك وأنا لا أحبّها! كانت خبيرة متمرّسة في ما يسمى فون سيكس أو جنس الهاتف. وأصبحت أنتظرها بعدما كنت أهرب منها، لكن حصرا في الأوقات التي أعجز فيها عن حمل جسدي وتحمّل الوحدة!

شعرت أنّي أدمنها وأنّي أفقد ذاتي وهويتي لذا قرّرت أن أنجو منها.

أنا لا أخجل منك يا شمس، ولا أخشى شيئا معك. أتفهّم استنكارك وربّما غضبك!

المعركة كانت معركة مع الجسد ومع اللغة ومع الماضي ومع المستقبل ومع الخوف! عواطف حتّى يا شمس، تلك الشاعرة، تعرفينها، هي صديقة مشتركة بيننا على الفيسبوك؛ حاولت التحرّش بي مرارا. اللغة التي كمّت الأفواه في زمن أفل، هي عينها التي فتحت الأفواه والأجساد بدون حدود أو هوّيات في هذا الزمن!

كيف علينا أن نفهم المسألة؟ أين الصّواب؟ وهل هنا نخون كما وجها لوجه؟ هل خنت نفسي معها؟

لماذا أنت ساكتة يا شمس؟ لن أقول: لسنا ملائكة، لأنّي لا أرى أنّ ذاك عمل شيطاني. نحن في عالم من تيه. ما الحبّ؟ ما الجنس؟ مسحوقون في أوطاننا وخارجها، وفي بيوتنا وخارجها، وداخل أجسادنا وبيننا وبين ذواتنا!"

كنت أصغي إليه بصمت حزين مخنوق. حزنه تضاعف فأخذ يتمتم:

"لماذا لا نقرّ أنّنا في هذا العالم نرتقي في الجحيم وإلى الجحيم وحسب؟

أنا رجل تافه ضعيف، وحياتي أتفه من حياة نملة، أو حشرة طفيلية كريهة! هذا العالم لا يسمع أناي ولا يطيقها، ببساطة عليّ أن أتماهى مع أشياء هذا العالم ومع قيمه الفارغة لأصبح مرئيا...

منذ وعيت أحادث الحجارة والغيم والغبار والمباني الآيلة للسّقوط والفراغ. أحادث الله؛ وأحادث غبائي المفرط؛ أفعل حتى يتدلّى لساني، حتى يتمطّى وجهي وتختفي ملامحه!

كيف تصدّقين أنّي لا أكذب البتّة؟! حلمت بأن أكون يوما رجلا رجلا! أن أكون هذا الرجل الذي لا يكذب قط. هل تعرفين يا شمس أنّي لم أكن أجرؤ على الحلم؟

لم أنجب ليس بقرار حرّ منّي! لكنّي لم انجب ولم اتزوج ولم ولم ولم و... كأنّني من لم ومن لن وحسب! من لا قدرة! هل تفهمين هذا؟ ربّما كانت أناي ساخطة عدائية! أمّي رغما عنها أنجبتني؛ رغما عنها أحبّتني.

أنا الآن معك غير خائف؛ الخوف يجعلنا كذبة. معك أصبحت هذا الرّجل الذي لا يكذب. هل أنت قادرة على عشق رجل مجنون لا يكذب قط؟"

نظرت إليه طويلا بعيون بلا ذاكرة وابتسمت؛ هو يقول أنّه معي لم يكذب قط؛ وقرّرت أن أصدّقه. هل اخترعنا معاً كذبتنا الكبرى؟ ما هو هذا العالم بدون كذب؟

أخذ عمر يتحدّث عن الأمس؛ عن أمس، أمّه كانت فيه جشعة وضائعة، دينها وديدنها الرّغيف والقرش.

كان يحدّثني أو يحدّث نفسه:

"كيف بقيت بين أحشائها مسافة عمر وولادة...؟

سريرها يهتز؛ وقلبي لا يفهم، يخاف، يبكي. أسأل وأنتظر خلف تلك النافذة حلما أبيض نقيّا تكونين أنت جنيّته.

ما معنى الدّنس؟ بعض التّرف دنس؛ البؤس النقيّ كذلك دنس! كلّنا مدنّسون، نحن هنا على الأرض من خطيئة ودنس. الحبّ الطّاهر الخالص بقي هناك في الجنّة وفي زاوية من ذاكرتنا! هو ابن الحنين والأنين؛ أتذكّر الله وجنّته فأحبّك.

دخلت البيت بكعكة سمسم، أعطيتها لأمّي وأنا أتضوّر جوعا؛ التهمتها بابتسامة بلهاء، لم تفكّر بي، بجوعي!

إنّها أمّي وإنّي أحبّها.

لا... أنا لا أحبّها؛ ولا أحبّ النساء جميعا. لا أفهم الله... لا أفهم طبيعة هذا الذي يتدلّى بين فخذي...

لم نتكاثر هنا كطفيليات عمياء؟ ولم ندّعي أنّنا نحتاج لطف الله ورحمته وجنّته؟

أنا لا أحتاج يا شمس إلّا إلى الكثير من الخساسة، الكثير من المال والكثير من الوسامة الصمّاء والكثير من الحظوة الكاذبة وسأصمت أبدا مثلهم...

هل أنا مجرّد رجل مقهور مهمّش؟ هل صراخي تافهٌ تفاهة الفقر والجوع؟ وهل الأباطرة والأسياد والأنبياء هم وحدهم السّعداء؟"

شعرت أنّ عمر مقهوربعمق. أكمل وكأن ماضيه سحبه من الحاضر:

"أنا أريد أن أكون سيّدا، تعبت من الذلّ... هل الشّرف ضعف؟ وجعي أكبر مني. لا يهمّ هذ ا الوطن الضائع، لا يهمّ أنّك تتخلّين عنّي، لا يهمّ

الغد! لا معنى للمعنى... لا يقين... لا يقين...! أريد شيخوخة بحظوة، وموتا بحكاية لم أخترعها!

لماذا نسيني الله؟

لا يهمّني القبر؛ لا يهمّني الموت؛ لا يهمّني الله!

تلك الكلاب التي رافقتني وهي تنبح، لا تعرفني، لكنّها تعرف أنّي متشرّد وحيد... هكذا أنا أبدا. قبل أن تلدني أمّي المسعورة بعضّة الفقر والرّغبة، وبعد أن أموت! سأبقى هكذا أبدا...

ذاك اليوم، دخلت القهوة، التي أعمل بها ليلا. كانوا يحدّقون بالتلفاز المعلّق في الأعلى؛ عيونهم معلّقة حيث أصبح العالم كلّه فروجا وأفواها. أيديهم تستجدي لذّة ممّا بين الفخذين! لا أعرف ماذا كان شعوري وقتها... أعرف أنّ العالم أخذ يضيق ليصبح مساويا لمساحة ما بين الفخذين، أو لفم كلب جائع!

أنا جائع، أنا كاذب، أنا لا أريد شيئا، أنا لا أريد أحدا... أنا بائس، أنا مريض، انا وحيد، أنا كافر، أنا معقّد، أنا الميّت الحيّ أبدا! أنا الفقير الغنّي، أنا الله المنسيّ أبدا؛ أنا السيّد في أحلامي وأنا العبد بينهم!

لا أتذكّر وأنا عائد إلى المكان الذي ربّما هو بيتي، والذي لم يكن يوما بيتي! لا أتذكّر أو أنّي أتذكّر جيدا عيني ذاك الفتى ويدي ذاك الفتى الآخر.

تمّ الأمر بوقت قليل وبوجع كثير يا شمس! وجع أكبر منّي. رغما عنّي وجدتني بلا بنطال وبلا سروال داخلي، بين يديهم، هم داخل جسدي، في عالم من أعضاء يشبه ذاك العالم المعلّق في التلفاز وفي عيون رجال المقهى.

بكيت وحدي، خفت وحدي؛ ذاك الله الذي يقبع في الجامع وفي لفّة شيخ، وينسى أنّي جائع وأنّي بلا حبيبة، وأنّي بلا مأوى وأنّي بلا أرض وبلا أب وأنّ أمّي ضالة؛ ذاك الله كيف يريدني بلا أخطاء؟

عالم يوثّقني بحبل السّرة.

جفاف في الفم، والعين والقلب... هل نسيني العالم فعلاً؟ وعمر، هل ينتظر كما كان يفعل دوما؟

لا وقت لننتظر.

"لا فرق يا شمس بين هنا وهناك. بيني وبينك تراب وهواء، وأجساد أنجبتك وأجساد أنجبتها؛ هنا، يدك لا تمسّ يدي وعيوننا لا تلتقي. لا بأس، لا يهمّ! أينما كنت، فأنت أبدا في دمي".

لا يكفيني هذا! أنا أحتاج يدك الآن.

لا أنسى يده. كنْتُ خجلى ومغتبطة كمراهقة؛ وخائفة كأنّي غريبة وكأنّه غريب. أخذت يده أوأخذ يدي؛ غمرني دفء شفيف... شدّ على يدي، تمسّكت بها وبه. افتقدت عمرا كاملا هذه الطمأنينة! مرّ الوقت سريعاً؛ تركت يداه يديَّ... عدت في لحظة أسيرة الخواء المخيف! حاولت أن ألتقطه بعينيّ؛ كان يتلاشى شيئا فشيئا... عاد حلما وعدت وحدي، بعيون تستطيع أن تبكي في أيّ وقت. لا بدّ من العودة إلى هذا العالم الذي ولدت فيه وأنجبت له؛ عالم يقولون أنّي منه وله! عالم يوثّقني بحبل السّرة، ويهدّدني بحبل المشنقة! عالم يخاف عليه قلبي ويخاف منه!

يحاصرونني بقرابة الدّم والأمس والذّكريات!

دوما أحببت أشقائي وأهلي ودوما كنت أخشى عيونهم وأيديهم. عيونهم التي تنقّب عن مواطن الضّعف أو القبح في نفسي وملامحي؛ وأيديهم التي إمّا تطالبني أو تنتفض تومئ أن ابتعدي ما دمت لا تمنحين. دفء عينيّ ويديّ عمر، كان مقدّمة تؤكد لي أنّ العالم ليس من صقيع وبرد وجشع.

خرجْتُ من جسدي الآن؛ هل أخرجني العالم من حساباته؟ هل كنت يوما في حساباته؟ هل يتذكّرني أشقائي؟ كانوا يتحدُثون عنّي ليدينوني؛ يدينو لباسي، سمنتي، نحافتي، نهمي، زهدي، جنوني وجرأتي. لمّا تعرّفت على زوجي اجتمعوا وأقرّوا أنّي أصاحب رجلا ماكراً يلعب بي ويتسلّى معي، وأنّي بنزقي واستهتاري أهين شرف العائلة الرفيع! أصبح زوجي؛ وقدّروا أنّه "كثير عليّ"! لم يفكّروا بالأمر طويلا، لست في حساباتهم. سرعان ما اكتشفوا أنّه ليس كريما، خدوما سخّيا؛ كما توقّعوا ولكن لا بأس يكفي اللقب: الصّهر الدكتور؛" يعوزونه في المناسبات الرسمية!"

لما تعرّفت عليه اجتمعوا؛ ولما قرّرت الانفصال عنه اجتمعوا كذلك.

قال زوجي أنّي جننت؛ وأنّي أتخلّى عن أولادي وعنه وهو صاحب المكانة الرفيعة! أستاذ جامعي مهيب، في مادة التاريخ؛ لا يقرأ، لا يناقش، ولا يسأم! غضبه راقٍ، مهيب كلقبه. استدعاهم يوم شعر أنّي عزمت فعلا أن أغادر، وأنّي لا ألعب كعادتي أو أساوم.

وقفت شقيقة زوجي تومىء لأختي السّاكتة وهي غاضبة محتدّة: "هي وابنتها "فلتانين!" يكفي لباسهن البعيد عن الحشمة وسهرهم حتى منتصف الليل!"

قصدت أنّي لا ألتزم بقوانين المجتمع وأعرافه، أو بالقوانين التي يلزمها بها زوجها، الذي تخافه وتخيف بناتها منه.

سكت أخي الأكبر؛ وأخذ يهزُّ رأسه، وهو يفكّر كيف تجرّأت على كلّ هذا، وأنا العاقلة الواعية المتعلّمة! أتخلّى عن بيتي، عن زوجي الذي لم أشكُ منه يوما!

تمتموا، تناقشوا، غضبوا ونسوا. عاد كلّ منهم إلى حياته، وعدت أنا معلّقة بين الحلم والواقع؛ بين الملل والوجع وبين حلم أخالني فيه حرّة!

ها أنا الآن وحدي، كما كنت دائما؛ مسجّاة على سرير أبيض؛ بدون عطر أوخوف. جسدي الذي أصبح جميلا أخيرا؛ ما عاد يخصّني! اعتدت الفقد؛ أفقد كلّ ما أجده جميلاً أوكثيرا.

ها هي شقيقتي عينها، التي تبتلع خيبات خياراتها ووجعها، تبكي وتتمتم:" مسكينة يا أختي! طوال عمرك كنت حنونا طيبة."

سألت: "من يمكث معها؟"

أجابت الممرّضة: "لا أحد، لا تحتاج أحدا".

أخيرا لا أحتاج أحدا! مضحك ومبكٍ هذا!

دندنت أختي بصوت ناحب، كأنّها تندبني:

- هل تتحرّك؟ هل تبدي أية ردة فعل؟

أجابت الممرّضة:

- أحيانا عيناها تنزّان دمعا. بكت شقيقتي؛ (ربّما لامست جسدي) وتمتمت:

- ستموت يعني؟ لا أمل؟

أخافها سكوت الممّرضة. خافت أن تقودها فكرة موتي إلى الغوص بعيدا في أعماقها. هي دوما على سطح ذاتها وسطح الأشياء؛ تتسلّى بالأحداث، تسردها دون أن تحلّلها، تتفهّمها وتفهم ما وراءها. تخشى إن فعلت أن تدين نفسها؛ أن تعي أنّها مسؤولة عن حدث ما في هذا العالم! أقلّه خيانات زوجها المتكرّرة لها، أو حتّى نحافتها المفرطة! تتحدّث عن أسباب خارجية، وراثية، اجتماعية، أيّ شيء إلا أنّها ربّما تكون مسؤولة عمّا يحدث معها ولها. هي "تقوم بمسؤولياتها على أكمل وجه لكن العالم حولها أعوج وأعمى!"

قبل أن تخرج هاربة من فكرة الموت ومن نفسها؛ دخل أخي الكبير. كان يحرّك أصابع يده اليمنى توقا إلى سيجارته التي بالكاد تفارق يده. نظر إليّ مطوّلا بصمت.

هل هو حزين لأجلي؟ نحن من خوف؛ وخوفنا يأكل كلّ مشاعرنا الأخرى. نُظلَم فنَظلُم. الكلّ جانٍ والكلّ ضحية. لم أشعر يوما أنّي جزء من حياته... هل يهمّ أن يحبّني الآخر إذا لم أشعر أنّه يحبّني؟!

شقيقي (كما زوجي) ينطلق من معايير المجتمع في خياراته وأحكامه. لذا كان متعاطفا معه ويغفر له أيّ شيء، كلّ شيء! لمّا أعلمته أنّه يعاشر إحدى تلميذاته؛ قال:

- عادي... أنت السّبب، تهملينه.

ولأنّي دوما مستعدّة لإدانة نفسي، لم أجادله. (خيانات الرجل مبرّرة، نزوات عابرة! خيانة المرأة تهزّ عروش الآلهة!). الغريب أنّي تعاطفت مع زوجي! ربّما هو محقّ؛ كنّا منفصلين جسديا وروحيا؛ شعر أنّه مهزوم، وحيد... عموما لا أحبّ الإدانات الكليشيهات (الفضيحة)التي يتبنّاها مجتمعنا كمادة دسمة للنميمة. كلّنا من ضعف وخوف، كلّنا نهرب، ونتعلّق بما يعيق المواجهة مع ذواتنا! زوجي يخشى المواجهة الحقيقية. كان كطفل أو كمراهق، يعشق الدّخان؛ وكرجل مهزوم يتحدّث في المشاكل السياسية العويصة؛ يشخّص أمراضها، ويضع تصوّرات لحلول مفترضة! لكنّه لم يشخّص يوما مشاكله! يكره التحليل والخوض في كلّ ما يحمله على الدّخول تحت جلده وفي شرايينه؛ على عكسي تماما!

تمتم شقيقي:

"كانت عيناها تحدّقان في السّماء دوما... ها هي ذهبت إلى السّماء أبدا!". تحدّث عنّي وكأنّي ميتة بالفعل! أردف زوجي بصوت منخفض وبمهابة:

"كلٌّ يجني نتائج أفعاله..."

الغريب أنّهم يتحدّثون عن الموت كأنّه عقاب! وكأنّ أحدا ما سينجو ويبقى حيّا، لو لم يرتكب أخطاء!

العالم في أعماقي من بياض، من سكون تام، وطمأنينة غير مبرّرة؛ وعيي يحاول أن يفقه! يريد أن يفهم... يحلّل العالم، يفسّره وأحداثه، يسمو فوقه بدل أن يغرق فيه. أليس الوعي بقايا الله فينا؟

آه... ربّما انتهت حكايتي في هذا العالم؛ وبدأت في العالم الآخر... هذا يعني أنّ هنالك حكايات أخرى. ولكن أليس الله هو المبتدأ والمنتهى؟ هل لا بدّ من عالم آخر بمواصفات أخرى؟ ولكن الصّفة يؤكدها انعدامها! وأنا في غمرة تساؤلاتي، بدا لي كائن ما من غيم، من بياض، موجود وغير موجود كما الله! آه انتهت الحكاية أو بدأت...

"يا شمس... هنا الأسماء لا تجدي كما الصّفات!" شعرت أنّي توق وحسب، وأن بياضا هانئا يبتسم لي، يدنو منّي لأصبح منه وفيه! تململ وعيي، ودون كلام، ودون لغة، الطّيف الذي ليس طيفا والكائن الذي ليس كائنا، بدأ يتلاشى... وكأنّي عدت وحدي؛ وعادت لي اللغة! شعرت بجفاف حاد في فمي.

صرخت أختي:

- إنّها تتنهّد!

هل كنت أحلم؟ تملكني إحساس بالضّيق حدّ الاختناق!

قالت الممرّضة وهي تفرغ حقنة ما في ذراعي: "ستكون أفضل..."

كأنّي رأيت شقيقتي! كأنّي أحلم! كأنّي أستعيد زمانا كان الحلم وحده، فيه، فيض حياة!

قالت أختي يومها: هل تريدون زيارة قصور الأطفال السّعداء الصغيرة المؤثّثة بكلّ ما يمكن أن يحتاجه طفل؟ وصّفت عوالم مصغّرة لبيت مريح من ألوان وحلوى... ولم تنس السيّارات الصغيرة في المرآب! لم تكن التكنولوجيا متطوّرة كما اليوم. الشاشة الوحيدة المتاحة، هي شاشة التلفاز الأبيض والأسود، حيث المحطّات التليفزيونية كانت بعدد أصابع اليد.

كانت منطقتنا شبه مقطوعة عن العالم: لا كهرباء، لاهاتف، لا بنزين، لا خبز... كانت الفصائل الفلسطينية التي معظم عناصرها من اللبنانيين، تعتبر الجنوب ساحة المعركة مع اسرائيل. في غمرة الحلم، وفي عز التخييل، مشينا مع شقيقتي إلى مدينة الأحلام! كنت مأخوذة بالحلم حدّ الابتسام والتيه! كدت أدخل غرفتي في منزلنا المنتظر بعيدا عن الغبار والصّراصير!

سأنام بجسد متمدّد حدّ الإسترخاء التّام؛ وسأتسلّق أشجار الفاكهة التي أعشق وأغرق في أطباق الحلوى التي أشتهي!

كأنّي تذوّقت طعم الحلوى! لكن قبل أن أبتلع نشوتي، عمّ الجوّ وآذاننا هدير ضاغط، سرعان ما تحوّل دويّا! الطيران الإسرائيلي يغزو سماءنا وأرضنا كعادته. كنّا نعرف هذا الدويّ جيّدا ونخشاه. قبل أن تطأ قدمنا مدينة الأحلام والسّلام، صرخت شقيقتي الكبرى:"بدأ القصف... لنعد بسرعة".

أخذت أقدامنا تضرب مؤخراتنا.

لاحقا، اكتشفنا أنّ حلمنا ذاك، لن يتحقّق بسير مع دليل كاذب أو حالم. هل كانت أختي تصدّق أحلامها؟

ها هي تحدّق بجسدي السّاكن... تدينني كعادتها؟ أم يرهبها وعيي الطفولي الصّاخب المتمدّد في أجواء الغرفة؟

مع أنّها بدأت حالمة؛ إلّا أنّها انتهت واقعية حدّ اللّحم والدّم والجسد والهورمونات والدّماغ وآلياته، والكهرباء التي تحرّكه.

سألتني هازئة:

- أنت الواعية والتي قرأت الكثير، تصدّقين فكرة وجود الله وكتبه؟ وتؤمنين به وبها؟ قالت هذا ثمّ ابتسمت مزهوّة. لمحت في أعماقها خوفها من أن أكون على حقّ؛ ومن أن يكون الله موجودا، ويرى كلّ شيء. هاجسها أن يرى الناس ما تحبّ أن تتصف به! "الصّدق سذاجة!" حياة في

الخفاء وأخرى في العلن. "ليس هنالك من إله ليرى؛ الله هو الذّكاء!" وهي ذكيّه بما يكفي لتصل إلى أهدافها!

الآن وأنا مسجّاة أمامها بدون نظراتي، بدون جسدي الذي يضجّ حياة، بدون عينيّ، وبدون حكاياي المختصرة المقنعة، هل ما زالت تخشاني كمرآة لأعماقها؟ أو تخشى أن يكون الله حقيقة؟

قالت لأخي:

- اختارت طريقها... قالتها وهي ترتعد. خائفة من أن أتعملق في أعماقها، أو من أن تكفّ للحظة عن الانشغال بتفاصيل العالم المادي النافقة؛ شعرها، جسدها، خطوط العمر في رقبتها وتحت عينيها؛ مطبخها، وبقيّة أشيائها.

لا بدّ أن تكون دوما متفوّقة في هذا وفي غيره! "هل من شيء خارج هذا؟"

زوجي يقدّرها ومغتبط في لاوعيه لأنّها تدينني؛ تؤكد أنّه ووعيه وأفكاره بخير؛ وأنّي متطرّفة، غير واقعية، خائنة، ماكرة، أنانية، حمقاء ساذجة وصفات أخرى تخفّف ثقل المواجهة الممكنة والتي لن تكون، مع ذاته...

الفصل الخامس

الصّراط اللّعين

اخترع الإنسان الآثام ليهرب من قلقه الوجودي...

"أن أكون كاتبة، يعني أن أكون وحيدة فاشلة، أرصد عوالمي الدّاخلية حيال العالم والأشياء؛ ويعني أن أقرأ كتبا كثيرة، وأترصّد مشاعر فاشل آخر مثلي عجز عن أن يكون في خِضمّ الحياة!"

كنت في المدرسة أرقب ما ومن حولي؛ في الحقل، أرقب الضفادع والزّهور، والهواء؛ أرقب الشّارع والمارّة؛ أرقب أمّي وحدها وأبي وحده وأرقبهما معا في السّرير!

كنت أرصد أمّي وحكاياها المكرّرة مع جارتنا عن زواجها المبكر، وعن عفّتها، وبراءتها... لم أكن أعي أنّي سأكتب يوما ما أراه وما أسمعه؛ رغبت أن أعرف وأن أفهم وأن أقلّدهم حتّى يكفّوا عن نعتي بالخرقاء!

الغريب، أنّي عندما راقبتهم وجدت أنّهم أبعد ما يكونون عمّا يطلبونه منّي! تقول أمّي: "لا تكذبي!" وتكذب دوما. وتقول: "حذار من السّباب والشتائم!" وتشتم وتسبّ. كانت وصيّتها الكبرى الحرص على عدم العرّي، وها هي اليوم عارية تماما والمشهد كامل أمام عينيّ!

كنت أتلصّص على العالم من شاشة التلفاز، أشاهد فيلما مصريا، العالم فيه كما أتمنّاه: منازل نظيفة جميلة مرتّبة، حكايات حبّ ساحرة، ثياب أنيقة؛ عالم حتّى البكاء فيه مبهج! فجأة استيقظ أبي، كانت غرفته هي

عينها غرفة الجلوس حيث التلفاز. صرخ:" ماذا تفعلين حتّى هذا الوقت المتأخّر؟ تشاهدين أفلام "الزعرنات"؟ هيّا إلى النّوم!

كان تبقّى من الفيلم المشهد الأهمّ الأخير. دخلت المطبخ لأفتّش عن شيء آكله وإذا بي أسمع صوت التلفاز. لقد فتحه أبي من جديد؛ ها هو الفيلم عينه بمشهده الأخير!

مشيت على أطراف أصابعي، وقفت قبالة النافذة التي تطلّ مباشرة على التلفاز، وكلّي حماس ورغبة لرؤية المشهد! مشهد آخر دون أن أشعر سحب عينيّ: أبي عار تماما بعينين حمراوين، وأمّي عارية تماما، جسديهما متلاحمان! لا أدري... كأنّي شممت رائحة عرق، رائحة سوائل غريبة، رائحة خطيئة، رائحة صداع، رائحة دوار... كيف أنهض؟ كيف أغادر؟ جسدي الضئيل بات ثقيلا، أثقل من كلّ هواء الكرة الأرضية! شعرت أنّي أختنق.

كيف وصلت إلى فراشي الذي يكاد يكون متساويّا مع أرضية الغرفة؟ كيف أسدلت رجليّ ويديّ على الأرض؟ كيف نظرت إلى السّقف المنخفض فوقي؟ كيف جفّ لعابي وكيف تطابق المشهد في مخيّلتي مع العقاب الشّديد الذي نلته من أمّي يوم خلعتُ سروالي مع بنت الجيران؟ أمّي خلعت ثيابها كاملة! لم ألمح أمامي حبّا، لم أر قبلات كما في الأفلام، لا بل رأيت أجسادا تندلق، تتوه، تتداخل تضيع! ورأيت أنّي الطفلة الأكثر إثما في العالم!

لا أعرف إن نمت بعدها، أو حلمت، لا أذكر؛ لكن ما أذكره جيّدا أنّي ابتلعت لساني، وأنّي في اليوم التالي أصبحت كمشدوهة: سكات وشبه كلام وحدي مع وحدي، مع عمود على الطّريق، مع نجمة، مع سماء المفترض أنّ الله يملأها بجسده ويديه وعينيه، فهو يرى... ويرى.

لمَ لا يراني؟ لم لا يلحظ أنّي تعيسة جدّا؟ لم لا يعرف أنّي تائهة أبحث عن طريق؟ لم لا يعرف أنّي أعاقب على سذاجتي وبساطتي وعلى عدم إتقاني الكذب والنّفاق؟

هل تكفي البسملة ليذهب الخوف؟ عليّ أن أتطهّر! أحتاج مطرا غزيرا يغمرني ويطهّرني!مشيت تحت المطر وأنا أشهق قطراته التي امتزجت ودموعي وأفكاري وهواجسي. أحدّ في العالم لم يلحظني! أنا دوما خارج العالم! أين ذاك المطر الذي أعاد لي الشّعور أنّي حيّة؟

حكاية لبنى

لمّا رأيت عمر أوّل مرة، وجدتني، دون وعي، أرتدي وجه أمي وحكايا أخواتي عن الصّبر والعفّة والأمومة والشّرف؛ أردت التكوّم على الأرض، لطم وجهي، والبكاء حتى آخر البكاء... تعلّمت جيّدا الخوف من الحياة، من التجربة، أيّة تجربة. كان عمر مبتسما كطفل؛ وكنت حزينة كثكلى بألف طفل! "أزف الوقت. لا تكوني أمّك... لا يجدي الانتظار!" لم تنجدني وقتها هذه الأفكار، ولا حتّى فكرة أنّي أحبّه منذ كنت أنثى؛ كان يشغلني ألف هاجس! تتردّد في ذهني الحكايات النمطية الغبية: "أنت أمّ وانتهت الحكاية. كوني تلك العنكبوت التي يأكلها أطفالها أو أقلّه تلك الهرّة التي لا تنفك ترضع صغارها على وهن..."

نحن لا ننفكّ نبحث عن مثال وقدوة... نحذو حذو السابقين ونتشاوف بخوفنا من ابتداع التجربة والطّريق.

قالت لبنى:

- أنا تعيسة جدّا يا شمس. أنا أكثر النّساء تعاسة مع أنّي أكثرهن ذكاء...

غير قادرة على التركيز؛ أمسك أوراق القضايا وأرميها... لا أنام! أقضي ليلي مع الفستق والكاجو والشوكولا! أمضغ كلّ هذا بشدّة محاولة مضغ حزني وابتلاعه. لكن لا جدوى! أزدرد حبة ليكزوتانيل لأنام بعدها كجثّة. قولي لي يا شمس كيف أنجو من هذا؟

كنت أصغي للبنى وأنا أزدرد غصّتي:

- لماذا تصرّين على معاقبة نفسك يا لبنى؟ الأمومة ليست عقوبة أو عقابا.

- أمّي تخلّت عني وأنا طفلة بعمر شهرين يا شمس، لا أريد أن أصدّر إلى أولادي الألم الذي صدّرته أمّي إلي. سيأخذهم أبوهم منّي وسيتألّمون كما تألّمت. لن أسمح بهذا.

- ألا تستطيعين أن تجدي مخرجا قانونيا للمسألة وأنت محامية؟

- وفقا للقانون، في هذا العمر، سيكونون في عهدته. كما أنّي لا أريد إيذاءه. لقد أحبّني وأحببته؛ لم أعرف رجلا سواه!

كنت أهدأ عندما يحتضنني. العالم كلّه كان باردا إلّاه! تزوجته لأجل هذا الشعور وحسب! لم أفكّر بوعيه، بمستواه التعليمي، الاجتماعي... اشترى منزلا وأرادني زوجة حبيبة؛ وافقت. سافرنا إلى ماليزيا لقضاء شهر العسل، وكنت سعيدة. دخلنا غرفتنا في الفندق؛ قبّلني كثيرا في كلّ مكان من الجزء العلوي من جسدي؛ كنت منتشية تماما! لكن ما إن امتدت يده الى المكان الذي ما بين فخذيّ محاولا أن يخلع عنّي سروالي التحتي، حتّى امتلأت خوفا. شعرت أنّي أتحوّل قذرة!

سألتها عن طفولتها على طريقة فرويد، فأجابت:

- جدّتي التي تكفّلت بتربيتي، كانت تخيفني كثيرا من ذاك المكان الغريب المحرّم. أجرؤ الآن أن أتذكّر ما حاولت دوما أن أنساه: أنا وأخي الذي يكبرني بعامين، كنّا معا دوما وفي كلّ مكان. كان الأقرب إلى قلبي وروحي وجسدي. لا أعرف كيف حصل، كان عادة يقبّلني كثيرا! لكن تلك المرّة، خلعنا ثيابنا كاملة. دخلت جدّتي، هالها المنظر، وبخّتني توبيخا شديدا؛ لم تضربني؛ ولكنها طلبت منّي ألاّ أكررها إطلاقا وهي بالمقابل لن تخبر أبي. أبي الذي كنت أخاله إلها لا يخطئ. أردت صورتي أمامه نقيّة؛ لكنه عرف وزجرني قائلا: "تافهة كأمّك!"

لزمت الصمت أنا وجسدي!

لا أنسى تلك الكآبة الكافرة التي لازمتني وأنا في السّادسة عشرة من عمري، كآبة لم أعرف لها سببا ولا منتهى! حزني حال بيني وبين المذاكرة؛ أنا التي اعتدت التفوّق لأرضي أبي العظيم! (اكتشفت لاحقا أنّها أخفت عنّي حماقات أبيها الجنسية!)

لا أريدني "تافهة" كأمّي التي لم أعرف. تجاوزت هذا الحزن أو تكيّفت معه، وكنت وفيّة جدا ودوما لوعدي المكتوم! لم يكن في حياتي أية علاقة قبل خطوبتي. لم أعرف جسدي ولم أحاول التعرّف عليه. بما يخصّ الحبّ وحكاياه، لم أخبُره قبل سن الثلاثين. عرفته مع زوجي.

تمتمْتُ:

"الأمومة استفاقت. تهجع المشاعر الجنسية وكذلك الأمومة، لكن في عمر معيّن تتفجّر قويّة، لا تقاوم."

سألتها:

- في فترة الخطوبة لم تكن بينكما علاقة جنسية؟

- بلى. لكن كان متاحا له نصفي الفوقي فقط...

- لم تشعري بنصفك التحتي؟

- لا أعرف. لم يُتح لي أن أعرف. تعرفين ماذا فعل في ليلة الزفاف؟ تركني وأدار لي ظهره. تكوّمت على الأرض أبكي. لم يبال! أكمل نومه بهدوء حتّى الصباح.

- لم يحادثك في هذا؟

- لا. كان في فترة الخطوبة يقول لي: "أنا أحبّك لأنّك شريفه عفيفة، طاهرة. ثلاثين سنة ولم يقبّلك في فمك أحد قبلي وسواي ولا حتّى أمّك!" كان مزهوا بعفّتي. لماذا فجأة يا شمس بات يزعجه حفاظي على شرفي؟ لم أفقه ماذا عليّ أن أفعل! كنت أخشى لو تركت له نفسي، وجسدي بدون مقاومة، ألّا يحبّني بعدها.

لم أفعل شيئا سيئا! فقط طلبت منه ألا يخلع عنّي سروالي التحتيّ، ليلة عرسي.

- ضحكت حينها كخبيرة متناسية وناكرة خيبتي التي تشبه خيبتها نوعا ما.

- وماذا حصل بعدها يا لبنى، بعد ليلة العرس؟

- بتّ أسمح له أن يخلع عنّي سروالي. لكنّي لم أشعر يوما بما يسمّونه الأورغازم. لا أعرف كذلك إن دخلني عميقا يوما ما، كان الجماع مؤلما حدّ الصراخ!

-استشرت طبيبا في موضوع الألم؟

- نعم، قال أنّه بسبب المضاجعة المتأخّرة وغير المتواترة. زوجي بالكاد يلمسني.

- وكيف حملت بولديك؟

- صدّقيني. لا أعرف. أثناء حملي بطفلي الأوّل توقّف كلّيا عن معاشرتي بدعوى أنّ هذا يؤذي الجنين. قال هذا وصدّقته دون مناقشة.

- هل يعقل ألّا تبحثي في هذا وألّا تسألي؟ وكيف أنجبت طفلك الثاني؟

- كان يقترب منّي، مرّة كلّ شهر أو شهرين؛ يقبّلني كثيرا، وبغتة وأنا في عزّ احتياجي له، يبتعد عنّي؛ عبثا بعدها أحاول إثارته.

كان عصبيا في معظم الأحيان؛ وخاصة بعد أن فشل مشروعه التجاري، وساءت أوضاعنا الإقتصادية؛ حينها لم أكن أزاول مهنتي؛ تصاعدت عصبيته حدّ الضرب والسّباب والبصاق!

- ولماذا تتحمّلين كلّ هذا وتحمّلين أولادك عبء الحياة في بيت تعيس؟

- لا أريد أن يأخذ منّي أولادي. بدوني سيكونون تعساء...

وقرّرت لبنى أن يبقى الوضع على ما هو عليه! وأن تكتفي بالحديث عن مشكلتها معي ومع صديقاتنا دون السّعي إلى حلّها.

كنّا نضحك طويلا من سذاجتها في ما يخصّ الجنس. (الحديث في الأمور الجنسية يستدعي الضّحك والبهجة، تفريغا للكبت ربّما!)

سألتها إحداهن: ألم تقبّليه في ذاك المطرح و... وقبل أن تكمل صديقتنا سؤالها؛ ركضت لبنى مع علامات اشمئزاز وقيء على وجهها مسرعة إلى الحمّام. لمّا عادت، سألتني بهدوء (تثق بي كثيرا):

- هل هذا الذي ذكروه، طبيعي ويحصل مع النساء المحترمات يا شمس؟

ضحكت وقلت لها:

- يحصل يا لبنى.

أردفت صديقة أخرى:

- ألم يقبّلك يوما ما هناك؟

كانت لبنى تصرخ مستنكرة وصديقاتي يقهقهن أعلى وأعلى. وتشرح إحداهن لها آلية الجنس الفموي وأهمّيته بالتفصيل الممل، فتصغي لبنى بوجه ممتقع (أو ربّما مستمتع)، ولا تنفكّ تسألني:

- هل يحصل هذا فعلا يا شمس؟

- يحصل يا لبنى.

أردّد لها هذا بثقة العارف الخبير، أنا التي تشعر بالذنب وبالإثم بعد أيّة علاقة غير مضمّخة بمشاعر الحبّ والرغبة، والتي تخجل من تسمية الأعضاء الجنسية بأسمائها.

أنا مثلك يا لبنى أخشى أن أكون "زعرة". لكنّي تجاوزت الكثير، ممّا لم تستطيعي تجاوزه كما أزعم.

لكن بقائي زوجة مع وقف التنفيذ وحبيبة مع وقف التنفيذ؛ ألا يدلّ على أنّ الكبت الجنسي الذي يهلك صديقتي لبنى، عاد يسيّرني ويتحكّم بي؟

لبنى لا تستطيع أن تتخيّل نفسها تمارس العادة السرية. اقترحتها عليها إحدى صديقاتنا المطلّقات كحلّ مريح اعتمدته في حياتها بعد طلاقها.

تساءلت الصديقة عينها مستنكرة: "هل أتحمّل قرفه وخياناته لأجل لذّة عابرة، أستطيع أن أحوزها وحدي بإصبعي هذا؟"

أثار هذا التصريح الجريء دهشة لبنى واستياءها؛ بينما حملني على التفكير بالمسألة بجدّية أكثر مع أنّي ناقشتها مع صديقة ابنتي يوما. لكنّي

كنت كلبنى لا أتخيّل نفسي قادرة على ممارستها، رغم شعوري الشّديد بالحرمان!

حضرت في خاطري قصة "بئر الحرمان" لإحسان عبد القدّوس التي قرأتها باكرا جدّا: الأب كفّ عن معاشرة الأم، ممّا سبّب عقدة لابنتها. القدّوس مولع بحكايا التحليل النفسي التي كنت أصدّقها في مراهقتي، والتي بتّ أجدها الآن مركّبة ومفتعلة، تقوم على المبالغة والحتمية، كأنّ الإنسان مجرّد حيوان...

أوقعْتَ قلبي!

لا بأس لو أنّ بعض العمر مضى، أنا أستطيع دوما أن أرقص! سأبكي، وأدخل تحت إبطه، قرب عطر الحياة فيه... لن يتركني أموت، لن يتخلّى عنّي.

لا أفقه كثيرا ماذا يحصل في العالم، وفي بيتي أو في جسدي! أفهم أنّي أريد أن أرحل بعيدا، أغادر الحزن وهنا، وأعدو إليه كما تعدو طفلة إلى حضن أبيها غير آبهة ببقية العالم.

أرتديت بنطالي الجينز الذي يشعرني أنّي رشيقة خفيفة، وقميصي الأبيض الحريري. لم ألتقِ بعمر يوم كان يُفترض أن ألتقيه، قبل عشرين عاما. سأفعل اليوم بروح تلك الصبيّة الحالمة غير الملوّثة بالخيبة والواقعية النفعية. انتقيت حمّالة صدرسوداء تبرز جمال ثدييّ وسروالا داخليّا ملائما بذات اللون، الأسود.

سأحمل له الشوكولاتة! وماذا أيضا؟ أشعر أنّي أذهب الى رحلة في الفضاء! ليس من أفق واضح أمامي؛ أريد أن ألتقيه وحسب!

لماذا لا أستطيع أن أقرأ؟ لا أستطيع أن أسمع موسيقى... أصوات من كلّ حدب وصوب في داخلي: "هل أنا فعلا أتخلّى عن أمومتي وأولادي؟ هذه مسلّمات في حياتي وليست خيارات. دعكِ من هذه الأفكار البلهاء! ألسْتِ القائلة أنّ هذه المعادلة المكرّسة في وعيك وفي لاوعيك كامرأة، لتكوني جسدا ومطية وضحية، معادلة غبية خادعة وكاذبة؟ الحياة لك وحقّك بكلّ تفاصيلها! جسدك لك، الدّهشة لك، الرّغبة لك، النشوة لك، الفضول، البحث والحلم... من حقّك أن تطيري إلى السّماء السابعة، وأن تحطّي بين ذراعيه مبتسمة!

عقلك يستعيد تحذيرات زوجك وأمّك، ودروس الأخلاق الدينية النمطية... في كلّ الأوقات لم تكوني نفسك! بعد نهار طويل تنهين عملك

خارج المنزل، وتعودين إلى المنزل أمّا تطبخ وتغسل وترعى وتدرّس وتحكي حكايا وتحمل طفلها إلى الفراشة والوردة؛ وتصنع له سريرا وحلوى؛ توضّب ثيابه ومخاوفه."

بعد يوم شاق كهذا، جسدي فيه لم يكن لي للحظة، عقلي يفكّر إبّانه طوال الوقت باحتياجات أطفالي وهواجسهم؛ كنت أحتاج بشدّة أمانا وغفوة طمأنينة. أعدو إلى زوجي، أتعلّق بعنقه متمتمة:

"أريد التكوّر فيك وجنبك، أحتاج أن تمسّد شعري وظهري!"

كان حينها يريدني امرأة وحسب للتوّ! وكنت ألبّي، لأنّني امرأة. لكن وأنا في عزّ غيابي فيه، كان ينكزني بصفاقة: "ابنك يا شمس... اِصغي..." أُصغي؟ أصغي لمن ولماذا؟ آه... أنا أيضا طفلة كانت تبحث عن أمان تحت قدميّ أمّها، ولم يكن متاحا... عن نظرة عشق حانٍ مجّاني في عينيّ أبيها، ولم تلمحها... عن يد أخيها تدعمها وتدفعها، ولم تكن حتّى حلما؛ عن كتف تتكئ عليه مع زوجها ولم تجدها!

نعم... لم يكن رجلٌ في حياتي!

هل سيكون عمر ذاك الكتف الذي أتكئ عليه ولو للحظة؟

تركني قبل عقدين...

"أيّامي من خيبة وفشل ووجع، ليس عندي ما أقدّمه لك أو للعالم" قال لي.

أقول لك يا عمر: "في هذا العالم، لا نحتاج الكثير كما نعتقد، نحتاج فقط يقينا وحلما ويدا تأخذ بيدنا وتصدّق معنا أنّ في مكان ما لا بدّ من نور! نخاف معا، نبكي معا، نضحك معا، نقع معا في الوحل وبين حنايا عشب مخمليّ في حقل سعيد... أخشى يا عمر أن تتخلّى عنّي. لا أريد الكثير، أريد كتفك وحسب لأغمض عينيّ بهناءة..."

عقلي لا يجد مطرحا يسكن فيه. لم يهدأ للحظة حتّى وصلت إلى المطار. المفترض أنّه ينتظرني. لا أعرف ملامحه جيّدا؛ لا أعرف منه سوى

حزنه المبعثر في قصائده، والمنفى الأبدي الذي حدّثني عنه في رسائله الأولى. أعرف أنّه رجلٌ عاديّ وجدّا بشكله أو... لا أعرف!

وقفت وحدي كأنّي طير بدون ريش أو أجنحة، أرتعش! كنت أحاول ألا أفكّر بالطريقة التقليدية، أن أكون نفسي وحسب! وهربا من التساؤلات والتحليلات؛ هاتفته:

"أين أنت؟"

كان أخرقا كطفل يتيم قست الحياة عليه. تمتم:

"دقائق وأكون عندك."

الدقائق كانت كساعات! لا أريد أن أفكّر؛ أريد أن أعيش؛ أن أكون كلّي مرئية! يحسّني الآخر كما أحسُّه، يملأ عينيّ وأملأ عينيه.

وصل عمر. نظرت إليه؛ حاولت أن أرى تفاصيله دون أن يشعر أنّي أتفحّصه. أردت أن أتأكّد؛ هل هو فعلا الرّجل الذي أحبّ وأريد؟ جسده غريب! صوته ليس ذاك الذي أعرفه! لكن حنوّ عينيه وابتسامته، أعرفهما. لم يحمل لي زهورا، ولم يُبْدِ فرحته؛ شعر بحذري وخوفي، وبالتساؤلات التي تعصف برأسي. أرادني مرتاحة وحسب؛ وأراد كذلك أن يقدّم نفسه بصدق مطلق!

سألته:" هل تعرف فندقا ملائما؟"

طلب من سائق التاكسي أن يصحبنا الى فندق سمّاه له. جلس جنبي؛ بدأت تظهر عليه علائم الفرح؛ كأنّ جسده في لحظة استعاد كلّ رغباته المنسية! جسده، ملامحه... كلّه كان يحتفي بي رغم أنّه لم يمسك يدي! سألني:

- هل تحبّين أن تتعرّفي على المكان الذي فيه أقيم؟

- لا...

كنت أرتعش. أفكر بآدم؛ وأخشى أنّي فعلا أمّا تخلّت. تلك الأفكار الغبيّة، أفكار أمّي التي ماتت وهي تردّدها: "رجلك قدرك... وقدر المرأة

أن تربّي وتكبّر وتحافظ على بيتها وعائلتها... الرّجل طفل صغير، اضحكي عليه وسيكون خاتما في إصبعك... وها أنا تحمّلت أباك عمرا كاملا... أبوك علقم وتحمّلته... وأنا أكره الرّجال وأكره كلّ من يرتدي بنطالا...!" كلّ هذا وسيل من الجمل والحكايات! ابتسمت:

"لن أكون أمّي! لن يكون رجلي قدري! سأرسم قدري وفقا لإرادتي، لرغباتي ووعيي وحدي.

كان عمر هادئا، ساكتا. سألني بعد أن وصلنا الفندق:

"ترتاحين وحدك أم أبقى معك؟" نظرت إليه عاتبة. أخذ يدي واعتذر. شدّ يدي بدفء ورغبة وقال بحنوّ شديد: "شمس... أنت روحي، لكنّي اعتدت ألّا آخذ وألّا أنتظر من الحياة الكثير".

انتظرني في الصّالة. غيّرت ثيابي: ارتديت فستانا طويلا حريريا مكشوف الصّدر، وحذاء خفيفا زهريّا مناسبا، حملت حقيبة يدي الصّغيرة ونزلت. وجدته مطأطئ الرأس، ثيابه كثياب نبيّ؛ كلّه زاهد كما ملامحه. دنوت منه؛ قال: "أنت ساحرة يا شمس!"

سرنا معا. كان جسدي وجسده يتقاربان بلذّة غريبة. أمسك يدي وأنا أقطع الشّارع. تركتها له وأنا أشعر بأمان تقت له من قبل أن أولد. ابتسمت وتذكّرت أحمد، صديقي الذي كان مشروع حبيب في الجامعة؛ تذكّرت لمّا أخذ يدي، كيف ارتجف دمي. خفت، خفت من الأمان الذي لم أعتده، من المتعة التي كنت أخالها محرّمة؛ سحبت يدي من يده على عجلة... لن أسحبها من يد عمر. دنا كتفي من كتفه؛ كلّ ما فيّ يناديه وكلّ ما فيه يناديني. غادرته مسحة النبوّة والحزن وغادرني الخوف والشكّ؛ عاد طفلا رجلا، وعدت طفلة أنثى.

مشينا طويلا؛ وتوقّفنا مرارا. مرّة أمام محلّ عصير، وأخرى في فيء شجرة مدهشة! شجرة دافئة ورحبة كوطن! لم أر في حياتي كمًّاً من العصافير في

مكان واحد كالذي رأيته فيها وعليها! العصافير تزاحم الأوراق على أغصانها. رفعت رأسي إليها طويلا؛ رأيتها جليلة، جميلة! رأيت الله فيها أو فوقها؛ ورأيتني فجأة بلا أحزان، بلا أثقال، بلا ذكريات وبلا خوف! سماء وطيور ويدي بيده، وكتفي يلتصق بكتفه وابتسام وزقزقة حياة في كلّ مكان! مكثنا قليلا تحت الشّجرة، ثمّ سرنا من جديد، ونحن متلاصقي الأيدي والأرواح. ساعات مشينا، نقول كلّ شيء ولا نقول شيئا! كان الوقت سعيدا بنا!

دخلنا بيته المكوّن من غرفة ومطبخ وحمّام.

قال شمس:

"تتزوجينني؟" قالها وهو يمسك يديّ الاثنتين.

"أنا لم أعرف امرأة معرفة حدّ التلاشي قبلك! كأنّي ادّخرت نفسي لك.

رأيتِ تلك الجارة كيف ترمقني، وكيف لاحقتك بعينيها؟ عبرتحيّتها الممطوطة، أرادت أن تقول لك أنّي لست رجلا!" قال هذا وضحك.

تابع:

"في مساء ربيعي دافئ، طرقت بابي وهي تتلوّى. سألتني: "عمر... أجد عندك في المطبخ قدّاحة أو علبة كبريت؟ قبل أن أجيب، اجتاحت المطبخ وهي تتمتم: "منزل بدون امرأة سيكون دوما من فوضى وصقيع!" ودنت من السّرير تسوّي شراشفه وتلتقط الكتب المبعثرة جنب الوسادة وفي كلّ مكان. قالت وهي تبتسم: "عمر هل تنام مع الكتب؟" وضحكت بغنج ودلال مبتذلين. كنت مسمّرا على الباب. لا أخفيك يا شمس؛ دماغي امتلأ حرارة كما جسدي؛ لكن شيء ما في أعماقي انتفض. وقبل أن أفتح فمي، خلعت ثوبها ورمته على السّرير؛ أصبحت عارية تماما! وفي لحظة وبينما عينيّ تلملم بعضا من ملامحها؛ صدرها، بطنها، ما بين فخذيها؛ هرولت دون تفكير، حملت ثوبها من على السّرير ورميته عليها وقلت لها:

"تفضّلي!"، فاتحا الباب وواقفا بمحاذاته. نظرت إليّ باستهجان واستخفاف؛ وقالت الآن تأكّدت: "لست رجلا... أتعبت نفسي معك بدون طائل!"

لا أعرف يا شمس؛ هل هي تربيتي الدينية، أو الأنا الأعلى المتعملق في أعماقي؟ ربّما هو احترامي لجسدي... لن أطيل... أنا أحبّك كثيرا، وأريدك كثيرا. أريدك زوجتي الآن وإلى الأبد أمام الله، وأمام نفسي، وأمام العالم. تتزوجينني؟"

نظرت إليه بحزن شديد؛ ماضيَّ معشّش في أعماقي! أولادي وذاك العالم الذي كنت فيه عمرا كاملا. حتّى زوجي الذي تطلّقت منه منذ ثلاث سنوات، ساورني شعور أنّي أخونه! جلست على السّرير، أبكي وأسرد عليه حكاياي... حدّثته طويلا وكثيرا عن طفلتي التي فقدتها باكرا جدا؛ عن الموت الذي منحته لها وأنا أعتقد أنّي أمنحها هي وأشقاءها كلّ الحياة! بكيت وحكيت وهو لا ينفكّ متمسّكا بيديَّ؛ يتركهما للحظة ليمسّد شعري أو يمسح دمعي، ويعود ليأخذهما، يقبّلهما، ومن ثمّ يقبّل رأسي، ويحتضنني كلّي. ظللنا على هذا الحال، حتّى استسلمت للإنهاك، ودخلت في ما يشبه غيبوبة. أذكر أخيرا أنّي تكوّرت فيه وأذكر أنه قبّلني، وأذكر أنّي شعرت أنّي أريده بشدّة.

التصقت به تماما؛ وكانت موسيقى كونية وألوان دافئة ولحظات خارج الزمن. لم أدرِ ماذا حصل. كنت منتشية تماما حدّ الغياب. غفوت للحظة أو لساعة، أو... لساعات. لست أدري! لكنّي استيقظت وهو جنبي عار تماما وأنا بثيابي كاملة. التصقت به بشدّة؛ أدخل رأسه في صدري. قبّلني في كلّ مكان بشغف وبهجة ولذّة... دخلته أو دخلني، كنته أوكانني! كنّا معا من نشوة وغياب.

استيقظت صباحا خائفة، مرتعبة؛ عدت تلك البكّاءة. أخذت أبكي كأنّي ارتكبت المعصية الأولى! وعيي، عمري، خبراتي، كلّ هذا تلاشى! قبّل وجهي وعينيّ وبكى... بكى فشله وبكى غربته وبكى عجزه عن إنقاذي. قال:

"شمس لن تهزمنا قيم هذا العالم المختلّة"

أخذ ورقة صغيرة وكتب عليها: "أنت زوجتي أمام الله، وأمام نفسي وأمام العالم" وأتى بدبّوس. نغز إبهامه ووقّعها بدمه. رغم هذا، كنت ساهمة، كلّما خطر لي طفلي أرتعش وأتساءل:

"لماذا يالله أنا لا أستحقُّ الطمأنينة الكاملة؟ لا أريد الكثير. لا أعرف إن كنت فعلا لا أريد الكثير! أنا التي اعتادت الحياة المرفّهة والعطور الغالية الثمن؛ ماذا أريد؟ هل أردت جسده؟ هل أردت الهروب؟ هل أنا أحبّه؟"

نظرت في عينيه، وددت لو أقيم هناك أبدا. قبّل يدي، قبّلت عينيه. أغمضت عينيّ؛ فتحتهما، وأنا أسمع آدم ينادي: أمّي هل القلوب تقع؟

سألته: ماذا جرى؟

قال: وضعت شريطا لاصقا شفّافا، على مدخل الحمام. دخلت سيدرا أوّل ما استيقظت وبالكاد كانت تستطيع فتح عينيها؛ تعثّرت قدماها وسقطت. كنت وراء الباب، بقناع السّاحرة الشريرة؛ صرخت فيها بأعلى صوتي. صرخت هي بدورها:

أوقعت قلبي...

حكاية الخياطة

حدّثني الله مرارا؛ ويوم ألحّيت عليه كموسى طالبة أن أراه؛ تبدّى لي في حلم؛ شبيها بالغيم متمدّدا في السماء، جبّارا، لامبالياً بآلامي وآلام الكثيرين. علينا أن نطيعه ونطيع أولياءه وأسياد الأرض والملوك والسّلاطين، والعادات، والأهل، والمجتمع... أكره الانصياع! دجّنني خوفي على أطفالي، وتقاطر وجوه اخوتي، أبي، أساتذتي... كانوا يزجرونني بلا هوادة. بتّ أنتظر أن أُزجَر! تزوّجت لأُكافأ!

وأنا مع عمرماذا سيحصل؟ سأُزجَر، وأُرجَم وأُلعَن. آكلني الخوف، أردت الاختباء من وجهي من وجهه، من وجه العالم... هل أقتل نفسي؟ سأمشي، وأمشي ولتتآكل أحذيتي وخوفي. هل التقيت عمر فعلا؟ أو أنّي ما زلت أحلم وأهوّم؟ لماذا أنا دوما بين الوجوه الكاذبة؟

لن أموت على الناصية كالخيّاطة.

حكت... والخيّاطة، تسمع كثيرا وتحكي كذلك كثيرا. حكت لي وجعها اللامتناهي وقهرها لجسدها وشبابها الذي لا يعوّض. كانت أمّا وحسب؛ أمّا تجلس على ماكينة الخياطة، طوال النهار، حتى الإنهاك. أفواه صغارها فاغرة، وعضو زوجها الذكري فاره!

"تعرفين يا شمس؟ كنت طوال حياتي مخطئة. فاتني الكثير من اللذّة، أو اللذائذ! زوجي كان فحلا فعلا وأنا لم أفقه هذا. كنت أعشقه كثيرا ولا أفهم أو لم أفهم شرهه الجنسي. هجرته بعد أن تزوّج أوّل أخرى. فوجدته يتزوج ثانية وثالثة وكثيرا ويجامع زوجاته، جميعهن؛ وأنا أعتدّ بكرامتي وأجمع المال. ها أنا اليوم ستينية. أتأسّى على عمري وماضيّ العفيف الغبي!"

وتضحك وهي تقول:

"صدّقي! في حرب تموز، تعرفينها جيدا، وتتذكّرين ضراوة الهجوم الاسرائيلي وتواتر ضربات مدفعياته وطيرانه؛ كانت بيوتنا تهتز، كما عوالمنا بأكملها. هل تعرفين يا شمس كم كنت غبية حينها؟ تركنا منزلنا، أنا وأولادي وزوجته الثانية وأولادها. تعرفينها تلك العفنة هي وشعرها وما بين ثدييها وما بين فخذيها... بعد أن نجحنا في الوصول الى الجبل؛ تمدّدنا في غرفة في مدرسة الواحد جنب الآخر؛ وفجأة وبالكاد كنت أغفو، شعرت بيد تنكزني في ما بين فخذي. "هيّا قومي"، همهم، "فهو قد قام" (يقصد عضوه). كانت عيناه حمراوين، شفتاه متدليتين، ويبدو غير قادر على الانتظار! شعرت أنّني اريده، أريد أن أضاجعه؛ لكن صورتي كامِراة محترمة، أولادي حولي وأولادها... والمدرسة التي تضج بالمهجّرين، كلّ هذا جعلني أقول له: استحِ يا رجل!

لربّما أردته أن يصرّ، وأن يقفز فوقي، حتّى أنسى عقلي! وقبل أن أتمادى في دلالي، قفز فوقها مهمهما: "لا تريدين... طوال عمرك امرأة غمّ وطنين!"

سمعتها تتأوّه، وسمعته أو شعرت به يدخلها بقسوة متأرجحا، يعلو ويهبط، ويأكل فمها ووجهها وثدييها وأنا آكل حسرتي... حينها بكيت، بكيت كثيرا. نمت باكية. هل تدرين يا شمس؟ اليوم أنا أشعر أنّي كنت غبية طوال حياتي. لم أتزوج غيره ولم أستمتع معه أقله بعضوه الذي كان يباهي في انتصابه أصدقاءه؛ يراهنهم أنّه قادر على الانتصاب ساعة يشاء! صدّقي كان كذلك؛ قبل أن ينهي التحدّي ينتفخ بنطاله، حتى يكاد أن يتمزّق! كلّ هذا وأنا غافلة وأنتظر! ماذا انتظرت؟ أن يكون لي وحدي؟ تزوج اثنتين وثلاثا. جسدي ذوى، ورغبتي خفتت، أو انطفأت؛ ذهب عمري هدرا حفاظا على كرامتي المزعومة! المرّات التي نمت فيها معه، هي فقط بعدد ولاداتي. هل رأيت يا شمس كم كنت ظالمة في حقّ نفسي؟

هل أنا القوية الواعية، سأنتهي نادمة، ناحبة كصديقتي الخيّاطة؟ مفزع هذا السّجن! عليّ أن أنجو. علي ألّا أخشى إلّا أن أموت حيّة.

عواطف

- أنت يا شمس تقيمين على الأرض، لصيقة بها وبتفاصيلها. نحن من خيال، من توق، من معنى نتخيّله، نخترعه ونعشقه. صحيح أنّنا اخترعنا الله، ولكن هل نستطيع أن نكون بأمان في هذا العالم إن لم نتخيّل، نتخيّل الله ونصدّق أنّنا في عينيه؟ أنت خائفة أبدا... مسكونة بهاجس الخطأ والصّواب.

أحيانا كثيرة لا نصغي سوى لأنفسنا؛ ننصت لنقول وليس لنصغي. كنت أسمع عمر وحسب.

قلت وأنا أعتقدني نبيّة، أوتيريزا جديدة:

- الحياة ياعمر قبل الأمومة تختلف عنها بعدها. أستطيع الاستقالة من كلِّ مهمّة، لكن هل أستطيع الاستقالة من أمومتي؟ هم بعضي، تفاصيلي، مسؤوليتي، دمي، خوفي وواقعي؛ وأنت حلمي. أريد أن أغنّي لنا، لكن تفاصيل هذا الواقع تجعلني أتكوّم في غرفتي بعيون دامعة وأنا أهزّ جسدي بهستيريا.

أنا لا أستحق حبّك النقيّ هذا! لكن... أنا أحبّك يا عمر، رغم المنظومات النمطيّة المكرّسة في عقلي.

- هذا التذبذب مخيف! أنا لست نبيّا يا شمس. جزعك يقلقلني، يقتلعني من جذوري. أنا لا أحبّك وحسب؛ أنا أحتاجك.

عمر يتكلّم ووعيي في مكان آخر، سمعته يقول:

- أعذريني يا شمس. أنا خنت نفسي، أو خنتك. الحكايات ليست بأحداث منتقاة، كما في الروايات وعلى المسرح!

- ربّما أنا باحثة في علم النفس، ربّما أنا حمقاء، وربّما أنا حبيبة تقليدية، لكنّي في كلّ الأحوال، أستطيع أن أسمعك، وأصدّقك.

- اتركيني الآن وحدي يا شمس. نتكلّم لاحقا.

قال هذا وأقفل هاتفه. أخذت أستعيد في ذهني ما حصل بالتفصيل علّي أفهم ما قاله، وما لم أسمعه:

أعرف أنّي معه أستعيد ذاتي؛ أعود تلك الصبيّة النقيّة بقاذورات خارجية سهل التخلّص منها.

ابتسم وحدّق في عينيّ طويلا؛ حتّى أخفضتهما مبتسمة، ودخلت حضنه. كلّ هذا الدفء! هذا أكبر من حلم!

"ابقي يا شمس أبدا معي ولي وحبيبتي، وزوجتي..." همس وهو في قمة نشوته وحزنه معا.

التصقت به أكثر وأكثر وقبّلته بكلّ حزني وخوفي، وبكيت. أخذ عمر يقبّل عينيّ ودموعي، ويديّ، ووجهي وعنقي... وفي لحظة غادرت ذاك العالم الثقيل، وغادرني حزني! أصبحت كلّي حبيبته! حبيبة خالصة من شوائب الخوف والحذر والشّعور بالإثم والذنب. أصبحْتُ أنثى بخفّة ضحكة ورعشة.

لماذا نحن من وقت وأحداث وحدود وأماكن ويقظة وواجبات؟

حاولت الهرب من هذه الحقيقة. التصقت بعمر؛ أغمضت عينيّ بشدّة، طردتُ العالم من جديد وابتسمت. اعتليته، أخذ جسدي فيه بقسوة وحنو غريبين! كان منتشيا تماما، مبتسما حتّى عمق خلاياه، شعرت أنّه طفلي ورجلي وأبي. عيناي في عينيه، فمه يتذوّق تفاصيل جسدي الذي في لحظة تحوّل ترنيمة وكينونة عطرة حدّ الغياب. استيقظت ووجهي قبالة وجهه وبقيّة جسدي في جسده؛ همس بصوت مخملي ملائكي، مليء بالرّغبة:

"ابقي هكذا وهنا أبدا يا شمس..."

الوقت الذي منه عالمنا، وموعد إقلاع الطائرة، وموعد نهاية الحلم، وموعد العودة إلى العمل وإلى حياة أخرى موشومة في دمي؛ كلّ هذا اقتلعَ جسدي من جسده عنوة! رغم هذا ابتسم وقال:

"سعادتي هذه معك تكفيني أعمارا يا شمس. سيكون كلّ شيء أفضل، الله لن يتخلّى عنّا."

لم يكن شيء أفضل! وصلت البيت وإذا آدم في المستشفى! ابتلع خمسمئة ليرة أو علقت في بلعومه وهو ينتظرني على شرفة المنزل لنذهب معا إلى السّوبرماركت (كما حكت لي سيدرا)؛ انتظر طويلا؛ حتّى ابتلعها وهو يبتلع غُصّة غيابي غير المفهوم بالنسبة له.

أُجريت له عملية في عنقه لاستئصالها. كنْتُ ممزّقة، جزعة. صلّيت لله مرارا طالبة منه ألّا يعاقبني به!

"كأنّي لا أستحق الفرح الكامل!"

أخذت يد آدم أقبّلها وأقرّبها إلى قلبي. أخذت كلّ مساحات جسده في عينيّ. كان ألمي فوق قدرتي على الاحتمال! أنا بطبيعتي أمّا متدفّقة، غياب رين جعلني أمّا هلعة.

دخل الطبيب وقال: هو بخير، بخير تماما، والجرح سيختفي تدريجيّا. حمدا أنّه وصل المستشفى في الوقت المناسب.

كان محمّد سعيد، طليقي، ينظر إليّ بلؤم وغضب؛ ويرمي فوق كلّ خلية منّي آلاف مشاعر الذنب والإثم كعادته. أنا الأمّ؛ والأمّ في عرفه، عليها أن تكون أمّا، حاضنة ومرضعة أبدا؛ أو أمّا خائنة كأمّه التي تخلّت!

كان في كلّ الأوقات، حتى وأنا في حضنه وعزّ غيابي فيه، يزيحني عنه بيده وبوعيه اليقظ الحذر الغارق دوما في العالم وفي خيانة أمّه الغائبة الحاضرة:

- شمس... كأنَّ آدم استيقظ، روحي شوفيه."

"في لحظة الحبّ الذروة يختفي العالم أو يحلُّ كلّه في شخص المحبوب... كيف ترى غيري الآن!؟"

كنت أتمتم هذا في أعماقي؛ وبصعوبة وخيبة، أستعيد جسدي وأجرجره ثقيلا إلى غرفة ابني؛ أتفقدّه، فأجده منزعجا من حرّ، أو من حلم، أو ببساطة يتقلّب في سريره.

لم أتساءل حينها، لم لا ينهض هو؛ إذ كنت كلّي بوعيي ولاوعيي مشغولة، مشغوفة بأولادي حتّى في أحلامي! لا يزعجني الاعتناء أو الاهتمام بهم.

كنت بعد رحلة التفقّد تلك، أعود إلى السّرير باردة؛ أبتعد عنه وعن جسدي، وتفشل كلّ محاولة منه في أن أعود أنثاه! أتحوّل جسدا متخشّبا بوعي أمّ قلقة وأنثى خائبة. كنت في أعماقي أشعر أنّي أفتقد إلى ما يجعله ينسى العالم ويغرق فيّ! وتغزوني كلّ أحاسيس النّقص القديمة... وتطفو تلك الفكرة: "لا بدّ أنّي لست أنثى مشتهاة..."

مع عمر شعرت أنّي سيدة نساء العالمين، وأنّي الأنثى الرقيقة الجميلة حتّى مع دماء الحيض! تصالحت عبر عمر مع مظاهر أنوثتي التي كنت أدينها وأخشاها!

يوم سال دمي على عمر سهوا، للحظة تخيّلت نظرة زوجي الزاجرة، المشمئزة، يومها غمرني عمر بعينين من حنو وفرح شديدين وهمس: "تعمّدت اليوم بدمك يا شمس، أنا نقيّ، طاهر أبدا..."

لبثت مع آدم في المشفى ملتصقة بسريره، يومين متتاليين.

هاتفني عمر قائلا:

"كدت أموت قلقا عليك. طمنيني بسرعة، أنت بخير؟"

قبل أن يكمل كلامه، رجوته بصوت بائس مهزوم أن يبتعد عنّي أبدا! قلت أنّنا معا قتلة، وأنّنا نخون الله، وأنّي أخون أمومتي، وأنّ العالم كلّه على

حق، وأنّي خاطئة أبدا؛ وأنّي سأنتحر إن مسّ آدم مكروه أو لو فقد قدرته على النطق... قلت كلاما كثيرا، كثيرا... عدت ببساطة تلك الطفلة الخائفة، المثقلة بمشاعر العيب والإثم والذنب!

لم يفهم عمر... هل أنا فعلا حبيبته؟ لم يفهم كيف تحوّلت إلى هذه الأخرى المضطربة، الهشّة. كان صعبا عليه أن يفهم خوفي الهستيري على آدم. فقداني لرين كان موجعا ثقيلا رغم وعيي وإيماني اللّذين استعدتهما بعدما التقيت عمر. كان تصرّفي ذاك قاتلا! هزّه عميقا؛ كيف في لحظة أشلحه من السّماء إلى الأرض، من حضني إلى العراء...؟

هذا جعله يعيد النظر في حياته كاملة...

"قبلك يا شمس ما كان شيئ ليقهرني! لم أكن متلهّفا على الاقتناء والتملّك. معك وطأت عوالم لذيذة، كاملة! غبطتي بك لا توصفّ! لحظة كلّمتك وقلت ما قلته، كان وجعي أكثر وأكبر من أن أتحمّله! خبرت معك اللّذّة، الطمأنينة والحلم؛ نسيت قسوة التخلّي والوحدة واليتم. وفي لحظة، وبكلمة منك، عدت ذاك الطفل الذي يتسمّر طوال الليل على النافذة، يخشى النوم وأشباحه وكوابيسه، ويخشى في الوقت عينه، أن يسمع تأوّهات أمّه مع الجزّار، أو مع السبّاك. شعرت أنّ حزني أكبر حتّى من فكرة انتحار وصمت!

عجزت عن فعل أيّ شيء، بعد غيابك المزلزل ذاك. دخلت المسنجر أبحث عن رسالة منك تقول أنّك ما زلت شمس التي عرفتها والتي تحبّني دوما؛ لم أجد شيئا. وجدت رسالة من عواطف تقول فيها: "أنا هنا في عمان، عندك، أشارك في مهرجان شعري. هل ترغب أن تراني؟ هل آتي عندك؟"

أجبتها بدون تفكير: أو تسألين؟

أتت؛ و... وخلعت قميصها ودنت منّي وهي تفوح رغبة! أحسست أنّي أتحوّل آخر؛ رجل بأعضاء متوتّرة وبكلمات منمّقة وغمز وإيحاءات... لا أعرف يا شمس إذا هي جميلة أو إذا أنا أردتها فعلا هي بذاتها... أعرف

أنّي دنوت منها بنهم وحشيّ غريب، خلعت عنها حمالة ثدييها وأكلتهما بكلّ جوعي... لم أنفك أفعل، حتى شعرت أنّي أريدها كلّها... خلعت ثيابها وهي تتأوّه وتصرخ، وتقول كلّ الكلمات الجنسية التي كنت أسمعها في الشارع! كانت تستحثني على الدخول فيها بقوّة وشبق... ولمّا انتهى الأمر، كانت لذّة بحزن شديد!

أردت أن أهاتفك يا شمس بعدها باكيا؛ لكن فكرة أنّك لست لي، لازمتني.

خنتك! كانت المرّة الوحيدة التي فعلتها بلحمي ودمي. هل تغفرين لي هذا يا شمس؟"

لا أعرف، أو أنّي أعرف! فقد صدّقته؛ لكن هالني أن يكون دنا بجسده من امرأة أخرى لا تعني له شيئا. كيف لم يشمئز منها؟

ردّدت في نفسي: "هي سوقية شبقة، لا علاقة لها بالشّعر... حياتها سلسلة خيبات. تشرب، تدّخن، تبحث عن اللذائذ بهستيريا! كانت كذلك تبتلع أنواعا من حبوب الهلوسة... هي من نوع المومسات المثقّفات"

كانت نظرتي إلى عواطف فوقية، متعالية، مع أنّي كنت أزعم أنّي تخلّصت من فكرة الثنائيات! رغم ادعائي أنّي فككت اللغة والمفاهيم ها أنا ما زلت أحكم وأحاكم وأنمّط وأصنّف! ما زلت أقارب العالم ونفسي من على السّطح وبنظّارة سوداء وبغرور كريه!

أنا في حالة تذبذب دائم، ولا أنفكّ أبحث لي وللنّاس حولي عن خانة وإطار: شبقة أو خفرة، سويّة أو مريضة، جميلة أو قبيحة، قذرة أو نظيفة... شيطان أو ملاك... ما زلت عمياء!

كنت أزعم أنّي فكّكت القيم وأصولها؛ كنت أشرح لتلاميذي بحماس شديد أن ليس هنالك ما هو معيب إلّا بحسب ما ينتج منه وعنه، فالأفعال قيمتها بحسب مردودها!

كلّ هذا بدا لي هراء! ما زلت أخشى حتّى من تسمية الأعضاء الجنسية بأسمائها، وما زلت في أعماقي أخشى أن أكون "زعرة"؛ وما زلت أقارب آدمية البشر بتشاوف صلف غبّي!

ما حصل مع عمر وعواطف، هزّني بعمق (أعادني إلى تلك الحكاية مع حسام والتي ظننت بعدها أنّي أصبحت قادرة على أن أرى ذاتي بوضوح). ما حصل بينهما، جعلني أرى خوفي من اللغة ومن جسدي، ومن العالم ومن الله، واضحا.

يكاد العمر أن ينتهي وأنا أخشى مفردات من أحرف وأكاد أصدّق نجاسة عضو وأعضاء، وأنّ خطيئة ما أنجبت عالما، عالمنا هذا! وأكثر من هذا: "خطيئتي مع عمر عوقبت عليها عبر حادثة آدم... وما حصل مع عمر وعواطف هو رسالة لأبتعد عن عمر إلى الأبد!"

كأنّي أريد أن أصل في تحليلاتي إلى هذه النقطة، حتّى أبرّر لنفسي مكوثها في الهامش، وعلى الهامش، وحتّى أرتاح من عناء الإختيار والقلق. كأنّي أسوّغ لنفسي أن تموت بدل أن تخطئ وتقلق!

الصّراط اللعين

حبيبي، هل عمر حبيبي فعلا؟

وقفت وحدي في غرفتي، أنظر إلى الجدران. لم أعد أشعر بجسدي.

وجدتني أهبط ببطء متكوّمة على أرضيّة الحجرة. آدم ينظر إليّ بدهشة؛ كنت شاحبة جدا. هل أجرؤ على البدء من جديد؟ أم أنّ حكايانا لا بدّ تتكرّر؟

ماذا أريد؟ أشعر أنّي في لحظة أتحوّل امرأة أخرى تشبه أمّها، تشبه كلّ النساء! هو الخوف، وتلك المقولات التي حفظتها جيّدا لكثرة ما ردّدتها أمّي والنّاس جميعا. كأنّ العالم بقطبين وحسب. مضحكة فكرة أو ترضين بالسّتروالقهر، أو تخربين بيتك! أو تكونين مع اسرائيل وأميركا أو روسيا وإيران وتسكتين عن ما يفعله السّاسة، زعماء الطوائف بالبلاد. القصّة ليست هكذا! والقصّة ليست أو أكون زوجة تعيسة أو أكون امرأة ناشزا! عليّ أن أخرج من على هذا الصّراط اللعين! لن أرصد تفاصيل حكايتي في الغد. أحتاج أن أراني حيّة الآن بإرادة وفعل وقدرة على الابتسام!

محترم، أو غير محترم، بخيل، يهملك... صفات كثيرة، سأُسأَل عنها. ببساطة، أنا لا أشعر بالطمأنينة معه.

أعرف أنّ هذا يتعلّق بي قبل أن يتعلّق بالعالم حولي؛ أنا لست أنا! لست تلك المرأة الأربعينية المتزوّجة بولدين اثنين، والتي فقدت ثالثهما! أنا أكبر من حكاية تُروى! في الحكايات نحن مجرّد ممثلون! لا نغادر المفردات المكتوبة، أو الهوامش المحسوبة (عشق، وخيانات، أسرة ومشاكل، ثوار يبتلعهم وطن، وكاتب يراقب أو حيّ تنهشه الحياة وينهشها كزوربا...!)

من أنا؟ أكون ولا أكون تلك هي المهزلة!

نحن من حكايا وذاكرة؟ رغما عن كلّ شيء، لا بدّ من حكاية ولو كانت مكوّناتها، هلوسات امرأة لا تنفكّ تخرج من نفسها!

قلت لعمر:

- قلبي يتضوّر جوعا! لا تكفيني وليمة ولا تكفيني تربيتة يد! دعني أكون معك، كيفما كنت وأينما كنت...

- تستطيعين أن تحبّيني يا شمس؟ تحبّينني وحسب؟

- نعم أستطيع أن أحبّك. لكن قبل هذا عليّ أن أخرج من مشاعر الفزع والشكّ والانتظار.

- تنتظرين؟ تنتظرين جهوزيّة نفسية، وأنتظر جهوزيّة ماديّة... دخلنا الدّائرة يا شمس.

- أنت جبان جدّا... وأنا مأزومة جدّا.

- أنت أنانية يا شمس، تريدينني والعالم بحسب تصوّراتك.

سكتْتُ خائفة... أحيانا كثيرة أشعر أنّي ماكرة، وأنّي إلهة جبانة متسلّطة...

- أنا أعشق الحياة يا عمر، وأدافع عن حقّي فيها.

هل عشقي لك أنانية؟

- تريدينني بالطريقة التي تثيرك وتؤجّج فيك الشّغف، تريدينني بمفردات بعينها، وبمواقف بعينها، وبمشاعر جاهزة تتلاءم مع ما تشعرين به.

ولكن ألست تشعر بي؟ نحن من رحم واحد... حزننا واحد .-

- شمس... حزنك ليس حزننا، عشقك ليس عشقنا.

- كأنّي لا أفهم، كأنّي عاجزة عن أن أفهم... كأنّي أريد أن أختبئ فيك... كأنّي أريد أن أبكي...

مازلْتُ تلك الطفلة التي تتكوّم تحت قدميّ أمّها وهي ترتعش!

أرغب أن أخرج من جسدي، من ذاتي، من هواجسي، من هذا الشّره، ومن هذا الصوم!

لا أحتاج رجلا بمزرعة وأكتاف وحنو وحلم! أحتاج أن أسير ويدك تلتفّ فوق كتفي أو حول خصري.

لماذا لا تأتي يا عمر؟

لماذا لا أخرج من هذه المتاهات؟

- نحن لسنا لذواتنا فحسب يا شمس، نحن لسنا هنا لنستمتع فحسب. نحن هنا لأداء واجب ما... هكذا قال كانط وكذلك أرى.

- لن أبكي... أو سأبكي... لن أنتظرك... أو سأنتظرك.

ليس سهلا أن نرى ذواتنا بصدق عار!

أنا أغمض عينيّ، أمحو المسافات... أتسلّل في حجرك.

- أنا أحبّك... كثيرا يا شمس.

أنا وفزّاع الطيور.

القمر بصحبة نجمة، وأنا أقف قبالة فزاع الطيور.

كان رشيقاً طويلاً بقبّعة وبذراعين مفتوحين، لا ينفك ينظر إليّ، والطيور تنظر إليه. غادرته بابتسامة. لوّح بيده: عودي قبلتي؛ أنا وأنت والقمر ونجمته. دنوت منه رافعة السبابة: أبقى شرط ألا تخيف الطيور!

لم تخف منه الطّيور، خافت منّي. هل نحن هكذا دوما لا نحسن التعبير عن ذواتنا، ونلبس الآخر مثالبنا؟

كنت أعدو مع المساء، والسّكينة، وحدي كما دوما. "ما عدت أريدك يا عمر": قلت لنفسي.

زوجي ذهب أو عاد حيث هو؛ ما عدت أزعجه أو أفرحه بمحاولاتي المتكرّرة أن نتقارب وأن يشرح كلّ منا لغته للآخر. حتى لغة عمر، لا أفقهها دائما، لا أفهم عدم تدفقّه وقدرته على الهدوء حتى اللامبالاة! كثيرا ما أنطلق في تحليلاتي من معطى تافه، كعدم سؤاله عنّي مثلا؛ وأصل إلى استنتاجات خطيرة: "لعلّ فعلا أدنى ما فينا يحرّك أسمى ما فينا! ولعلّني في حياته مجرّد إمرأة فائقة الرّغبة والحياة، أو لعلّني مجرّد قصيدة!"

أصل دوما إلى نقطة اللارجوع... أرمي رأسي إلى الخلف، وانا أحاول أن أرمي هواجسي معه. أصغي لموسيقى عبد الوهاب ولموسيقى غبطتي غير المعللّة، وأبتسم وأنا أبكي...

- أنت يا شمس مريضة باللغة والتأويل والتفسير والتحليل.

- أنت يا عمر مريض باللامبلاة والبرود والانتظار.

- اسمعيني جيّدا يا شمس. ربما صعب عليك أن تفقهي أنّي روّضت نفسي وجسدي. لمّا أشتاقك أو أريدك، أخشى أن أفقد السّيطرة على نفسي

وأعود لتلك العذابات؛ عذابات الجوع والعجز والحرمان. أنت هناك معهم ولهم وأنا هنا. اعتدت تجاوز التفاصيل والأماكن والأحداث ورغباتي واحتياجاتي. لكن ثقي أنّك أبداً في دمي. وأنّك فرحي الوحيد وغبطتي. أعرف طريقي جيدا وأعرف ماذا ينتظرني...

- تعرف ماذا؟

أعرف أنّي سأموت باكرا بعد أن تحملين منّي.. تحملين روحي أبدا، تعودين إلى العالم شامخة، بفانوس وابتسام. يسكنك الله أبدا! ويغادرك هذا الشّك اللعين.

- لماذا أنت تصرّ على إيذائي؟ تريد التخلّي عنّي حتى في أحلامي؟ ما أشدّ قسوتك!

- ما أشد حبّي لك يا شمس! وما أقسى يتمي!

ها أنا وحدي، قبالة فزّاع الطيور والقمر تحاذيه نجمة...

لا أحلم، رغم الحياة التي تتدفّق في دمي! قلبي من حزن شديد! أواه أين أنت يالله؟

لا بدّ أنّنا هناك سنكون أو لن نكون! هذه الأنا وهذا الجسد! سديم أو كينونة واحدة ممتدّة،؛ أنا وكلّ الأروح التي التقيت وعشقت! نتداخل في كينونة أبدية، بعيدا عن أنواتنا الخانقة، الخائفة أبدا!

قبل أن أنتشي، شعرت أنّي أهوي... أرتطم بجسدي الملقى على السّرير! سدرا، تأخذ يدي، ذراعيّ، تدنو من صدري، ومن وجهي:

- أمّي! ردّي عليّ... أنا أحتاجك... لا تتركيني. لا أفهم نفسي ولا أفهم لغتك... ألهث وراءك ولا أصل... أعذريني! لا تذهبي كما رين. كنت أشعر دوما أنك بعيدة؛ لكنّي كنت أعرف أنّي متى احتاجك أجدك. أنا أحتاجك يا أمّي؛ هل تسمعينني؟

سأسافر

حدث وشعرت بأنّي لم أعد أخاف شيئا ولا حتّى الموت! ولكنّي ما زلت حزينة. كنت أنتظر فرحا ما آت... انتظرت طويلا وكثيرا، وبئس ما فعلت!

ماذا وجدت؟ رسالة في صندوق المسنجر، مساحة الصداقات والعلاقات الوهمية، المفترضة، العابرة!

"لا أستطيع أن آتي يا شمس، ما يحول بيننا سخيف قاهر! لطالما حاولت أن أتجاوز قهر الفقر باللامبالاة واللااحتياج. أنا الآن فعلاً أحتاجك بشدّة وأحبّك أكثر من أيّ أكثر، لكنّي لن آتي!

أنا ياشمس رجلٌ أقلّ من عادي، و" فاشل"! ببساطة، لا أملك مصاريف الطيران والإقامة والتفاصيل الأخرى التافهة، الضرورية والقاهرة! هل أعتذر؟ هل أبكي؟ أو أنتظر؟

أعرف أنّك حزينة ووحيدة وساخطة، وأعرف أنّي عاجز؛ هل تدركين ماذا يعني هذا لرجل يكاد أن ينهي رحلته في هذا العالم؟

الحياة هنا وهناك من منزل وكهرباء وماء وأشياء وأحياء وعيون...

أنت دخلت تلك الدائرة؛ أنا دوما على الهامش... لا مكان لي في الدوائر! قبل كلّ هذا وبعد كلّ هذا، أناأحبّك... نعم أنا فقط أحبّك... ليس عندي دائرة أمان من تفاصيل لك. لست من هذا العالم، وعالمي الذي كنت أهوّم فيه فقدته!"

كتبت له وانا أحاول ألّا أفكّر بقصّته مع عواطف، وألّا أعود تلك التي تقرأ وتصنّف، وتحكم وتحاكم:

"ما يحول بيننا يا عمر، ليس هذا السّبب أو ذاك الظرف التافه القاهر! أستطيع أن أزعم أنّي سأزيل العقبات واحدة تلو الأخرى؛ ما عدت تلك

المراهقة التي تحلم وتنتظر الغد. تريدني؟ تريدني معك عمرا كاملا؟ لا أثق بالعمر الكامل ولا أصدّق الفرح الكامل! للحظة خلْتُ العالم أسوأ من بطن حوت بعد أن قرأت رسالتك. انا أيضا أحبّك. لا أستطيع أن أقرّر موتي بدم بارد. في هذا العالم أنا وحدي؛ ووحدنا لا نكون! وحدنا نموت! ندخل العالم من فتحة مهبل!

تأتي يا عمر أو لا تأتي؛ ما عادت هذه حكاية حياة وحلم! لكنّها حكاية فرح أحتاج أن أشهقه! لا أنتظر قصرا وحياة هانئة، وزغاريد عرس وحمل وولادة... مقدّر لي أن أرى العالم بقلبي! أبكي وأنا أضحك وأضحك وأنا أبكي!

أعرف أنّك لست بخير وكذلك جسدك! وأعرف أنّي أحتاجك الآن وقبل أن يفلت منّي جسدي! نحن نعبر، فكيف لا نغفر؟ أو من أنا لأغفر؟ أنا أعرفك، وأعرف عواطف، وأعرف دوائري الخانقة، وأعرف العالم وأدواته!

لا أريد دائرة أمان تام كامل! هل تفهم هذا؟"

قرأ عمر الرسالة، ولم يردّ... اختفى!

كان الحزن ثقيلا؛ حملته، وقرّرت أن أعدو. كنت أعدو وأنا أبكي. أقف حينا، أمشي حينا آخر، أبكي وأعود لأعدو! قدماي تثقلان حينا وتتحوّلان جناحين حينا آخر! قلبي يعظم ويكبر. أبكي وأبتسم. عليّ أن أفعل ما أستطيعه لكلّ الذين أحبّهم. لا معنى للتذمّر!

أخذت أعدو والموسيقى تتسلّل كنشوة في أعماقي. سلطعون ضال كان يقطع الطريق. نظر إليّ خائفا، لا جدوى من الخوف! رائحة الياسمين تدغدغ أنفي... لا بدّ أن أكون كزهر الياسمين، أقدّم عطري حتى لمن لا يلتفت إليّ! الموسيقى تصدح في أذنيّ والعطر يملأ مسامي!

كأنّي الطبيعة وكأنّ الطبيعة أنا! رعشة عبرت جسدي كلّه، حتى دمعت عيناي! هي النشوة، كلّ نشوة من توحّد واتحاد. لمّا شعرت بالموسيقى شجنا وبالطبيعة سحرا في خلاياي، كانت اللّذة!

لم يعد شعوري بالحرمان والخواء يخيفني! أخذت خطواتي تتسع، وجسدي يشمخ، والحياة تقفز من كلّ خلاياي!

أحسست أنّي أريد عمر شريكا في صلاتي هذه. عاد لي يقيني أنّه لن ينأى... لا بل أكثر من هذا سنكون معا!

كان الظلام قد حلّ؛ حولي أشجار وبساتين وقمر خجول تصحبه نجمتان. ربّما عليّ أن أخاف، هكذا علّموني! التفت حولي؛ خلفي فتى هزيل بثياب قذرة، وبعينين حذرتين خائفتين. تذكّرت المرّات التي لا تعدّ والتي لاحقني فيها فتية "مكبوتون": في درج المبنى المظلم، وفي الزقاق الجانبي... كنت أخالني يمامة، فريسة لصياد مهووس بإطلاق النّار! دوما خائفة!

الخوف غباء. نظرت إليه بلامبالاة، وأكملت طريقي. غمز بإحدى عينيه، ومشى خلفي بإصرار. كانت مشيتي سريعة، واثقة. عدا حتّى أصبح جنبي.

قال: - تعبت من ملاحقتك. كم أنت سريعة!

- ماذا تريد؟

- أن أرافقك.

ابتسمت بثقة وطمأنينة حقيقيتين، عميقتين، وقلت بصوت هادئ رنّان:

أنا لا أرغب ولا أريد! لست الفتاة التي تتخيّل.

انكمش كبزّاقة لمّا تُرشق بالملح.

أكملت طريقي، وأنا أفكّر أنّي أستطيع دوما أن أفعل ما أرغب وما أريد! قرّرت: غدا سأكون مع عمر... سأسافر إليه.

حضّرت ثوبي الأحمر الحريري، (وقارورة عطر آمور amour من كنزو kenzo) وكلّ التفاصيل الأخرى الدّقيقة مع جواز السّفر.

تفقدّت آدم في غرفته؛ كان نائما بطمانينة؛ دخلت غرفتي. أخذتني مقطوعة موسيقية ليانّي (مقدّمة للحنين) إلى عوالم رائقة... كتبت على صفحتي في الفيسبوك:

"الحياة تريدنا ان نؤمن بها دوما بمعزل عن الزّمان والمكان والتحضيرات المسبقة، والخيبات...

أن نحبّها بفجاجة ونهم ولو كنّا على فراش الموت!

الحياة معجزة بدأت، وهي دوما وأبداً سلسلةُ معجزات، وليست خريطة توقعّات! من أراد حياة من عقل وأسباب ومسبّبات، سيجلس أبدا على أبوابها يثرثر، يحلّل، يفسّر يتوقّع وينتظر! وبدل أن يحدِّق في عينيّ الله بفرح عظيم، سيسأله أنت الله؟

الحياة هي لحظات دهشة وصلاة ويقين. لنا فرح السؤال، وفرح تجاهل السؤال؛ والغوص بلذّة حتى الموت في ما يبدو أنّه طلائع موت..."

وضعت الهاتف جانبا، وتمتمت كأنّي أصلّي: عمر يحبّني؛ هذا يقين.

ونمت.

لسْتُ رجلا عاديّا صالحا للزواج!

كانت الحكاية تبدو مشوّقة، وتصلح أن تكون قصّة حبّ لا ينتهي سريعا... لابدّ أنّه لم ينته! عمر يحبّني دوما، قالها: "رغم كلّ شيء أنا ما زلت أحبّك... لا تنسي هذا".

ولكن هل الأرض تصلح لحكايات أبعد من حواس، وتماسٍ وجسد؟

- لا تأتي يا شمس.

قالها عمر باقتضاب ولا مبالاة.

- يبدو أنّنا نحن البشر لا نستقبل الحبّ الكثير؛ أتدفّق فيك واليك فتتعزّز وتنأى!

قلت هذا له، وداخلي كلّه يغلي، شعرت بجسدي حارا وبقلبي باردا. هل انتهت الحكاية الحلم؟ والخاتمة، خاتمة عادية، كما سائر القصص والأغاني: "حبّوا بعضن... تركوا بعضن."

انتظرني طويلا على النّاصية، على الهامش!

التعاسات التي أحمل، والعقد، وهذه الرغبة بالعريّ حتى العظام التي تبدّد اللذّات الحائرة؛ الحياة مع كلّ هذا الوعي المصحوب بالخوف والجبن لا تُحتمل!

-شمس، قلت كلّ ما عندي في تلك الرسالة. لا تأتي.

ردّدها بحزم؛ كان كأنّما يقول:" شمس لا تحيي!"

الحكاية بالكاد بدأت، وبالكاد انتهت. بدأت في مخيّلتي، وفي رسائل لم أستطع في سنين عمري البكر أن أشتري لها علبة عطرة. وها هي تنتهي في رسالة مسنجر باردة!

"-القصة ليست في أنّي أحبّك أو لا أحبّك... لهذا العالم أدواته، وقوانينه. نحن من أجساد لها مدّة صلاحية، ومن زمن ينتهي سريعا. أنت تخشين حياة الصعلكة، وتخشين التغيير، وتخشين بدء حياة على مشارف الانتهاء. أنت تغيّرت، أصبحت مثلهم، وأنا أيضا عليّ أن أصبح مثلهم... عليّ أن أستعمل جسدي قبل أن تنتهي مدّة صلاحيته. تأتين وترحلين، كحلم وومضة! ماذا بعد هذا؟

- لماذا لا تأتي أنت؟

- آتي أنا...؟ إلى أين؟ الى بلدك الضائع بين أيدي السياسيين الذين جعلوه أرضا محروقة! لا أحد يرى نفسه بوضوح تام! أنت بالفعل من عالم وتفاصيل؛ لا يروقك خيار المسيح؛ فهو اختار أن يموت مصلوبا، ليكون صلبه آية عظمته. أنت تعشقين الحياة على الأرض؛ وأنا لا أملك جحرا على هذه الأرض! كذلك لم أعد ذاك الذي عانقك بجسد بكر؛ لم أعد نقيّا كالمسيح... فقدت ذاتي خوفا علينا، عليك، منك، من نفسي.

لن ينتصر الشّعر! سأموت ككافكا في جحر وسأكتب لك كما فعل هذا الأخير مع ميلينا. أنا أحبّك فعلا وكثيرا، نعم، لكن يبدو هذا لا يكفي. الحبّ في هذا العالم لا يكفي، أقولها وأنا أبكي. أنا متعب، وجسدي متعب! لا أكتب، لا أفعل شيئا سوى ممارسة الموت في هذا العالم... هذا العالم الممتع المقرف!

أعرف أنك تقولين: لابأس، أنا أحبّك.

أحببتني نقيّا؛ ما عدت نقيّا! ولست كذلك رجلا عاديّا صالحا للزواج؛ لن آخذك من يدك وأعوّضك التفاهة والتيه والكآبة التي عرفت.

انتهت المحادثة وبدأ قلقي، وقفزت هواجسي.

لا أستطيع احتمال هذه الغصّة وحدي! كنت كلّ فترة زواجي وحيدة مقطّبة، لا أريد هذه الحياة التافهة المكرّرة! عاجزة كذلك عن أن أنهي حياتي كفيرجينيا وولف...

"هو يحبّني، وأنا أعشقه. سأذهب إليه الآن! لا وقت للحزن! لا وقت للموانئ والنواصي! العمر يكاد ينفد وكذلك الوقت، لا شيء ممتع في هذا العالم إلا الحبّ؛ وأنا أحبّه، وهو يحبّني."

وما إن أهدأ، تقلقل رأسي مطارق هواجسي:

"تخلّى عنّي سابقا وتخلّى عنّي الان! في هذا العالم، علينا أن نرى ما بعد الأفق... لن أعود إلى الوراء!"

كنت مضطربة كأنّي أمام موتي المحتمل:

"تلك الطفلة المنبوذة، المظلومة، الخائفة، ماتت! عليّ أن أفعل ما أؤمن به... النّهايات لست أنا من يقرّرها؛ لكنّي أستطيع أن أقرّر الذّهاب إليه الآن وللتّو!"

عدوت إلى سيارتي مسرعة. ركنتها على جانب الأوتستراد. قرّرت أن أفعل وألّا أفكّر وألاّ أحلّل. سأسافر الآن! حدّقت بجواز السّفر، كأنّه بوّابتي للخروج من نفسي، من هواجسي، من قلقي؛ وقبل أن أقطع الطّريق سمعت ذاك الصوت، صوت الفرامل، ودخلت عالما آخر.

الحلم واليقظة

- أين شمس؟ أرجوك. أريد أن أراها. هي بخير؟

- هل أنت أحد أفراد عائلتها؟ تسأل الممّرضة.

- خذ يدي يا عمرحتّى أدفأ. أنا في حالة صقيع وسبات طويلين.

انتظرتك طويلا... عمرا كاملا.

لماذا لا تحتضني؟ أنا أرتعش. هل ستتخلّى عنّي من جديد، وتغيب كما فعلت في أوان الحلم؟

- لا يا شمس. أنا لك ومعك أبدا! أنت تسكنين دمي. كلّي لك يا شمس.

- عمر.

- يا عقل عمر، يا قلب عمر، يا روح عمر.

ها هو الفرح كاملا! عاودني الدفء أخيرا!

- من أنت؟ اترك يدها. هذه أمي!

صرخ آدم، وتحسّس وجهي بيده الصغيرة:

- ماما.. لماذا أنت غائبة عنّي؟ لماذا لا نعدو معا؟ ما عدت تحبينني؟

أطرق عمر. ترك يدي. اختفى عطره تماما!

أخذ آدم يدي؛ يهزّها، ويهزّني... ثمّ فجأة ترك يدي واختفى هو أيضا.

وجدتني أصرخ وجعي مدوّيا كذاك اليوم تماما:

يومها أنهيت عملي باكرا بسبب امتحانات نصف السّنة في المدرسة. ذهبت الى السّوبر ماركت، اشتريت بعض الأغراض والحاجيات؛ كما اشتريت لرين لعبة الباربي الجديدة التي وعدتها بها. كانت تعشق لعب الباربي مثلي! ربّما كنت أشتريها لنفسي؛ إذ كنت أملأ غرفتها وغرفة أختها بكلّ أشكالها وانواعها.

"ستفرح رين بها": هكذا فكّرت. قرّرت أن أفرحها بها سريعا، "سأصحبها بنفسي من المدرسة".

رين طفلة استثنائية فعلا. تعلّمت الكلام باكرا جدّا. حفظت قصيدة كاملة وهي لم تتجاوز السنتين من عمرها. كانت بحيوية غريبة!

كانت لحظة لا أستطيع أن أتذكّرها، ولا أستطيع أن أنساها:

ترجّلتُ من السّيارة، وأنا أراقب الشّارع الذي يفصل بين سيارتي المركونة جانبا وبوّابة المدرسة والباص الذي يقف أمامها. لم أعرف كيف خرجت رين من الباص الذي كان من المفترض أن يقلّها إلى البيت، دون أن ينتبه السّائق! قبل أن أحذّرها، قبل أن أناديها وقبل أن أنادي على سائق الباص؛ رجع إلى الخلف، كانت هي خلفه تماما! لم يرها، ولم يسمع صرختي، ولا وصرختها. قالت: ماما! وقبل أن أراها وقبل أن أردّ عليها، وقبل أن أحتضنها، سقطت أمامي ووجهها اختفى تحت سيل من الدّم أحمر! كان صراخي مدّويا؛ شقّ السماء...

لم ينفع صراخي، أخذتها السماء، من ذاك الشّق، عينه الذي أحدْثَه نحيبي!

لن أصرخ يا آدم! لن أشقّ السّماء! شعرت بحشرجة في أسفل فمي. لم أستطع أن أنحب؛ لا أعرف إن فعلت بصوت مخنوق؛ لكنّي شعرت أنّ صراخي المكتوم تحوّل شيئا فشيئا لشهقة...

كانت يدي في يد الطبيب الذي كان ينادي على الممّرضة لتستدعي عائلتي، وتحديدا آدم.

دنا منّي، وقال: أنت بخير جدا! عليك أن تفتحي عينيك... أنت تستطيعين. أنت بخير تماما!

مواجهة مفتوحه مع الله.

لست خائفة من مواجهة الموت.

باكرا جدّا، رغم حزن أمّي لمّا اختفى أخي في فلسطين، ورغم القمل الذي استوطن شعري والدّود الذي عشّش في بطني؛ كنت أرقص وأرفع رأسي إلى السّماء، وأحدّث الله على أساس أنّه موجود دوما، هناك، في مكان ما، وأنّه مستعدّ لمساعدتي عندما يكون المُصاب جللا. كانت أمّي تردّد أنّه هناك وأنّه يرى كلّ شيء وأنّه يمهل ولا يهمل! صدّقتها، وصدّقت أحلامي، وفرحي الدّاخلي غير المنطقي وغير المبرّر! صدّقت أنّ هنالك مكانا ما نظيفا مريحا، مليئا بالودّ وبالدهشة، أصِله عبر قوس قزح يدّخره الله لي! صدّقت فرحي البكر ذاك وانتظرته حتّى سال من بين فخذي الدّم. وجدتني مدانة مأزومة، خائفة، تعيسة، وخلتني تافهة منسيّة!

أكذب لو أقول أنّي تعيسة فعلا رغم حزني الدائم؛ وتكون حكايتي غبيّة لو قلت أنّي أراني ضحيّة. لست مازوشية، ولست كذلك سادية. شعوري أنّي آثمة، رافقني طويلا، ولم يغادرني تماما حتّى الآن. خوفي من النّاس، من الكآبة، من الشعور بالعجز والفشل، كان هو مرضي. أخشى أنّي خاطئة دوما! لا أعرف للحقّ، أو للصّواب طريقا... النعم في كثير من الأحيان تتساوى مع اللا! حملت السّكين وقرّبتها من معصمي؛ اشتريت سموما، وكتمت أنفاسي بالوسادة وبيدي؛ سرقت، كذبت، صدّقت شعوري بالذنب والفشل وبالنقص، وبضرورة أن أكون ماكرة لأحيا! رغم هذا، وبعد كلّ هذا، أنا أعي الآن جيّدا، أنّنا لا نحتاج أشياء كثيرة في هذا العالم لنكون سعداء.

لست أنانية، أعي جيّدا أنّ الأنانية قتل للذات قبل الآخر، والقاتل قتيل لا بدّ!

كان جسدي بهيميا فجّا، عاشقا للحياة والشّمس؛ وكنت أُعاقب لأنّي لا أتذمّر ولا أيأس! أخي يركلني لأنّي أعشق الرّكض والكرة ولأن مؤخّرتي تعشق الرّقص والاحتفاء بالحياة. أبي يهيننني لأنّي بجسد أنوثته فجّة ولأنّي لا أقرّ بالعجز، ولا أستسلم. أمّي تعطف على المساكين وتقسو عليّ! زوجي استنزف إيماني وإصراري على العمل والحلم! جسدي خانني مرّات؛ رأيته ضعيفا هشّا، ورأيته تحت عبءالشحم والكيلوات والمرض والدّم والهورمونات والرّغبات... كان صعبا عليّ أن أفهمه، وأن أحبّه.

الحمل والولادة مزّقا جسدي المُربَك ذاك. نظرت إلى وجه طفلتي، ابتسمت هي وابتسمت أنا وشكرت الله.

وجدتني عاشقة لهذا العالم بكلّ مكوّناته الخائفة، الحانقة: أولادي، زوجي، أشقائي، وأشياءه وأشياءهم التي تبلى!

لا تهمّ التفاصيل التي لا تروقنا... اليوم أستطيع أن أقول أنّ الله يمنح كلّا منّا ما يريده، ما يحتاجه بعمق وصدق: دوما كنت عاشقة للوعي، الوعي وحسب، لا يرهبني ألم، ما دام يمنحني وعيا. الله عادل حقّا! ها أنا الآن لا أملك سوى هذا الوعي القادر على الحفر في جلدي، وفي ما هو أبعد من جلدي؛ في المعنى وفي ما هو أبعد من المعنى!

لا يجزعني الظلم، الجور، الجوع، أو الموت! يحزنني كلّ هذا، لكن لا يرعبني. أحتاج أن أفهم ما وراءه، ماوراء هنا. أحزن كثيرا لمّا أرى أنّ أحدهم استأثر بالأرض وخيراتها، وأنّ آخر تلفظه حتّى الأرض! وأعود وأتمتم: "هو الله لا يكلّف نفسا إلّا وسعها، وإلّا كيف احتمل عُمَر المنفى والوحدة والفقر، والقهر؟ وكيف احتمل الحلّاج التعذيب وهو يشكر؟ وكيف احتمل يسوع الصّلب وهو يطلب الغفران لقاتليه؟ وكيف أنا ها هنا، في عزّ موتي الظّاهر للعيان أدشّن الحياة وأحتفي بها؟ نحن آلهة اللحظات! لا بدّ أنّه دوما متاحٌ لنا خيار ما، أقلّه، على

صعيد الشّعور والخيال. كلّ لحظة تعيشها هي لحظة بكر تستطيع فيها أن تكون أنت!"

أنت ذاك الخفيف كقرار بالابتسام، أنت بدون ثقل الهويّة، الأسماء، الصفات وما يسمّونه "أنا".

هل وجدْتُ طريق الحقّ والصّواب؟ لا يهمّ! ألمهمّ أنّي عرفت أنّ عليّ أبدا أن أسير، وأنّي أستطيع أن أبتسم لقوس قزح ولوجه آدم! لا أزعم أنّي ذكيّة، ولا يؤرّقني هاجس الصّراط المستقيم؛ والأهمّ أنّي لست خائفة من مواجهة مفتوحة مكشوفة مع الله.

ها أنا أقف عارية تماماً أمامه، أقف بثديين حزينين، وبعينين خلتا من المكر، شعري الطويل الذي أحببته، مسترسل على كتفيّ العاريتين، وقلبي ملؤه الطمأنينة...

هذا اللّه الذي أراه ليس عجوزا، حنونا، قويّا، مهزوما كجبلاوي حارة نجيب محفوظ؛ وليس جبّارا عزيزا، متطلّبا، قهّارا... وليس خير الماكرين، وليس... وليس... وليس...

أراه في العشق، في العريّ، وفي العينين الباحثتين عن يقين؛ أراه في الموسيقى، في كلّ تفاصيل هذا الكون التي تمجّد الحياة!

أقف قبالة المسيح ومحمّد وسبارتكوس، وطفلتي، وزوجي، وأبي، وأمي وشقيقتي، وجارنا الذي بخلت عليه بمنقوشة، وعمر وكلّ الذين من المحتمل أنهم يعرفونني، أو يعرفون عنّي. وأقول كلمتي:

أنا امرأة جميلة وهي ضئيلة، مشعّة وهي أنثى، مقدّسة وهي هلعة، وجليلة وهي كسيرة ذليلة!

على العرش، بمحاذاة الغيم، مع الشّمس، مع القمر، أتمتم: "أنا كائن لم يعصِ رغم أنّه عصى، مقدّر لي وعليّ أن أقع وأسهو وأتلعثم، وأبكي وأكبو وأعشق وأشهق، وأبحث في السّماء عمّا وراء السماء... وها أنا فعلت.

انتهى...

يبتسم المسيح، محمّد يُصغي، يغمر الهدوء سبارتكوس؛ ويقول الله:

- شمس أخذت كفايتك من القلق. عودي إلى الأرض، حيث ترك لك إرثا ممتعا من الطمأنينة كلُّ الخطاة.

عودي أنثى بروح طفلة. عاشقو الحياة أطفال أبدا يا شمس! والأطفال لا يخطئون؛ أخذت إجّاصة، أخذت قروشا، أخذت قطعة لحم مشوية، أخذت يد حبيبك... أخافتك العيون الغاضبة، اعتكفت داخل جلدك... لا بأس بكلّ هذا.

محرّم عليك الخوف وحسب! الخوف الذي يقتلني أنا الله، ويقتل كلّ يقين.

عودي ياشمس ينتظرك، أطفال أحرار كثر. حكايتك لم تنته بعد!

فتحت عينيّ لأراه، لأرى الله، رأيت وجوها تتداخل، لكثيرين عرفتهم، ولكثيرين لم أعرفهم، رأيت رين، ورأيت أبي، ورأيت المسيح، ورأيت نيتشه، ورأيت كامي، رأيت خديجة، ورأيت الطبيب الذي قضى بالكورونا، وابن صديقتي المنغولي الذي يبتسم دوما، كانت قافلة من الوجوه، ليس بينها شيوخ وكهنة، وحملة سلاح وحقيقة... تلاشت كلّ هذه الوجوه تباعا في وجه الله الذي اختفى قبل أن أراه!

شعرت بغتة، كأنّ النفق الذي دخلته منذ وقت لا أتذكّره اتسع ليتحوّل سماء بمطر خفيف، وبشمس، وبقوس قزح! شعرت بجسدي مبلّلا بالعرق وبعطش شديد.

قال الطبيب للممرضة:

- يبدو أنّ الدّماغ يستجيب، كأنّها تستيقظ، ساعديني بسرعة لنوقظها قبل أن تدخل من جديد في حالة من النوم العميق الأبدي!

وحدَه الحبُّ يمنحنا حقيقتنا
اللاجسديَّة
وللمفارقة لا يتمُّ هذا إلَّا جسديًّا!

جايا... حيّة

ليس سهلا أن تكون محاصرا بعيون تمتدّ منها خيباتك على شكل أصابع إدانة وألسن نكاية وتشفّ... اعتدت مساحات الأمان في حياتي، أو حرصت عليها؛ كنت رغم هذا مختلفة، ومدانة بعض الشيء! مدانة بشكل أطيقه وأحتمله. تحاشيت المساحات الممنوعة، أو تابوهاتهم الأساسية؛ الجنس، والسّلطة سواء كانت سياسية، دينية، أو اقتصادية؛ لذا كنت وما زلت على الهامش... المعارضة السياسية مدانة، عدم الزواج مدان، الطّلاق مدان، العشق مدان، التمرّد مدان، الاختلاف مدان! لمّا حاصرتني دوائرهم هذه حدّ الإكتئاب، قرّرت أن أقول: لا، وبدأت أخرج من دائرة الأمان الزائف. المضحك أنّي معهم لم أحز شيئا في حياتي ممّا يقدّرونه! ليس عندي شهادات عالية أو انتماءات، ليس عندي أموال، أو عقارات... لم يكن هذا يوماً من أولويات اهتماماتي. لمّا حاولت أن أعرفني، أن أبحث عنّي حقيقة، كانت الحكاية حكاية! لم أستطع أن أكون كجايا التي اختارت أن تتجاوز قيمهم وتابوهاتهم ولو سرّا!

لم يكن بسِمات بطل نمطيّ؛ كان يحمل جسدا لا يخصّه! ما علاقته بكتلة الشّحم المكوّمة فوق كتفه؟ أو بهذا الجلد المنخور بالثقوب فوق جبينه وأنفه، وبهذه الأسمال التي يرتديها؟ لم يختر شيئا ممّا هو عليه؛ لا شيء فيه يشبهه. ينظرون إلى جسده، ويتحسّرون أو يشمئزون؛ بينما هو يبتسم بشمم، يضحك، أو يغنّي، أو يبكي وهو يبحث عن وجهه الذي يتخيّله، عن

جسده الذي يحسّه! غريب في هذا العالم الذي لا يعرفه ولا يعترف به! لم يكن ذاك أحدب إزميرالدا وفيكتور هيغو؛ كان هذا حازم، حبيب جايا.

ربّما لو لم أعرف عمر، لفتحت كتاب النصائح لأحدّد لجايا المفروض والمسموح والممنوع؛ ولردّدت مقولة فرويد التي حفظتها جيدا: "تفاصيلنا كما حركاتنا غير المقصودة تقولنا حتما وفعلا!"

كيف تحوّلتُ من امرأة تعنى بالتفاصيل النافقة إلى أخرى، تتجاوز كلّ التفاصيل؟!

قالت جايا: "أحبّه يا شمس، كما هو. تثيرني كلُّ تفاصيله التي يراها الآخرون مقزّزة."

جايا امرأة عادية بتفاصيل حياتها وجسدها الذي لاكه وبصقه زوجها بملل ممزوج بالقرف! تحدّث عن بطنها المترهّل، وعن ثدييها الذين نسيا الارتفاع والشمم... قال الكثير ولم يقل أنّه يحبّها حتّى وهو يمارس الحبّ معها! معه شعرت أنّها على عداء مع جسدها!

هو تزوّجها وكفى! عرفت هذا، ورحبّت... رغبت وهي على مشارف الأربعين، أن تصبح أمّا وزوجة؛ تريد ظلّ رجل؛ لم تلتقِ رجلا رجلا في حياتها.

عندما رأته أوّل مرّة قرب "بسطة" كتب في الشارع، تمتمت: "يشبهني! أنا أيضا غير مؤهّله لحياة صاخبة، في هذا العالم المهووس بالتفاصيل. جسدي انتهت صلاحيته... جسدي مجرّد حفرة دفن زوجي فيها حيواناته المنوية الفائضة وعفن جسده."

سألت البائع: هل أجد عندك رواية قواعد العشق الأربعون؟

ناولها إيّاها حازم وهو يبتسم قائلا:

"للعشق قاعدة واحدة وحيدة، نحبّ، ولا نسأل لماذا".

"عمق صوته وقوّته يتناقضان مع جسده المرتبك!" فكّرت جايا قال كأنّما قرأ أفكارها:

"ما أصعب أن تحيا عمرا كاملا في جسد لا يشبهك!"

أخذت الكتاب؛ حاولت وضعه بين أكياس الخضار التي تبعثرت محتوياتها بين الكتب؛ نظرت إليه وهويجمعها لها بحرص شديد تلعثمت وهي تشكره. عرض عليها أن يحمل الأغراض ويرافقها؛ وافقت.

"كان رقيقا لطيفا ورجلا!" لمّا وصلت البيت، سألها:تعيشين وحدك؟

أجابت: نعم، مع أولادي.

حيّاها بأدب جمّ وذهب.

دخلت بيتها الذي تنتظر فيه انتهاء الوقت؛ كلماته تردّدت في ذهنها كأغنية سمعتها ولازمتك.

حاولت ليلا قراءة الرواية؛ فوجدت نفسها تستعيد كلامه: "الرجولة يا جايا ليست جنسا نولد به، الرجولة هي قرار نلزم أنفسنا بمقتضياته."

أحبّت اسمها ووقعه؛ شعرت كأنّها مسحورة! نامت هانئة..

في الصّباح الباكر، طرقت بابي: "شمس... الحبّ ليس وهما، وليس حكاية بتفاصيل. لا أريد أن أموت بعد الآن! أريد أن أحيا... أريد أن أبكي... زوجي لا يخونني، لكنّه يوما لم يحبّني. لا أريد أن أخونه، لكنّي لا أحبّه!"

وبعدها بأسبوع طرقت بابي بطرقات راقصة قائلة:

"أريد ذاك الرّجل يا شمس، عيناه قالت أنّي جميلة وأنّي امرأة... هو غريب، ولا ينتظر أن ينصفه هذا العالم. وأنا امرأة تحيا على الهامش. لماذا أخشاهم؟ هل الله سيعاقبني؟ يصعب عليك توقّع عمره، كأنه خارج الزمن! ولد مسيحيا، لا يحب الكنائس، تتعاظم غربته داخلها. لكنه مسيحي!" قالت هذا وابتسمت، وأردفت:

- شمس، هل أسرُّ إليك بخاطرة بلهاء؟ المسيحي يختلف عن المسلم بشكل عضوه الذكري؛ هو بدون ختان! أكاد أتخيّله وأخشى هذا...! دعك

من ترّهاتي وخيالاتي... لم يغوني... هو صادق، حقيقي كطفل... كرجل! لا أعرف ماذا أريد منه؛ ولا أعرف ماذا يريد مني.

كنت أصغي إليها ولا أصغي، ماذا نريد نحن من هذا العالم؟

ننجب وجوها تعيسة، وقلوبا متيبّسة، وأقداما تعاف السّير... كأنّي أنا من يريد أن يبكي وكثيرا! كأنّي أنا من يريد أن يحيا ولو قليلا!

غابت جايا طويلا، أو ربّما قليلا، لا فرق! كان الزّمن سائلا في حياتي، لا معنى لمروره.

وقفت أمامي، تعبق من جسدها رائحة جديدة وعطر غريب آسر، لم يكن عطرا فرنسيا شهيرا، كان عطر إحساسها بجسدها، بأنوثتها...

قالت: أنا أحبّه يا شمس، لا بل أعشقه.

أجبتها ساهمة وأنا أتذكّر جسدي الميت...

- من يا جايا؟ زوجك؟

- لا لا لا... أبدا، حازم، أنا أعشقه. هل تصدّقين أنّي دخلت غرفته التي تكاد لاتسعنا؛ شعرت أنّي أطأ أرض الأمان؛ وددت لو أقيم فيها أبدا. أنا أريده دوما، لم أفكّر ولا أريد أن أفكّر! جسدي تغيّر، ما عاد من تفاصيل أخشاها... أشعر أنّي متوهجة، لا بل حتى متوحّشة حباً! أحبّه، أودّ لو آكله كلّه، بكلّ تفاصيله... النخور في وجهه أقبّلها بتلذّذ، وكذلك عضوه الذكري "المسيحي" (قالتها ضاحكة). لا أراه من إثم وخطيئة. أحبّه حتّى البكاء يا شمس. هل تفهمين؟ ما معنى هذا؟ كيف أنا المرأة الخمسينية، عدت مسكونة وجسدي بكلّ هذا الشّغف والشّبق والبريق؟

يحدّثني عن شمس التبريزي... عن ابن عربي وحبيبته نظام... عن المسيح والمجدلية وعن زوربا ورقصته...

هل أنا متصابية يا شمس؟ هل أنا هاربة من حياتي البائسة؟

كنت أصغي بصمت، نسيت التحليل، والخطوط الحمراء... الخيانة خط أحمر. هل نسيت هذا؟

سألتها: "لماذا لا تطلبين الطلاق؟"

"أنا مطلقة منذ تزوّجت": أجابتني بحزم. "لا أستطيع أن أتخلّى عن أولادي! أنا أمّ يا شمس!

لماذا الأمومة تتنافس والأنوثة هي منفصلة منذ سنوات؛ لكنّنا هنا في هذا العالم العربي محكومون بالنفاق... الخناق السياسي يطال بيوتنا، أُسرَنا، أحلامنا. لسنا أحرارا في شيء! محكومون بلقمة العيش، وبقوانين اجتماعية تكرّس جبننا وخوفنا ونفاقنا.

قالت جايا: "أين أذهب بأولادي؟ أنا لا أعمل، أو لا أجد عملا. تركت عملي كمعلّمة في إحدى المدارس الخاصة؛ منذ تزوّجت. الراتب لا يكفي ثمن أحذية ومواصلات! لا تقولي: قاومي... هنالك دوما كوّة ونور؛

أنا لا أرى نورا". قالت هذا وأجهشت بالبكاء. "أرني هذا النّور يا شمس... أنا أرى دخانا أحرق مرفأ بيروت وبيروت وقلوبنا، وأرى ساسة باعونا والوطن، الكلّ يردّد: لبنان ليس وطنا، هو كذبة؛ ونحن إمّا سوريون أو فرنسيون أو إيرانيون أو بدو رحّل كحالنا!"

هي تحكي أو أنا أحكي؟ لم أعد أدري! نظرت إلى الأفق بخوف... هل يستطيعون بيع الأفق ومغيب الشّمس وشروقها...؟

الدّخان في قلوبنا؛ أفواهنا المكمومة أبدا، باتت مكمومة فعلا بفعل وباء غبيّ خطير وتافه (الكورونا)، حتّى الهواء... حتّى الهواء!

"سأدفن جسدي مع جسده وروحي مع روحه علّ هذا العالم ينجب أولادا من محبّة. أولادنا أولاد حرام وزنى ومتعة يا شمس. وليسوا أولاد حبّ ومودّة وسكينة"!

كدت أعود تلك التي تحلّل وتستنتج وتعطي نصائح... كدت أقول لها؛ كيف يرتضي حازم ذاك أن يقيم علاقة بعرف المسيحية والإسلام، هي زنى. كدت أقول وأقول ووجدتني صامتة وأنا أسمعها تبكي.

ذهبت جايا وعاودتني أسئلتي وحزني الشّديد. أنا مثل فاوست بعت نفسي للشّيطان بحجّة منزل وعائلة واستقرار... الكلّ باطل، وقبض الريح.

غابت جايا طويلا. بتّ أنتظر حكايتها وحازم؛ وأنتظر صدقها الفجّ! وأخيرا أتت.

كانت واهنة ومتعبة.

- ما الحكاية يا جايا؟

- أنا حامل يا شمس.

- حامل وانت تجاوزت الخمسين؟ كيف ستتحمّلين العبء الاقتصادي والجسدي لطفل آخر؟ وكيف...؟ وكيف...؟

- ليست المشكله في هذا وحسب؛ ولا في حالتي المادية المترديّة... أنا حامل من حازم. لا أعاشر زوجي منذ سنوات لا أتذكّر عددها؛ لا أريد أن أجهض؛ لا أريد أن أقتل طفلي. ماذا أفعل يا شمس؟

- ماذا تفعلين؟ هل من حلّ غير الإجهاض؟

جايا تزوّجت وهي أربعينية؛ هربا من العنوسة والوحدة والفقر. لكن وللمفارقة، كانت مع زوجها تشعر بوحدة حادة، وبأنّها مهملة أكثرمن عانس. بعد تدهور وضع البلد الاقتصادي، أصبحوا فقراء جدا... بعدما كانوا فقراء وحسب.

الخبر هزّني.

الغريب، رغم خراب حياتها هذا، كانت تأتي عندي في شهور حملها الأولى، تبكي للحظة خوفا، وتيها؛ ثم تمتلئ عزما! قالت بعد نوبة بكاء مطوّلة:"هذا ابني الحقيقي الذي أريد. حازم يريده، ويريدني زوجة، أو هو

يراني زوجته! زوجي منذ فقد عمله، كفّ حتّى عن السّؤال عن الأولاد. أنا وحدي جدّا يا شمس. أشعر أحيانا أنّي ارتكبت خطيئة كبرى. ماذا أفعل؟"

كانت هي تتكلّم، وكنت دوما واجمة، مربكة. هل هي تريد كلّ شيء؟ لكن أولادها يحتاجونها فعلا وجدّا، تخشى أن تفقدهم! والقتل خطيئة كبرى...

كنت أقول: أقصر الطّرق، هي الطّرق المستقيمة. هل من طرق مستقيمة في حياتنا فعلا؟ أين الطّرق المعبّدة المحاطة بالزّهور؟

جايا بدون تحليل، قرّرت ان تحتفظ بالطّفل. كيف؟ لست أدري.

كانت ترتدي ثيابا فضفاضة، وتزعم أنّها سمنة الكآبة.

- وبعد؟ كيف ستستمرين يا جايا؟

أبي كان فقيرا مجنونا، عاش يساريا، يغنّي فقره، ومات شهيد حرب طائفية تافهة. لا أتذكّر من حياتي إلا أنّها مضت. حازم يريدني في الضوء والعلن، وهو بائس لأنّي لا أجرؤ أن أفعل. أنا حزينة دوما، أبكي دوما... لكني أشعر أنّي حيّة!

- ألم يسألك زوجك عن بطنك المنتفخ؟

- هو لم يرني يوما عندما كنّا معا. عشنا معا لأنّه لا خيار آخر لكلينا. محكومون بأسوأ اختراع للبشرية: النقود، والأوراق المالية وغير المالية... يقيم عند أمّه في الضيعة منذ شهور لا أتذكّر عددها. تعرفين... هي فقدت عقلها، وتعيش من الصّدقة والحسنات؛ وهو يشاركها ذاك العجز وذاك الجنون صاغرا، أوطواعية وكسلا ويأسا.

حازم يستطيع أن يربّي الطّفل، أنا أثق به!"

لم أستوعب ما تقوله، شعرت أنّ حكايتها مجرّد تهويمات: نحن في زمن الموت والرّفاهية الغبية؛ حكايات الحبّ ما كانت يوما نقيّة!

ما هو النّقاء؟

أنت محقّة يا جايا، نحن نحتاج من يرانا وحسب! أنا مثلك أشعر بالحزن شديدا؛ لكنّي لست حيّة! لا وقت للأمس، لا وقت للغد، لا وقت لهذا النّوم الطويل! لا يهمّ من أنا، لا يهم كيف سأكون، ولا يهم كيف سيكون العالم من حولي. المهمّ هذا الشّعور الكثيف بالحياة الذي يشغل لاوعيي ويخشاه وعيي؛ شعور لا يخترقه ملل أو خوف أو خيبة؛ كأنّما وعيي يسوّغ لي الموات هربا من المواجهة! لست وحدي ربّما؛ أو أنا وحدي فعلا! لكن عمر هنا، هناك، في مكان ما، وهو كذلك في أعماقي... الحياة لم تنته بعد.

دخلت الممّرضة الغرفة ومعها دخلت أذنيّ أصوات غريبة، كثيرة، أين صوت آدم؟ هل يهمّ فعلا أنّ آدم يكره عمر؟

- إنّها تمسك يدي! حمدا على سلامتك... حمدا! صرخت الممرّضة.

تمتمْتُ بصوت عطش مخنوق سمعته وحدي:

- أنا جائعة...

كنت دوما أشعر بالجوع أوّل ما أستيقظ من النّوم، في أيّ وقت كان. كأنّي أخشى أن يهزم الموت جسدي. كنت عاشقة للحياة رغم كلّ شيء. أريد أن أعيش؛ نعم، رغم كلّ شيء...

حاولت النّهوض؛ لكن جسدي ما زال في مكان آخر! ابتلعت لعابي، فتيّقنت أنّي حيّة! ابتسمت وتمتمت: "لي جسدي أيضا؛ لم أفارقه ولم يفارقني." كأنّ الموت يخجل من عاشقي الحياة الحقيقيين!

أغمضت عينيّ بسلام غبيّ، ربّما، سلام غير مبرّر، يدي تسلّلها الدفء، رغم أنّها تقبض على الفراغ...

عاودتني صورة عمر ذاك اليوم:

ها هو يجلس كنبيّ هانئ، ينظر أرضا ويرى ما بعد السّماء. يرتدي ثيابا فضفاضة، لا لون لها، ويمسك يده بيده.

- لن تأخذ يدي؟

كان صامتا، وحزنه الجليل يحيط به على شكل هالة ضبابية، ووجهه تتوجّه ابتسامة عريضة.

- عمر... أنت هنا؟

كأنّما خلاياي تجمعّت، امتلأت حياة وحماسة ليعود جسدي وروحي واحدا أحدا.

وجدتني أحرّك قدميّ، وأشعر بالعالم خارج جسدي، تسلّل أذني صوت الممّرضة وهي تقول مبتهجة:

إنّها تتحرّك! تحرّك يديها وعينيها... أين عائلتها؟

ابتسمت، أنا وحدي أبدا؛ لم أشعر يوما أنّي أنتمي لعائلة؛ مشكلتي دوما، كانت الصّورة النموذج، والتصوّرات الذهنية؛ صفات العائلة هي كذا، وصفات الأخت هي كذا... لماذا أنا عمياء أبدا؟ لماذا أشعر أنّي لم أر العالم حولي قط؟ مشغوفة بداخل مستعمر بترّهات وأفكار لا علاقة لي بها. الحياة في مكان آخر خارج عقلي. حاولت أن أتبيّن الوجوه التي تجلس في مخيّلتي ورأسي وأمامي: آدم، عمر، ابنتي والهواء! الهواء لذيذ، لذيذ، ودمعي له طعم مالح لاذع بنكهة حياة كادت أن تفلت مني!

العالم في الخارج، عالم بشمس وهواء، وصقيع ومطر، وثمار، ونكهات. لكلّ هذه الأشياء التي كنت لا أراها سابقا، مذاق مختلف اليوم!

مع احساسي الطّافح بالحياة، حضرعمر في ذهني...

نحن هنا في هذا العالم من وقت وجسد. ورغم غياب إحساسي بالوقت وبجسدي؛ ما زلت حيّة!

لمَ أخشى الغياب والوحدة؟ نحن نعتاد كلّ شيء! آدم نسي دفء يدي؛ يحبّ المحمول وعوالمه وألعابه وضجيجه أكثر من أيّ شيء آخر في هذا العالم. لا بأس بأيّ شيء... لن يكون العالم يوما كما نتوقّعه او كما نريده.

ذاك البيت لم يكن بيتي، وهذا ليس جسدي الذي أتخيّله أو أتخيّلني عبره، وهذا ليس المكان الذي أحبّ المكوث فيه، وذاك لم يكن الفارس الذي انتظرت... لكن هذا زماني، هذا وقتي، وهذا جسدي الفعلي، الحيّ والفاعل.

القدرة، هي كلمة السّر والسّحر. ربّما السّعادة هي الشّعور أنّنا قادرون على الفعل، فعل ما نرغب به وما نريده؛ والتّعاسة هي الشّعور بالعجز، العجز عن أيّ فعل، حتّى فعل الانتحار!

نومض ونمضي! عليّ أن أفعل أفضل ما أستطيع فعله...

تلك الرسائل التي كتبها لي عمر، والتي لم تتسنَّ لي قراءتها بسبب وجودي في المسشفى:

"شمس اذكريني... لا تنتظريني... أو انتظريني... لم يحن أوان اللقاء بعد." ٧ ايلول.

"شمس كلميني... لا تغضبي منّي... جبان ربّما... خانع ربّما...

لكنّي أحبّك..." ١٠ ايلول.

"شمس... أنا أعيش فيك وبك... لا تصمتي طويلا... لا تغادري... لا تغضبي. أنا أبدا أحبّك"... ١٥ ايلول.

"هل سأفقدك من جديد...؟ العمر لا يحتمل. أين أنت كلّ هذا الوقت...؟ قولي أنا بخير وحسب... أنا دوما أحبّك."٢٠ أيلول.

مجنونة

كنت أقود السيّارة، في الطّريق البرّي بين ضيعتي وضيعة أهلي. استعدت شريط لحظات خلالها أمسكت قلبي. دوما خائفة على قلبي هذا!

حياتي سلسلة من الحزن والفقد: رين، أبي، زوجي الذي انتهى كزوج "وكظل حيطة" في حياتي، تفاصيل الوطن الحلم التي سقطت أبدا... أشياء أخرى كثيرة ذهبت، وأبطال حكايا رحلوا... عمر لن يرحل... ملأ قلبي، هو من بقايا الله في عالمي.

- أمّي، أمّي... أنت بخير؟

صرخ آدم بصوت عال؛ كان يكلّمني، كنت لا أسمعه. نظر إلى الدّموع الساكنة في عينيّ، وكرّر سؤاله.

ابتسمت عيناي له، وكذلك قلبي. لا أحتاج في هذا العالم إلّا أن أجد من أمنحه ابتسام قلبي. شعرت أنّي ممتلئة حياة.

قلتُ لآدم:

- ما رأيك لو نقفز ولو نعلو حتّى السّماء، نلتقط غيومها؟

نظر إلي بدهشة وبابتسامة مكتومة، وهو يحدّق بالمقعد الذي أنا لصيقة به وبالمقود الذي تحطّ يداي فوقه.

أفلتت منه ابتسامته، وعاد هادئا يتأمّل جانبيّ الطّريق.

قوّة الحياة في أعماقي التي تحوّلت خوفا وحذرا عمرا كاملا، وسكونا وانتظارا طوال فترة مكوثي في المستشفى، هذه القوّة تجاوزت أطرافي وعقلي وجسدي.

سألته مرّة اخرى:

- لن تطير معي؟

أجاب:

- خذيني إلى مدينة الملاهي.

أخذت أؤرجح السّيارة يمنة ويسارا. قهقه آدم عاليا.

- ها أنا أخذتك إلى مدينة الملاهي في غمضة عين.

سكت وهو يحاول عبثا كتمان ضحكته (كان يسعد لمّا أفعل ما لا يفعله الكبار العاقلون).

وقبل أن يعاودني حزن العاقلين الكبار؛ أخذت أسرع فجأة ورفعت صوت الموسيقى ووردة وهي تقول: "وبحبّك وبحبّك، والله بحبّك! تمتمت: يبدو أنّي جننت.

ردّ إبني بعفوية وإبتسام: "ما أنت طول عمرك مجنونة!"

الفصل السّادس

هذا أوان الصّدق

نمارس الحبّ لنبقى معاً
أو نبقى معاً لنمارس الحبّ؟

رسالة إلى عمر

"أنا أرتعد الآن كلّي. ما أتفهني وما أتفه هذا العالم! لا أعرف كيف أقترب ولا أعرف كيف أبتعد. لا أعرف هل أحبّك أم أكرهك؟ لا أعرف هل أكرهني أم أحبّني؟ أنا صادقة أم كاذبة؟ هذه الثرثرة لا تجدي. أحتاج الله؛ أو أحتاج أن أخلع أردية الأنا. هلّا تغفر لي كلّ شيء وأيّ شيء؟ أنا خرقاء فعلا أؤذي من أحبّ. عليّ أن أبتعد... عليّ أن أعود نقية. أنا أحبّك فعلا بشبق مطلق وبنقاء مطلق، بذكاء أنثى وبسذاجة طفلة، قريبة وبعيدة، صادقة وكاذبة، حيّة وميتة. ربّما الانتظار، والتربّع ها هنا على هذه الناصية، ويدك التي تنتشلني، هذه كانت خطيئتي.

أبكي؟ نعم. ليس لأنّي أريد منك شيئا محدّدا؛ لكنّي بصدق لا أعرف كيف أحبّ ولا كيف أمارس الحب. لا أعرف كثيرا من الأشياء التي يدّعي الآخرون أنّها بديهية! أنا التي جاورت هذا العالم ما يكاد يقارب عمرا كاملا، خرقاء كطفلة، وغبية كعجوز لا تثق بقدرتها على التعلّم!

في كلّ الأحوال، أنا أحبّك فعلا؛ هكذا كما أفقه الحبّ أنا. الحكاية بيننا ليست من تفاصيل وهورمونات وقبلات. تدنو منّي أسمو فوق جسدي،

وأشعر بك طريقي إلى ماقبل الخطيئة. ليست الحكاية أنّ أنفاسك من دفء وحياة، وأنّ الوقت أعبره معك بغبطة؛ ليست الحكاية أنّي معك أُسعد تلك الطفلة التي فقدت ثقتها بالله وبنفسها وبالعالم! إن قلت هذا ستكون حكايتنا مرسومة بتفاصيل غير مقنعة كمروياتنا، وكقصصنا التي تملأ رفوف المكتبات ولا تلامس حروفها خليّة فينا.

أنا أبكي، أعشق، أكره، أجوع، أشبع، أغار، أحنق، أهدأ، أحلم، أخاف، أطير وأسقط، وفي وسط كلّ هذا لا أنفكّ ألمحك.

أعرف أحزان ذاك الطفل اليتيم الجائع أبدا بابتسام!

أعرف موتك المتكرّر وموتي المؤجّل...

ها أنا عارية تماما، من جلدي وابتسامتي وثيابي التي تغوي، وكلماتي وخططي ومخطوطاتي... عليّ أن أصل وحدي.

الحكاية هنا، يقولون لها طريق واحد، أحادي الإتجاه: عليّ أن أحبّ وأقبّل وأضاجع وأنجب وأكذب وأردّد كلمات جوفاء، وأبكي وأضحك، وأدخل القبر بسلام آمين!

الأصل هناك، وأنا وأنت وغاب، وأحبّك... ألتصق بك بفمي وبالأماكن الأخرى المتاحة؛ وأغمض عينيّ وتغمض عينيك ويغيب العالم بترّهاته. يقولون هذه اللحظة من غواية، وأقول هذه اللحظة هي كلّ الحكاية!

أحببت القصص دوما؛ وأصغيت إلى الرواة الذين صادفت؛ كنت أترقّب دوما، أن أراني كبطلة. لست يتيمة، لكنّي وحيدة وحزينة ومهملة أكثر من يتيمة؛ ورغم هذا في أعماقي مساحات فرح لا متناهية.

جميلة، قبيحة، أم، عاقر، شابة، هرمة، ذكية، غبية، تلميذه، معلّمة، زوجة، عانس! هذه المحطّات التي تحمل أمانا ظاهريا وتوصيفا آمنا. لم أصدّقها يوما. كأنّي فعلا نبيّة! أرى ما فوق الاشياء رغم أنّي أحياها وأغرق بتفاهتها أوعظمتها. نعم هالني يوم لمحتك أنّك ترى هذا وتجسّد هذا.

نعم لا أعرف الله، ونعم أعرفه. وأشياء أخرى كثيرة تبدو متناقضة أو واضحة، لا فرق!

في الصّباح الباكر، أتذكّر أنّي بجسد وأعضاء، ويروقني لو تداعبني، ونتداخل معا من كلّ الفتحات، حتى ننتشي ويختفي الخوف والأنا.

تذكّرت أيضا أنّي نرجسية وأنتظر أيضا فروض الطّاعة والولاء، وأمامي أفواج من المصلّين والعشّاق؛ وأنا أقف بخيلاء للحظة. ها هي الصورة مكتملة.

عليّ الآن أن أعترف بما أنّي لا أستطيع أن أمارس الحبّ معك، أنّي أخسر دوما في اللعب، وفي الحروب. الآن أغمض عينيّ، ملامحي هادئة. لا أخشى أن تتخلّى عنّي. ولا يشغلني هذا! تجاوزت اللحظة. أنا أصلّي."

غداً يوم آخر؛ غدا لن يأتي الغد!

قال عمر:

- غدا، سآتي يا شمس.

- تعرف أنّي لا أصدّق الغد.

- لا توقظي حزني. اعتدت المنفى، واعتدت أن أعشقك ولا أجدك. هل أدين الله أو القدر؟

- لا. هي لحظة واحدة تساوي عمرا. لا بدّ سنكون معا! لا أستطيع أن أنام، كأنّي ولدت أمس إثر يقظتي تلك. أتوق لأن أختبئ فيك؛ تعبت من الكتابة.

- نحن محكومون بالكلام واللغة؛ حتى نكون معا بشكل آخر. سأصمت حينها دهرا، وأحبّك... أحبّك من عينيك، من يديك، من قدميك، من كلّ مكان ياشمس.

- أريد أن أغمض عينيّ، حتى يأتي الغد. وكذلك لمّا تأتي يا عمر سأغمض عينيّ أبدا، أنا لا أحتاج عينيّ معك...

سكت طويلا؛ ناديته بوجل:

- عمر، عمر!

- قلب عمر

- أنا فعلاً أريد أن أعيش في قلبك فقط.

- فليسامحني الله، أحيانا كما اليوم، تملّكني شعور أنّي رجل نذل، لأنّك حتّى الآن بعيدة عنّي، ولأنّي لم أكن معك في ظروفك الصّعبة الأخيرة... شعرت بقهر مرعب، ورغبة عارمة في البكاء، عدت طفلا يتيما من جديد.

- ربّي يحفظك لي بخير. وهذا يكفيني.

- لا يا شمس... أنا قرفت فعلا! كأنّها سنين يوسف العجاف.

- دعنا نفكّر بطريقة أخرى، حتّى لا يتعملق القهر. يكفيني أن ألتصق بك وأسكن لحظة، سكينة كاملة. الله معنا، أنظر كيف كلّ شيء يحول بيننا ولا نفترق.

- الله وحّد بيننا. أناجائع؛ ما رأيك أن تكوني معي؟ أنا زهقت من الوحدة.

- لمّا أراك أشعر أنّي بخير، وأنّ العالم مأهول؛ لا ترهبني وحشة.

- لا... أنا لست جميلا مثلك.

- لو أمامي، أكلت فمك بقبلة. أنا أشعر أنّي ضلع منك، وأريد العودة من حيث أتيت...

- أحيانا أتحوّل أمّك، ولأ أصير حبيبك ورجلك وابنك وحسب. أليس غريبا هذا؟

- لأنّك تحبّني بصدق، وليس بغاية، ولأنّي كذلك أحبّك بصدق، لذا تصبح أمّي وأبي ورجلي وطفلي وإلهي! هوذا الحبّ؛ تتلاشى الحدود واللغة، والتفاصيل العابرة؛ يصبح الجسد ممّرا وطريقا، وليس مقصدا وغاية.

- لو الله يحبّني يقبض روحي قبلك.

- هل تتخيّل وجعي المُحتمل... اسكت. ربّي لن يؤذيني بك، هذا يفوق قدرتي على التحمّل.

- ابن الروح لا يموت! مريم عاشت بعد ابنها؛ لا تنسي هذا.

- لا أستطيع أن أتخيّل، كيف سمحت بهذا! كان عليها أن تعضّضهم، تأكلهم، تضرب يمنة ويسرة، تصرخ، تلتصق به... يا ربي استغفر الله! هذا لا يحتمل!

قلت هذا وأجهشت بالبكاء؛ رين غادرت ولم أفعل شيئا.

- أنا بلهاء فعلا يا عمر.

- أعرف أنّك أعظم امرأة في هذا العالم. منذ أوّل رسالة أرسلتها لي، سألت نفسي: كيف تراني تلك المرأة بهذا العمق المخيف، المرعب؟! كأنّي أمامها عار تماما من ملابسي! وكأنّها تملك عيناً تطلّ على أعماقي! كيف تفهميني بكلّ هذا الوضوح يا شمس؟ أنت أعدت خلقي.

- أنت أعدت لي بكارتي. لماذا لا تأتي؟ أنا أحتاج أن ألتصق بك حتّى الموت... أفّ! كان كلّ ما يحلم به أبي أن تبقى يده في يد أحد منّا! كان مستسلما، رفع رأسه لمّا سمع صوتي، عاوده هذا الأمل... لمّا لم آخذ يده، مات! يا الله... ما أصدق تلك اللحظة يا عمر!

- هذه كرامة بلغة الصوفييين.

- قلبي يرتعش، عقلي المستعمر بترّهات وتفاصيل مادية لا يصدّق.

- أنا أحبّك.

- أنا أحبّك بشراهة. أنت بعيد قريب، كلّي يشعر بك، كأنّك في رحمي، وأنتظر بشوق أن ألدك لأراك! غريب هذا الله كيف خلقنا!

- الله يضرب مفاهيم البشر بعرض الحائط.

أكمل ضاحكا:

- كيف ستلديني وأنا أربعيني؟

- مظاهرنا الجسدية والشكلية وهمية. نكون أنفسنا خارج الجسد وحسب.

- لماذا لا تكونين أمّي فعلا؟

ابتسمت وقلت:

- كنت ستنزعج منّي، ومن شغفي بالوعي مثلهم، مثل أولادي.

- لأنّ الوعي مكلّف، ضرائب الوعي باهظة.

- أنا في عمقي أرحّب بالوجع ضريبة للوعي. الوعي عندي أولوية، وليس المتع. كأنّ الله يمنحنا ما نريده فعلا.

- أنا الآن أرغب بشيء واحد؛ أريدك برأسي وقلبي وفي كلّي.

- أخذتك في قلبي... هناك كائناتٌ كثيرة لا تعرف الحزن رغم أنّ أقدارها مأساوية، كخروف العيد والفراشة والوردة وحبّة المشمش؛ لأنّها لا تتمدّد في الزمن... لماذا هذا التمدّد في الزمن الذي يسخّف غبطة اللحظة وسكينتها؟

تعال أقبّلك ونصلّي معا
هل تتخيّل روعة هذا؟

سألتني سيدرا:

- ماذا استطيع أنا يا أمّي؟

- كلّنا، كلّ منّا يستطيع جعل هذا العالم أقلّ بؤسا، أو جعله أكثر جمالا...

لكن هل أنا جعلت حياة آدم وعمر وعائلتي أقلّ بؤسا؟

في أعماق كلّ منّا وجع كافكا وعدم ثقته بالقوانين التي تحكم هذا العالم! في أعماق كلّ منا كذلك صرخة نيتشه المدّوية: "أنا السّوبرمان! أنا الإنسان الأعلى!" وقبل أن ننتشي بوقعها، سنقع أرضا بقهقهة لا متناهية ونحن نرى السّوبرمان نفسه صاحب الصرخة هلك حيّا بسبب مرض فتك به وفتّت إرادته وزهوه؛ أوبسبب وَهَن حوّلَهُ طفلا لا حول له ولا قوّة؛ وباتت صرخته أقرب إلى صرخة إدفار مونش: كيف ننجو أخيرا؟

- لن أقول سنلتقي هناك يا عمر، في مكان آخر حيث اللامكان وفي زمان آخر حيث اللازمان.

قلت هذا لعمر وأنا أسترجع لحظات الطمأنينة الخاطفة التي شعرت بها وأنا قربه، في حضنه؛ وتابعت وأنا في حالة استلاب كامل:

- ابني ليس بخير أبدا! كنت مع آدم وحدنا في السيّارة؛ ذاهبان معاً إلى اللامكان. كان يكلّمني وكنت لا أسمعه! كنت مشغولة بما يدور في أعماقي. سألني:" أمّي هل أقود أنا؟"

أصبح على المقود، وأنا جالسة جنبه، أرتّب فوضى مشاعري وأفكاري. نظرت إليه، كان خائفا! الطريق شديد الإنحدار! نظر إليّ وإلى الطريق... السيّارة تسير وحدها! شعرت بالخطر داهما...

- دعني أقود يا آدم!

رفع قدميه عن دوّاسات السيّارة... عاد طفلا أمامي فجأة! برقت في رأسي فكرة أنّي مجنونة فعلا، إذ سمحت له أن يقود السيّارة... ليس مؤهّلا بتاتا لهذا!

كان على كرسيّ المقود دون أن يقود، وكانت السيّارة تسير، لا بل تطير وحدها، تأخذه، أو تأخذنا إلى هوّة... توقّف الهواء في أسفل فمي!

عجزت عن إزاحة آدم والجلوس مكانه؛ تكوّمت جنبه، أو فوقه، وأنا أحاول الوصول إلى دوّاسة المكابح بقدمي... المكان أصبح خانقا، حركة يدي ورجلي، معاقة تماما!

تحوّل آدم خوفا وكذلك قلبي...

قبل أن أختنق بصرختي وأنفاسي، استيقظت...! كان هذا حلما، لا بل كان كابوسا، أو كان إنذارا!

كنت في ذاك الحلم بكلّ خوفي ويأسي وهلاوسي. أخذت أنشج: "لا أريد أن أؤذي أحدا؛ لا أريد ان أذبح الشاة لآكل لحمها وأحيا؛ لا أريد أن أكون سعيدة ليوم واحد وحولي كمّ من التعساء!"

آدم لن يكون بخير إن لم أسيّر أمور حياته! هو يحتاجني في كلّ تفاصيل يومياته."

ردّ عمر بحزن واقتضاب شديدين:

- أنا لست ذاك الرّجل يا شمس. كوني بخير دوما.

ماذا فهم عمر؟ أو ماذا أردته أن يفهم؟

شعرت بحزن شديد، كأنّ الخيار أصبح: عمر أو عائلتي. لكنّه خيار قاس غبيّ قاتل! فأنا دوما استطعت تدوير الزوايا! بانجلوس يقطنني! بانجلوس ذاك الأستاذ الذي درّس كانديد فولتير طفلا والّذي كان يردّد: "كلّ الأشياء تعمل لأجل الخير الأسمى..." هل هذا الحلم يدلّني على الخير الأسمى؟

لم أفرح فرحة كاملة في حياتي! شكوت دوما من هذا.

كادت فرحتي بعمر أن تكون غامرة، كاملة؛ وكنت أغبط نفسي على كلّ هذا الفرح به ومعه! سريعا عزمت على تجاوزهذا التذبذب؛ ذاك الحلم مجرّد حلم!

قرأت رسأئل عمر على المسنجر، امتلأت خوفا وحزنا. حذفتها سريعا من صندوق الرسائل ومن رأسي. غدا سنكون معا. سأذهب إليه وسأمحو حزنه أبدا!

كنت أزهو بفستاني الأحمر الذي تطاير حولي، تسريحة شعري، بريق ابتسامتي، كنت فراشة فعلا؛ غادرني ثقل الشّعور بقلق الإختيار. أنا أحبّ عمر. وهذ أجمل ما فيّ!

اعتقدتها لحظه فرح كامل، كنت ملأى به. كلّ تلك الحكايات والصّور لن تحجب الضوء: حكاية عمر مع عواطف، ابني والطريق والحلم، رين وعيناها والموت، سيدرا وحزنها الرّقيق، محمد سعيد وسبابته التي تؤكد دوما أنّي آثمة وخاطئة.

عدوت في الشارع، مجنونة نقيّة عاشقة، أتطاير كلّي وليس شعري أو فستاني وحسب. كنت كما أفكاري في حالة تبعثر وتذبذب.

ردّدت بصوت عال:

ليست صحيحة تلك الفكرة، لا أستحقّ تلك الخيبة! لن يغيب عمر هذه المرّة الغيبة الكبرى؛ لن يختفي من يومياتي! وجدتني استرجع تلك الرسالة التي حذفت: "لم ينته تشرّدنا يا شمس، لن تكوني امرأتي وحدي في هذا العالم!"

أزحت تلك الرسالة بعيدا، وأخذت أفكّر، أو أحلم: سيحتضني من خلف وأنا أعدّ لنا طعام الفطور، ستملأني طمأنينةً ابتسامتُه، تلك الإبتسامة القانعة الراضية! أعرف جيّدا أنّنا في عالم حقير، وأنّ الغاب أكثر عدلا وأمانا من أوطاننا، وأعرف أنّني وعمر نحمل معا ماضيا ثقيلا، نحمل

آلاما وحرمانا وجوعا؛ لكنّي أعرف أيضا أنّه ابتسم برضى كامل وهو يأخذ يدي عندما ناولني عرنوس الذرة.

تلك الصورة الرومانسية الغبية، النمطية المبتذلة في الأفلام العربية أسعدتني حقا وبعمق وقتها، وأسعدتني الآن وبلذّة وأنا أسترجعها!

شعوري العميق بالغبطة، غبطة أنّ عمر يحبّني فعلا ودوما، لم يمحُ حزني! كأنّما ذاك الحزن أكبر من يقين وإله! عاودني خوفي من العالم، من نفسي، من عمر، من سيدرا... لا أريد أن أكون حزنا ثقيلا في حياة ابنتي!

قالت وهي تبكي خيبتها لمّا تركها حبيبها: "هو تركني لأنّك أمّي! أمّ مجنونة وأمّ خائنة!" قالت هذا ودخلت حضني وهي ترتعش وتهتز وتنشج. انتابتني حالة هستيريا؛ كانت كأس السّم أمامي ومعها صفحات متتالية من حياتي وأخطائي، ولأنّ عمر كما الله في أعماقي، لم أجرع السّم.

قبل أن أسترسل في استعادة بقيّة خيباتي وانتصاراتي، تلاشى العالم وضجيجه! شعرت بشيء ضخم يرتطم بجسدي... خرجت منه، من جسدي ذاك، من هنا، من المكان، من الحكايات، من الفراق، من الغبطة ومن الغُصّة! كانت لحظة، أكبر من كلّ إحساس! هل دخلت الحقيقة والسّلام الأبديين؟ كان الأسفلت دافئا كحضن عمر، شعرت بهذا للحظة وبعدها تلاشى جسدي، أوإحساسي به. كأنّني غرقت أبدا في أعماقي! اختفى الزمن، وتداخلت محطّاته.

لا شكّ أن كلّ هذا حلم، حلم كحلمي مع آدم! لم يمت هو ولم أمت أنا. الأطفال لا يموتون! والحبيب متى كان ساكنا في حبيبه لا يأخذه الله منه! الله الذي لا يكلّف نفسا إلّا وسعها، لن يسبّب لي مرّتين آلاما عظيمة كآلام الفقد هذه!

قال لي عمر في ذاك المطعم وهو يمسك يدي:"لا تفزعي يا شمس، العاشق لن ينأى وإن نأى! الغياب وهم كما الحضور، لسنا مجرّد تفاصيل، أنت حاضرة أبدا في قلبي يا شمس كالشمس، كالله! أنت يقيني أنّ في هذا

العالم ما يستحق أن نناضل لأجله. سقط الوطن، سقطت أمي، وسقطت أحلام كثيرة! بقيت لي أنت والقصيدة."

ككتبت لعمر وأنا أقرأ آلام فرتر: "غوتة لم يمت ولن يموت..."

أنا لم أكتب آلامي بعد!

كأنّ ذاك الحادث ما كان عبثيا! ها أنا أكتب أوراقي الأخيرة من حكاية بدأت ولم تنته ولن تنتهي. يتآكلني حزن جلل وسحر مقدّس. أنا وعمر وابنتي وابني وصديقي وكلّ الذين غادروا والذين لم يغادروا، موجودون أبدا! كلّ فرد منّا ليس فردا واحدا أحدا! نحن من نسيج واحد أبدي، كنّا منذ الأزل معا وسنبقى إلى الأبد معا.

الإنسان الأعلى الذي أؤمن به، يتجاوز ذاته! يعي أنّ كلّ الأحياء بدون استثناء هم أعلى لو امتلكوا وعيهم نقيّا. ليس سوبرمان نيتشه وحده هو المتفوّق. لكلّ مخلوق ميزة تمنحه فرادته؛ والحياة هي المساحة المتاحة له لاكتشاف هذه الميزة، أو هذا البعض من الله فيه. ليس العلوّ من عقل وفكر وعلم وقوّة جسد وحسب؛ الإنسان الأعلى هو من يمتلك يقينا أنّ فيه جانبا هو أعلى؛ هو من يسخر من جبنه وعقله وجسده وعجزه وقوّته وحزنه، وغبطته، وهو من يفرح بكلّ هذا!

أنا الآن، لايعنيني أين سأكون في الغد ولا كيف سيكون الغد! أنا أغنّي وكفى! أنا أحبّ وكفى! أنا أكتب وكفى!

أنا أعرف وأعي أن هذا الزّمن ليس زمن القرّاء والقراءة... وأصدّق ما قاله لي عمر لمّا سألته:

"كيف تستطيع أن تكتب وأحد لم يقرأك، وأحدٌ لن ينشر لك؟"

قال: "ما رميْتَ إذ رميْتَ لكنّ الله رمى... عليّ أن أكتب وأحبّك وعليّ أبدا ألّا أفقد يقيني."

أنا حيّة لأنّني حيّة!

عدت إلى منزلي وأنا في حالة تيه. كأنّي عليّ أن أبرّر لنفسي وللعالم سبب بقائي على قيد الحياة! كأنّ الحياة ها هنا اعتادت غيابي!

هنالك في كفن وغرف برائحة الاختناق والبكاء، اعتقدتني سأكون حرّة؛ سأحتضن عمر بكلّ ما أوتيت من قوّة! كان الكفن ولم يكن الموت! كان الاختناق ولم يكن عمر!

أنا هنا في مكان يُسمّى منزلي، في غرفتي أرقد حابسة الدفء بين أطرافي. عصافير تزقزق. ديك يقول أنا هنا مرّات ومرّات. الّذين أحبّهم نيام أو في حالة غياب. حزني فقد هويته ووجهته. لا حياة ها هنا ولا حلم هناك، عمر عاد واختفى. هل عاد؟ كأنّي اخترعته؛ كأنّ الحكاية كلّها بدون حكاية! لمَ لا أعدو إليه؟ هل سأُهزَم؟ هل سأهرم؟ هل أصدِّق الملل الذي يسخر من قلبي؟ هل أثرثر وأكتب أحداثا تافهة مكرّرة أسمّيها رواية؟

أخذت دفترا وقلما، نعم سأكتب رواية!

عنوانها: لماذا أنا حيّة؟

"الغريب أنّنا نبحث عن سبب للموت. كأنّنا بغير سبب نبقى أحياء!

لا تروقني صلوات رابعة ولا هلع الأم تيريزا وحنانها الفاخر. سأتخيّلني في سيناريو حرّ مطلقا؛ أقف عارية تماما... "ثدياي ثقيلان!أحتاج الحمالة" فكّرت؛ وليتكامل المشهد لا بدّ من سروال تحتي بلون حمالة النهدين. ولأعدو كفراشة لا بدّ من ثوب فضفاض يخفي جسدي الخجول ويظهر عشقه للحياة. أمشي وأغمض عينيّ، وأخترع ذاكرة جديدة! أحدّد المكان والزمان والشّخصيات والحدث الرئيسي. رغم الحدث الدّسم: "الكورونا"، أجدني أبتسم. لا تنفع الآن حكاية الأيدي المتشابكة الممدودة، ولا تنفع

الصّلاة جماعة! ولا ينفع ضحك مجلجل حتى البكاء ولا ينفع صراخ وعويل حتى الاختناق! ولاتنفع حكاية أنا وحبيبي والزيزفون والقبل! ولا تنفع حكاية الخيانة والعمالة والوطن؛ ولا تنفع حتّى حلقة زار أو رقص.

أنجبت... طبخت... ونحتت خصري واشتريت عقدا ذهبيا... وأنجبت طفلا ثمّ طفلة ثمّ طفلة؛ أرضعت، تحدّثت حديثا سخيفا مع زميلات وصديقات، وغمزت بعيني وبجلدي وبطرف فمي لرجالات كثر! لا أحتاج حبيبا شغوفا بجسدي وانحناءاته، لا أحتاج عاشقا يمرّر أصابعه على أنفي وشعري وأماكن أخرى في جسدي! لا أحتاج أمًّا تسألني: "أكلت أو نمت أو تمتلكين المال؟". أريد الآن رفيقا وحسب؛ لا يزعجه صمتي ولا سكون جسدي، ولا وقوفي لساعات تحت الماء السّاخن؛ بكائي فجأة، صلاتي وإغماضة عيني، إقبالي الشّره على الطّعام، ووقوفي وجلة بذراعين مقفولين، عدوي وشعري يلاحقني، غنائي للسّماء والغصّة تخنقني؛ وأريد الهواء، لا أحتاج ها هنا إلّا بعضا من هواء. أحتاج حياة بتفاصيل عادية: دم طمث ودم مشيمة ودم جرح ودم دمع ودم فَقْدٍ ودم صفعة وعناق وعناق ثم عناق..."

انتهت الرواية!

أنا حيّة لأنّني حيّة!

الخاتمة

بين صفحات هذه الرواية (لو تصلح أن تكون رواية) نصوص؛ تدفقّت في لاوعي شمس، طوال مدّة غيبوبتها. سطرتها كما هي، ببكارتها، وصدقها وانسيابها وعفويتها وبينها كذلك نصوص أخرى خطّها وعي شمس الذي يزعم أنّه لربّما وجد خيوط الحكاية والطّريق...

وفاء أخضر